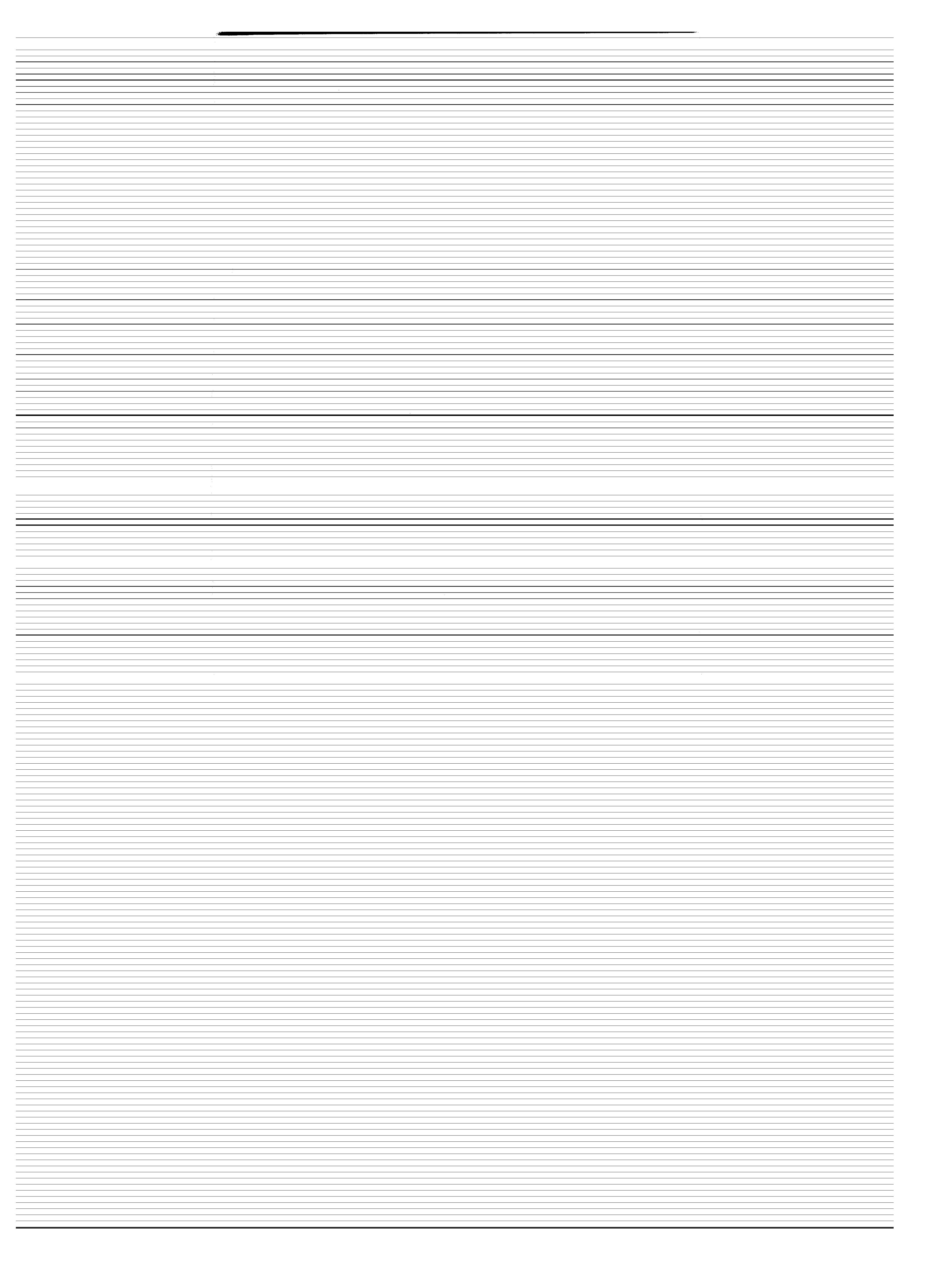
سلسلة «مفردات التربية الإسلامية»

« ٣ »

التربيــة العقليـة

تأليف
الدكتور على عبد الحليم محمود
من علماء الأزهر



بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء هذه السلسلة

إلى الذين يعملون فى صمت، ويحتسبون عند الله ما يقومون به من جهد فى تربية المسلمين، متخذين من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة رافداً يمدهم بالقيم التربوية الصحيحة.

وإلى الذين يرغبون فى أن يعرفوا عن التربية الإسلامية ما لا يسع المربى جهله.

وإلى الذين يقومون على المؤسسات التربوية الإسلامية:

البيت،

والمسجد،

والمدرسة،

والنادى،

والمجتمع كله.

إلى هؤلاء أقدم هذه السلسلة: «مفردات التربية الإسلامية» أو المدخل إلى التربية الإسلامية.

سائلا الله تبارك وتعالى لهم أن يجدوا فى هذه السلسلة ما يعينهم على ممارسة التربية الإسلامية الصحيحة النابعة من مصدريها الرئيسين: الكتاب والسنة.

والله تعالى حسبى وهو نعم الوكيل.

علی عبد الحليم محمود

القاهرة: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م



إهداء هذه الحلقة من السلسلة

إلى الذين يهتمون بالتربية الإسلامية فى صورتها المتكاملة:

روحية، وخلقية، وعقلية، وبدنية، ودينية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وجهادية، وجمالية.

ويؤمنون بأن كل جانب من هذه الجوانب له أهمية الجانب الآخر، ويوقنون بأن أى جانب منها لا يغنى عن سواه، من منطلق أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد أوليا هذه الجوانب العشرة من الاهتمام ما لا يدع لأحد فرصة لأن يقلل من شأن أى جانب.

وإلى الذين يتصورون - خطأ - أن العقل يعارض الشرع!!!

وإلى الذين فُتنوا بالعقل حتى قالوا: إنه يغنى عن الشرع!!!

وإلى الذين هونوا من شأن العقل وشأن الإنسان.

وإلى الذين يرغبون فى أن يعرفوا عن التربية الإسلامية للعقل، ما لابدَّ من معرفته.

وإلى الذين أُوتوا الحكمة.

وإلى كل مهتم بالتربية العقلية، أهدى هذه الحلقة الثالثة من هذه السلسلة: «التربية العقلية»، والله المستعان.

بين يدى هذا الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم رسل الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، إلى يوم الدين.

فهذا الكتاب «التربية العقلية» هو الحلقة الثالثة من سلسلة: «مفردات التربية الإسلامية» التى تمثل بحلقاتها العشر، المدخل إلى التربية الإسلامية، والتى نأمل أن نجلى بها مفهوم التربية الإسلامية، ونوضح من خلالها أهدافها ووسائلها؛ لنسهم بذلك فى تيسيرها وتحديد أبعادها، بعون من الله وتوفيق.

● وقد ظهر من هذه السلسلة حلقتان:

– التربية الروحية،

– والتربية الخلقية،

وتلك هى الحلقة الثالثة: «التربية العقلية».

● ويليها إذا أذن الله وأعان: التربية البدنية، والتربية الدينية، والتربية الاجتماعية، والتربية السياسية، والتربية الاقتصادية، والتربية الجهادية، والتربية الجمالية، رغبةً منا فى تأصيل هذه التربية الإسلامية – أى معرفة أصولها وقيمها وأهدافها – من خلال القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

● وهذا التأصيل على هذا النحو الذى تشتمل عليه هذه الحلقات العشر، لم أجده فى كتاب من كتب التربية – فى حدود علمى القليل – وما أعد ذلك إلا من توفيق الله تعالى، وفتحه أبواب الخير أمام من يريد من عباده، وأرجو أن أكون من هؤلاء.

● هذا التأصيل على هذا النحو يحتاج إليه أصناف من المسلمين فى العصر الحاضر: عصر الإحياء الإسلامى، والتجديد لأمر هذا الدين العظيم. إذ يحتاج إليه:

– كل مشتغل بالتربية الإسلامية من غير المتخصصين فى الاستنباط من مصدرى الإسلام: الكتاب والسنة.

– وكل مشرف على إحدى المؤسسات التربوية:

- البيت: أبًا وأمًا وإخوة كبارًا، ومن هم فى حكم الآباء والأمهات،
- والمسجد: واعظًا، وإمامًا،ومعدًا لأى درس فى المسجد،
- والمدرسة: معلما ومديرا، ومؤلف كتاب مدرسى، ومشرفا على أى نشاط ثقافى فى المدرسة.
- والنادى: رئيسًا ومشرفين على الأنشطة العديدة فيه.
- والمجتمع كله: شارعًا وسوقًا وأماكن تجمع، وكل متعامل مع غيره من الناس.

- وكل عالم من علماء التربية فى أى فرع من فروع علم التربية،
- وكل باحث أو دارس فى مجال التربية الإسلامية.

- كل هؤلاء بحاجة إلى أن يعرفوا التأصيل الشرعى للتربية الإسلامية، دون الوقوف عند الشروح والتفسيرات التى لا تعتمد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مصدرين رئيسين لهذا التأصيل.
- وأجد لزاما علىّ هنا أن أذكّر بما سبق أن تحدثت عنه فى المدخل إلى هذه السلسلة كلها، عندما قدمت الحلقة الأولى منها: «التربية الروحية» أذكر به فى إيجاز، فيما يلى:

أولا: تحديد هدف الإنسان المسلم فى هذه الحياة الدنيا، وهو:

- توحيد الله تعالى بعبادته وفق ما شرع على لسان خاتم أنبيائه محمد ﷺ.
- والالتزام بمنهجه فى الحياة: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بحيث نمارس الحياة من خلال ما جاء فيهما من أمر ونهى.
- وإعمار الأرض لكى تصبح حياة الناس فيها أحسن وأرقى، حتى تناسب تكريم الله تعالى للإنسان وتفضيله على كثير من خلقه.

وتحت كل فرع من هذه الأفرع الثلاثة؛ عشرات النقاط على نحو ما هو معروف ومبسوط فى مظانه من الكتب والدراسات[1].

- كما أحب أن أذكّر بما قلته فى المدخل إلى هذه السلسلة، من أن وسائل تحقيق هذه

---

(١) على سبيل المثال: انظر للمؤلف: فقه الدعوة إلى الله، وفقه الدعوة الفردية، وفقه المسئولية، وفقه الأخوة فى الإسلام، ففيها كثير من تفصيلات هذه الأهداف.

الأهداف على وجه الإجمال ثلاثة:

– التعلم: أى طلب العلم،

– والعلم: أى التحصيل والاستيعاب،

– والتعليم: أى نشر العلم فى الناس ودعوتهم إلى الحق والخير والهدى، مع التأكد من أن هذه الوسائل الثلاث متكاملة لا يغنى بعضها عن بعض، وهى لا تخرج فى مجموعها عن المفهوم العام الذى يعرفه الناس عن التربية فى أى زمان وأى مكان.

● وأذكر بما قلته – فى هذا المدخل – من أن بناء الشخصية المسلمة القادرة على تحقيق أهدافها فى الحياة الدنيا، وعلى التعامل مع الوسائل والأساليب التى تساعد على تحقيق تلك الأهداف، هى الشخصية المتكاملة التى تجتمع فيها هذه المفردات العشر، دون أن تطغى فيها مفردة على أختها؛ إذ هى بهذا التناسق تستطيع أن تتفاعل، وتتعامل مع الحياة الدنيا وفق منهج الله تعالى ونظامه، لتنال بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

هذا اختصار وإيجاز لما فصلته فى هذا المدخل أذكّر به، والذكرى تنفع المؤمنين.

وبين يدى هذه الحلقة «التربية العقلية»

أقول: إن هذا النوع من التربية العقلية يجيء تاليًا للتربية الروحية، والتربية الخلقية، ويتلوه بالضرورة «التربية البدنية»(١)؛ لأن الإنسان روح وخلق وعقل تعيش فى بدن، بحيث لا يمكن فصل بعض هذه الأربعة عن بعض وإلا اختل كيان الإنسان وبناؤه، وقدرته على القيام بالتكاليف الشرعية التى خلق من أجل أن يقوم بها.

● وقد استهدفنا فى حلقة: «التربية الروحية» أن نوضح كيف تصفو روح الإنسان من الشوائب، وتحسن الاتصال بخالقها سبحانه وتعالى، وتقبل عليه وتتلقى عنه، وتعبده كما شرع، وأوضحنا كيف نُربى الروح لتحقق هذه الأهداف.

● واستهدفنا فى حلقة «التربية الخلقية» أن تكون القيم الخلقية التى تحكم سلوك الإنسان نابعة من الحق والخير والهدى؛ أى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأوضحنا كيف يربى

---

(١) وهى الحلقة القادمة إذا أذن الله وأعان.

الخلق تربية إسلامية لتحقيق هذه الأهداف .

● وفى هذه الحلقة : « التربية العقلية » نستهدف، ما يلى :

– معرفة كيفية تربية الإسلام للعقل،

– ومعرفة صلة الإيمان بالعقل،

– وتوضيح علاقة العلم بالعقل فى الإسلام،

بالإضافة إلى أهداف أخرى عديدة، جاءت فى ثنايا الكتاب .

● إن تربية الإسلام للعقل –فى كتابنا هذا– تعنى عددا من الحقائق هى :

– رعاية الإسلام للعقل بما يمده به من الغذاء النافع من العلم والمعرفة، والدعوة إلى التأمل والنظر فى الكون والحياة .

– واحترام الإسلام للعقل واعتباره مناط التكليف،

– وإطلاق العقل من قيود التبعية، وجمود التقليد،

– ووجوب التفكير والتأمل والنظر فى ملكوت الله ومخلوقاته؛ لأخذ العبرة والعظة لتصحيح الإيمان وتقويته .

– وإلزام العقل بالعلم؛ إذ جعل العلم أحد فرائض الإسلام .

– وإبطال دعوى أن العقل يتناقض مع الشرع .

– وتأكيد أن الشرع كله جاء بما يوافق العقل، واعتبار الشرع والعقل جناحين يحلق بهما الإنسان فى سماء الحياة الدنيا؛ ليحيا حياة كريمة، ويهتدى بهما إلى أمثل ما يجعل الحياة الآخرة موضع رضا الله تعالى، وسببا فى مثوبته سبحانه وتعالى .

● وقد أخضعتُ هذا الكتاب لمنهج يقوم على دعائم أساسية هى :

– توضيح المفاهيم والمصطلحات، بإلقاء الضوء عليها؛ بحيث تنكشف معانيها بغير لبس فضلا عن غموض،

– وتأكيد مكانة العقل فى الإسلام، وتأكيد مدى ارتباط العقل بالإيمان من جانب، وبالعلم من الجانب الآخر .

– وجمع النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة، لتأكيد كل قضية تثار فى هذا الكتاب، أملاً فى تأصيل تربية الإسلام للعقل.

● وتلك الدعائم الثلاث هى ما يحتاج إليه اليوم القارئ المسلم الذى يعيش زمناً امتلأ بالمغالطات والافتراءات على الإسلام وقيمه.

وقد حمل عبء هذه التهجمات على الإسلام متعالمون لا يعرفون عن الإسلام ما يعطيهم الحق فى الحديث عنه، فضلا عن التهجم عليه؛ إذ إنهم لا يحسنون نطق القرآن الكريم، فضلا عن تلاوته، فضلا عن استنباط أحكامه وأخلاقه وآدابه، وقل أن يعرف هؤلاء المتعالمون طريقاً إلى معرفة السنة النبوية التى فصلت القرآن الكريم وشرحته.

● إن القارئ المسلم اليوم محاصر بعدد من أدعياء العلم والكتابة الذين أتيحت لهم وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة ليهذى أحدهم بما يضمر من إلحاد ومن ازدراء لكل ما هو إسلامى، متهجماً على الدين والتدين والمتدينين، حتى ليوشك بعض الناس أن يصدقوا هذا الباطل، وأن يقتنعوا بهذا الزور والبهتان.

– فكلما نعق ناعق بالهجوم على القرآن الكريم أو السنة النبوية، رحبت به وسائل الإعلام ووصفته بأنه مبدع وأنه يمارس حرية الرأى!!!

– وكلما نهق ناهق بمزاعم تافهة يرمى من خلالها الإسلام بتهم ليست فيه، لقى من تقدير أعداء الإسلام وحمايتهم له ما يلفت الانتباه!!!

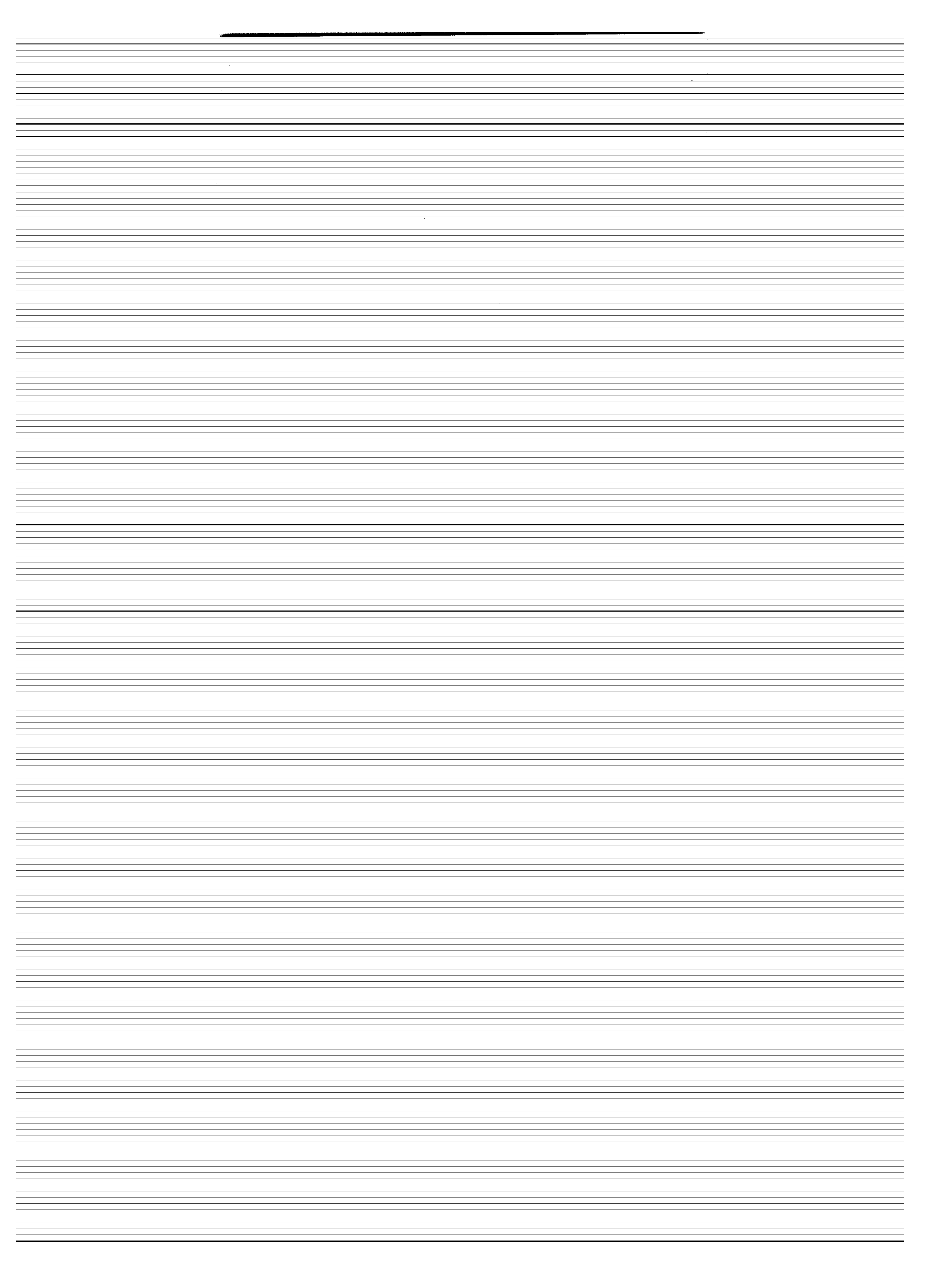
● إن القارئ المسلم اليوم، وقد أصبح الباطل أقوى من الحق، والضلال أكثر من الهدى، كما غدا هجر القرآن والإسلام أكبر من التمسك بهما، فضلا عن الإقبال عليهما؛

هذا القارئ يحتاج إلى أن تؤصل له قواعد الإسلام وأسسه، حتى يميز الخبيث من الطيب، والغثَّ من السمين.

● ومن القواعد المقررة فى الإسلام فى بناء المجتمع، وبناء الإنسان نفسه، عنايته الفائقة بتربية الإنسان تربية متكاملة تشمل: روحه وخلقه وعقله وبدنه ودينه وحسه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، وإعداده للجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، وتربية حسه الجمالى ليتناول الحياة بأسلوب جميل؛ انطلاقا من حقيقة أن الله تعالى جميل يحب الجمال.

● وتلك هى مفردات التربية الإسلامية التى جعلنا هدفنا أن نوضحها ونؤصلها، ونرد بها سهام أعداء الإسلام الذين يتربصون به وبالمسلمين الدوائر، ونبصّر بذلك المسلمين، ونلفت انتباههم إلى تلك القيم الإسلامية الرفيعة، وإلى ذلك المنهج الإسلامى المتكامل الذى يضمن لمن تمسك به سعادة الدنيا والآخرة.

ومن الله نستمد العون والتوفيق، وعنده سبحانه نحتسب الأجر والتأييد، فهو نعم المولى ونعم النصير.



الفصل الأول:

مصطلحات ومفاهيم

ويتناول:

١ - مصطلح التربية ومفهومها،

٢ - ومصطلح العقل ومفهومه،

٣ - ومصطلح عمل العقل ومفهومه.

الفصل الأول

مصطلحات ومفاهيم

من ضروريات البحث ومنهجيته أن تحدد مفاهيم المصطلحات التى ترد فيه، قبل خطوات العمل فيه، بل توضح فيه معانى بعض الألفاظ الغامضة.

● ولكل مصطلح مفهومه المستقر عند غالبية العلماء لا جميعهم. وإنما كان تحديد المفهوم لكل مصطلح على هذه الدرجة من الأهمية لأسباب معروفة منها: سهولة المضى فى البحث دون شوائب أو عوائق قد يؤدى إليها غموض المعنى لمصطلح مّا يرد فيه.

– ووضوح الرؤية لكل ما يرد فى الموضوع من أفكار وتوجهات وأحكام علمية ونحوها مما تتضمنه نتائج البحث.

– وقطع الطريق على الخلافات الناشئة من غموض بعض المصطلحات، ليكون الإقناع متاحا للطرف الآخر.

– والقضاء على المشاحنات والخصومات التى قد تصل إلى مستوى ضخم، وإن كان أصلها الاختلاف فى فهم معنى لفظ أو مصطلح.

● ولكل لفظ دلالته التى تفهم من معاجم اللغة حينا، ومن كثرة تداول الناس له حينا، ومن سياق الكلام الذى جاء فيه أحيانا.

ولهذا كان ضروريا كذلك أن يوضح معنى اللفظ الوارد فى الموضوع؛ إن كان يكتنفه أى نوع من الغموض.

ولقد علّمنا القرآن الكريم ذلك المذهب فى توضيح المفاهيم وتحديدها فى قول الله تعالى: **﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾** [المعارج: ١٩].

فكلمة الهلع فى المعاجم تعنى شدة الجزع، ولكن القرآن أوضح مدلولها فى هذه الآية بآيتين بعدها؛ إذ قال سبحانه وتعالى: **﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾** **[المعارج: ٢٠، ٢١]**.

فأوضح للهلع الذى طبع عليه الإنسان معنى آخر يضاف إلى ما فى معاجم اللغة؛ إذ

أوضحت هاتان الآيتان أن الهلع هو شدة الجزع للإنسان عندما يمسه المكروه والعسر، وشدة منع الخير وحرمان الناس منه؛ عندما يحصل الإنسان عليه.

● ونحن نتعلم من كتاب الله فى كل مجال، بل يجب أن نتعلم منه دائما، لذلك كان حرصنا على توضيح المفهوم لكل مصطلح كخطوة أولى فى الحديث عن أى موضوع.

● والمصطلحات التى سوف ترد فى هذا الكتاب قليلة العدد، ولكنها هامة؛ إذ عليها يقوم بناء الكتاب كله.

وهذه المصطلحات هى:

مصطلح التربية،

ومصطلح العقل،

ومصطلح عمل العقل،

وما يمكن أن يعرض لنا من ألفاظ تحتاج إلى إيضاح وتحديد لمعناها، والله المستعان.

١ - مصطلح التربية

مصطلح التربية – كما سبق أن أوضحنا مفهومه فى الحلقتين السابقتين: التربية الروحية، والتربية الخلقية – له مفهوم عام لا يكاد يختلف عليه العلماء والباحثون، إلا فى أضيق نطاق.

● وهذا المفهوم العام للتربية هو: «النظام الاجتماعى الذى يحدد الأثر الفعال للأسرة والمدرسة وتنمية النشء من النواحى الجسيمة والعقلية والأخلاقية، حتى يمكنه أن يحيا حياة سوية فى البيئة التى يعيش فيها»، ذلك مفهوم للتربية يتفق عليه الباحثون فى الشرق والغرب، وليس حوله كبير خلاف.

● كما يتفق الباحثون فى الشرق والغرب على أن التربية: «علم يبحث فى أهداف تنمية الفرد من النواحى البدنية والفكرية والخلقية، والمناهج والوسائل التى تستخدم لتحقيق الأهداف».

ولا خلاف على ذلك بين الباحثين أيضا.

● وعلماء الاجتماع يعتبرون التربية أدخل فى دراساتهم وبحوثهم أكثر من دخولها فى أى علم آخر، بل يعزلون علم الاجتماع التربوى عن سائر علوم الاجتماع، إذ يخصونه بتعريف يقولون فيه: «هو علم يبحث فى النظم التربوية، وفى قوانين تطورها، وكيفية تأدية هذه النظم لوظائفها، وعلاقاتها بالنظم الاجتماعية الأخرى».

– ولعلماء الاجتماع فى المفهوم العام للتربية تعريف يخصهم، وإن كان لا يختلف كثيرا عن المفهوم العام الذى ذكرناه آنفا، فهم يقولون: «إن التربية انتقال المعرفة من جيل إلى جيل، أو من أب لولده، أو من معلم إلى متعلم» ويضيفون: «أن هذا الانتقال كلما تمَّ بحرص وأمانة، فقد حققت التربية هدفها، وكلما كان الناقل على مستوى الدقة والإخلاص، وكان المتلقى عنه على نفس المستوى أيضا، كلما كانت التربية – من خلال هذه الوسائط– فى صورتها الجيدة الهادئة الهادفة».

● ومعنى تلك التعريفات أن وظيفة التربية عموما هى: صياغة المجتمع ومراقبته، وإعطاء

المتعلمين المقدرة على ممارسة حياة إنسانية كريمة تمكنه من ممارسة حقوقه، ومن أداء واجباته فى المجتمع الذى يعيش فيه.

وصف التربية بأنها إسلامية

التربية الإسلامية - بهذا الوصف، أو بهذا القيد - تختلف عن المفهوم العام للتربية عند غير المسلمين، من عدة وجوه، نشير إلى أهمها فيما يلى:

١ - أن التربية الإسلامية تضيف إلى وسائط التربية: المسجد، وتعطيه أهمية قصوى، وتكل إليه أنواعا من التربية قلَّما يحصل عليها المتلقى إلا فى المسجد.

فهذا نوع اختلاف جدير بالتأمل والنظر، وذلك أن علماء التربية من غير المسلمين أغفلوا دور العبادة إغفالا، ولم يعدوها بحال من وسائط التربية، أو الوسائل التربوية.

٢ - وأن التربية الإسلامية لا تكتفى بأن يحيا الإنسان بها حياة سوية فى البيئة التى يعيش فيها» وإنما أدخلت فيها ما أهمله علماء التربية الغربيون، وهو الحياة الآخرة؛ أى الحياة الأبدية، حيث لم يجعلوا الحصول على السعادة بها هدفا للتربية.

أما التربية الإسلامية فتستهدف دائما إصلاح الحياة الدنيا وإصلاح الحياة الآخرة.

٣ - وأن التربية الإسلامية لها مصدر معين تستقى منه، وتعرف من خلاله أهدافها وقيمها ومناهجها، بل بعض وسائلها، ولها - من بعد ذلك - مرجعيات ثانوية تستعين بما فيها من تجارب تربوية.

- فمصدر التربية الإسلامية ومعينها هو الكتاب والسنة النبوية المطهرة، فالقرآن الكريم كما قال عنه تعالى: ﴿ ... **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** (٨٩) ﴾ [**النحل**: ٨٩]. والسنة النبوية هى التى تفصل ما أُجمل فى القرآن الكريم، قد قال الله تعالى عنها: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** (٧) ﴾ [**الحشر**: ٧]، وروى أبو داود بسنده عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإنّ ما حرّم رسول الله، كما حرم الله...».

– ومرجعيات التربية الإسلامية هى ثرات المسلمين فى التربية، وما تركه مشاهير علماء التربية منهم فى العصور السابقة؛ بشرط أن يكون ملائما للعصر الذى يعيشون فيه.

● أما علماء التربية من غير المسلمين فيجعلون معينهم التجارب الإنسانية وحدها، بل التجارب الخاصة بالإقليم الذى يعيشون فيه دون سائر الأقاليم.

ومعنى ذلك أن التربية الإسلامية تأخذ من تجارب الإنسانية كلها فى اعتبارها إلى جوار مصدريها الأصيلين: الكتاب والسنة.

● وهذه النقاط الثلاثة التى ذكرنا هى الفروق الرئيسة بين التربية الإسلامية وغيرها، وهى فروق جوهرية جديرة بالتأمل والنظر.

● ووصف التربية بأنها إسلامية يعنى أن تكون لها سمات تميزها، ومن هذه السمات ما نشير إلى بعضها فيما يلى:

١ – أن تكون الأسس التى تقوم عليها التربية الإسلامية – أى الثوابت لا المتغيرات – من صميم الإسلام، الكتاب والسنة، وهذه الأسس كما هو معروف هى: العقيدة والعبادة والخلق.

– فالعقيدة – وهى التوحيد والإيمان والإسلام والإحسان – أساس من أسس التربية الإسلامية.

– والعبادة لله وحده، وفق ما شرع وما بلغ عنه رسوله الخاتم ﷺ، أساس من أسس التربية الإسلامية.

– والأخلاق، أى مجموع الفضائل التى يجب أن يتحلى بها المسلم، ومجموعة الرذائل التى يجب أن يتخلى عنها المسلم أساس من أسس هذه التربية.

٢ – وأن تكون التربية الإسلامية مستهدفة إعداد الإنسان وتعليمه؛ لكى يتعامل بإحسان مع هذه الحياة الدنيا وما فيها من ناس وأشياء، تعاملا يوافق منهج الله وشريعة الإسلام، وخلاصة ذلك المنهج فى كلمات فى مجال التعامل هى: الالتزام بالعدل والإحسان، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٣ – وأن تكون هذه التربية مستهدفة أن تجعل المسلم مرنا واسع الأفق قادرا على التعامل مع المتغيرات والمستجدات التى تقتضيها ظروف الزمان والمكان والأحوال، دون رفض مطلق

ولا قبول مطلق، وإنما تكون هناك نظرة فاحصة موضوعية تتقبل ما يجلب المصالح وما يدفع المفاسد؛ بشرط ألا يصطدم بشيء من أخلاق الإسلام.

● ومعنى ذلك أن التربية الإسلامية تربى الفرد القادر على الاجتهاد فيما يجد حوله من أمور، مع محافظته على الثوابت الإسلامية بحيث لا يزعزعها متغير من المتغيرات.

إنها تبنى الشخصية القادرة على مواجهة المتغيرات بعلم وفقه ومرونة، والتزام بأسس الدين وثوابته.

٤ – وأن تقوم هذه التربية الإسلامية على احترام العقل البشرى وإعطائه الحق فى التفكير، لقبول أمر أو رفضه؛ دون أن تفرض عليه قيودا مسبقة. ومعنى احترام عقل الإنسان هو احترام إرادته، وقد علمنا القرآن الكريم أن للإنسان حرية إرادة كاملة فى قول الله تعالى مخاطبا خاتم رسله ﷺ: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ..... ﴿٢٩﴾﴾ [**الكهف**: ٢٩]، فأى إرادة حرة كهذه؟! من آمن بمطلق إرادته فهو خير له، ومن كفر بمطلق إرادته فلا سلطان لأحد عليه يجبره على الدخول فى الإيمان.

تلك هى التربية التى تحترم العقل والإنسان، وتعلمه أن يتحمل هو مسئولية نفسه، أمام نفسه وأمام الله وأمام الناس.

وبغير هذا الاحترام للعقل وإعطائه حرية النظر والتفكير وحرية العلم والبحث والابتكار وحرية الاستنتاج، لا تكون التربية إسلامية.

٥ – وأن تكون نظرة التربية الإسلامية للإنسان على أنه أكرم مخلوقات الله تعالى، وأولاها بالاحترام والتقدير؛ وذلك أن الله تعالى قد سخر له ما فى السموات والأرض وفضله على كثير من خلقه وجعله أعظم حرمة من الكعبة ذاتها، كما ورد ذلك على لسان النبى ﷺ.

● وكل غمط لأى حق من حقوق الإنسان عدوان عليه وظلم له، والإسلام قد حرم الظلم والعدوان.

● وكل تربية لا تحترم الإنسان ولا تكرمه، ولا تعترف بكافة حقوقه وتلزمه بواجباته فهى تربية لا يمكن وصفها بأنها إسلامية.

● هذه بعض الخصائص أو السمات التى تجيز لنا وصف التربية بأنها إسلامية، أذكر بها هنا فى هذا الإيجاز بعد أن أفضت فى تفصيلها فى الحلقتين السابقتين من هذه السلسلة[1].

● ولابد لنا بعد ذلك من أن نعرف التربية الإسلامية تعريفا يلائم أهدافها وخصائصها ويفرق بينها وبين غيرها، فنقول فى تعريفها العام: «هى النظام الاجتماعى الذى جاء به الإسلام ليتحدد من خلاله الأثر الفعال للأسرة بمفهومها الضيق الذى يشمل الأبوين والأرحام والأقارب، ومفهومها الواسع الذى يدخل فيه الجيران والأصدقاء والمجتمع كله.

وليتحدد من خلاله الأثر الفعال للمسجد، وما يتركه فى أرواحهم وعقولهم وأخلاقهم من توجيه وتأثير،

وليتحدد من خلاله أثر المدرسة منهجا ومعلما ومكانا فى المتعلمين، من توجيه لطاقاتهم وتنمية لقدراتهم، وتمكين لهم من الإسهام فى النهضة بالمجتمع الذى يعيشون فيه».

● والتربية الإسلامية بهذا المفهوم العام تنتقل من جيل إلى جيل، ومن أب إلى ابن... ومن معلم إلى متعلم، ومن آمر بالمعروف إلى مأمور به، ومن ناه عن المنكر إلى منهى عنه.

● أما المفهوم الخاص للتربية الإسلامية، فهو يحتاج منًّا إلى تعريف له نكشف به ما يحتمل أن يحيط به من خفاء.

فإذا كان علماء التربية فى الغرب والشرق، يعنون بالمفهوم الخاص للتربية: تلك العملية المتجهة من الكبار إلى الصغار، بقصد تنشئتهم تنشئة حسنة حسب مراحل نموهم، فى ظل المدرسة وما يحيط بها من ظروف وإمكانات علمية وفنية، فإننا نستطيع أن نعرف التربية الإسلامية فى مفهومها بقولنا: هى تلك العملية التعليمية المتجهة من الكبار إلى الصغار، بقصد تنشئتهم تنشئة حسنة، تحقق لهم إنسانيتهم، وما كرمهم الله تعالى به، حسب مراحل نموهم فى ظل مدرسة إسلامية فى منهجها ومعلمها وكتبها والقيم السائدة فيها، بل ومبانيها ومرافقها، ليشبوا على الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والرسل والقضاء والقدر، وما يستوجبه هذا الإيمان من عمل صالح وعبادة لله تعالى وفق ما شرع، والتزام بأخلاق القرآن وتعامل بالإحسان مع الله ومع النفس ومع الناس جميعا، ليتحقق من وراء ذلك كله سعادة الدنيا والآخرة.

● وهذان التعريفان للتربية الإسلامية بمفهوميها العام والخاص إنما جاءا كذلك على نحو ما

---

(١) وهما: التربية الروحية، والتربية الخلقية، وكلاهما من نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

قلنا؛ لأننا خضعنا فى هذين التعريفين لأهداف التربية الإسلامية المعروفة، والتى يمكن أن نوجزها فى السطور التالية[1]:

١ - تكوين العقيدة الصحيحة للإنسان:

العقيدة الصحيحة فى الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والعقيدة الصحيحة فى الإنسان وفى قوى -الشياطين- وفى الكون كله.

٢ - وتعليم الإنسان كيف يعبد الله وحده وفق ما شرع من منهج ونظام، بحيث يتحقق له الإيمان بمفرداته، والإسلام بأركانه، والعدل والإحسان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله، والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

٣ - وبث مبدأ التعارف بين الناس، الناس جميعا، لأن الله تعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** .. (١٣) ﴾ [**الحجرات**: ١٣]. وليس التعارف بين المؤمنين فقط، ولكنه عام.

٤ - وبث روح التعاون بين الناس على البر والتقوى، لجلب المصالح الدينية والدنيوية، ودفع المفاسد الدينية والدنيوية، ومنع أى اتفاق - فضلا عن تعاون - على إثم أو عدوان، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ..... (٢) ﴾ [**المائدة**: ٢].

٥ - وإقدار الناس بتعليمهم وتدريبهم على إعمار الأرض بالعلم والعمل والمعرفة والتقنية، وكل ما يجعل الأرض أكثر عمرانا وتقدما، وأكثر ملاءمة ليعيش عليها الإنسان حياة كريمة تستثمر كل ما فيها من خيرات وطاقات.

٦ - وتعليم الإنسان وتدريبه على أن يعمل الصالحات، وأن يلتزم بأداء ما أوجب عليه الله، فيؤدى واجبه نحو ربه ونحو نفسه ونحو أهله وذويه، ونحو الناس جميعا، ونحو أمته الإسلامية كلها، حتى يكون بعيدا عما يغضب الله تبارك وتعالى.

٧ - وتعليم الإنسان وإقناعه بوجوب إن ينشئ بيتا مسلما، فيحسن اختيار الزوج، ويحسن رعاية الأبناء ويربيهم تربية إسلامية تهيئهم للحياة الإنسانية الكريمة، وتعلمهم منذ نعومة أظفارهم أن لهم حقوقًا وأن عليهم واجبات.

---

(١) تحدثنا عن هذه الأهداف بالتفصيل فى الحلقتين الأوليين من هذه السلسلة: التربية الروحية، والتربية الخلقية، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥م.

٨ - وبث الرغبة فى حب الخير فى نفوس الناس، وحثهم على تقديم الخير والنفع لكل أحد فى الأطر المعروفة التى تبدأ بالنفس ثم بمن يعول ثم بالأقارب والأرحام فالجيران والأصدقاء فالمجتمع كله، لأن ذلك هو الذى يبنى مجتمعا مسلما تترسخ فيه القيم الخلقية الفاضلة وتحاصر فيه الرذائل وفاعلوها، فيعيش الناس آمنين مطمئنين لا يخشى أحدهم إلا الله أو الذئب على غنمه.

٩ - وتعزيز الانتماء فى الإنسان المسلم، الانتماء إلى دينه ومنهجه ونظامه، والاعتزاز بكتابه وسنة نبيه ﷺ ولغته لغة القرآن الكريم، وأمته العربية التى هى جزء من أمته الإسلامية، وتعزيز انتمائه إلى أمته الإسلامية، كل ذلك فى إطار من الوعى الصحيح والإدرك الناضج، وبعيدا عن التعصب ورفض الآخر.

١٠ - وتعليم الإنسان المسلم وتربيته وتدريبه على أن يكون مسلما إسلاما عمليا لا قوليا ولا عائليا ولا قوميا، وإنما يكون أنموذجا حيًّا للإسلام الذى آمن به، لأن هذا هو الأصل، وهو الذى يتمكن به المسلم من القضاء على النفاق، وازدواج الشخصية والتلون، فلا يكون من أولئك الذين يؤمنون وجه النهار ويكفرون آخره.

ويكون ذلك على مستوى الفرد وعلى مستوى الأسرة وعلى مستوى المجتمع والوطن، وعلى مستوى الأمة العربية والأمة الإسلامية.

١١ - وتكوين المسلم القادر على ممارسة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن؛ على اعتبار أن الدعوة إلى الله واجب شرعى وليست نافلة يقوم بها من أراد، والدعوة إلى الله مستلزمة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وحب الخير وبغض الشر، والإحسان فى كل شيء.

١٢ - وتكوين المسلم وإعداده روحيا وخلقيا وعقليا وبدنيا لكى يجاهد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. ولكى تصل كلمة الله إلى كل أحد، ولكى لا يعبد إلا الله وترتفع راية التوحيد، دون إكراه لأحد على الدخول فى الدين؛ لأن ذلك هو الذى يمكن لدين الله فى الأرض، وذلك التمكين مطلب شرعى، ولأن هذا الجهاد هو الذى يحافظ على التمكين لدين الله بعد الوصول إليه، الجهاد كل الجهاد: جهاد الشيطان والنفس وأعداء الله بكل أنواع الجهاد بالكلمة واللسان وبالجهد والوقت والمال، وباليد والقوة والحرص على الموت فى سبيل الله، ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ**

﴿الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾ [التوبة: ١١١].

- تلك هى أهداف التربية الإسلامية فى صورة مجملة، لا محيد عنها ولا عن شيء منها، فهى من الثوابت التى تلازم الإسلام أنَّى وجد، وتلازم التربية الإسلامية فى كل زمان ومكان وفى كل الأحوال.

- وأما وسائل التربية الإسلامية التى تخصها فهى فى كلمات موجزة ما يلى:

«كل ما أعان على الوصول إلى تحقيق هذه الأهداف الاثنى عشر؛ بشرط أن تكون وسيلة مشروعة ليس فى إتيانها ما يغضب الله تبارك وتعالى، وأن تكون فى إمكان من يمارسها بحيث لا توقعه فى حرج أو مشقة؛ لأن الله تعالى ما جعل على المسلمين فى الدين من حرج، وما أنزل عليهم القرآن ليشقوا بالعمل بما جاء فيه، وإنما يريد سبحانه بالمسلمين اليسر ولا يريد بهم العسر.

- وللتربية الإسلامية ميادينها التى تبدأ بأهم هذه الميادين وهى النفس، ثم تتسع لتشمل البيت المسلم، والمسجد والمدرسة والنادى وكل مكان يتجمع فيه الناس، والجماعات والجمعيات والمجتمع كله، والوطن العربى والوطن الإسلامى، بل المجتمع العالمى كله؛ إذ يمكن أن تثمر فيه التربية الإسلامية فينحسم شره، إن لم يعط ما عنده من خير، وما تنتشر الدعوة إلى الله إلا فى العالم كله أى أمة الدعوة.

- وللتربية الإسلامية منهجها الخاص بها الذى يتميز عن غيره من المناهج بأنه يستمد أصوله وقيمه ومبادئه من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فى جانبه الثابت، ويستهدى تراث المسلمين وعلماءهم فى جانبه المتغير على مر العصور التى عاشها المسلمون حتى اليوم.

وبعد: فلعلى بذلك أكون قد أوضحت المعنى؛ لمصطلح التربية عموما، ولمصطلح التربية الإسلامية على وجه الخصوص، فإن يكن الأمر كذلك فمن توفيق الله وعونه، وإن لم يكن كذلك فمن قصور علمى، وتقصير عملى، وأسأل الله المغفرة.

٢ - مصطلح العقل

كلمة العقل فى اللغة تعنى: النور الروحانى الذى تدرك به النفس العلوم الضرورية النظرية.

وابتداء وجود العقل عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ.

والعقل ما يقابل الغريزة التى لا اختيار لها.

والعقل ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات، والعقل ما يتميز به الحسن من القبيح، والخير من الشر، والحق من الباطل.

● والعقل فى المصطلحات الإسلامية:

هو القوة المتهيئة لقبول العلم، أو هو العلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة.

- وإلى المعنى الأول، وهو القوة المتهيئة لقبول العلم، أشار ﷺ بقوله: «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل».

- وإلى المعنى الثانى، وهو العلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة، أشار ﷺ بقوله: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردى».

- وهذا العقل هو المعنىُّ بقوله تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴿٤٣﴾ ﴾ [**العنكبوت**: ٤٣].

- وكل موضع رفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل، فإشارة إلى المعنى الأول.

- وكل موضع ذَمَّ الله تعالى فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى المعنى الثانى مثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴿١٧١﴾ ﴾ [**البقرة**: ١٧١].

● وأصل العقل: الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعقال.

● ولعلماء الاجتماع مصطلح هو: «العقل الجماعى» وقد عرفوه بقولهم: «هو الاتجاه الموجَّه والمنظَّم الذى يسود سلوك الجماعة نحو أى موضوع، مستقلاً عن كل فرد من أفراد

الجماعة».

● وقد اشتد الجدل حول فكرة العقل الجماعى، فدارت حوله تعريفات عديدة منها:

- قول بعضهم: إن سلوك الجماعة يرجع فى جوهره إلى عقل جماعى يتألف من مجموعة منظمة منسقة من القوى المختلفة التى تهدف إلى غرض خاص.

- وقول آخرين: إن سلوك الجماعات يرجع إلى «ديناميكية» خاصة تنشأ من تفاعل الأفراد تفاعلاً يعتمد فى جوهره على العلاقات الاجتماعية المختلفة التى تلابس الموقف الذى يحيط بالأفراد.

- وقول غيرهم: إن المشكلة لغز لا معنى له، وهؤلاء ينكرون العقل الجماعى ولا يفسرونه، وإنما يعرضون عن هذا التفسير؛ ما دام لغزا كما يقولون.

● وترجع نشأة فكرة العقل الجماعى إلى الباحثين الفرنسيين:

- فممن آمن بها:

جوستاف لوبون،

ودور كاييم،

وليفى بريل.

- ولقد غالى الباحثون الفرنسيون فى تعميم هذه الفكرة عن العقل الجماعى، ففرقوا بين الشعوب على أساس العقل، بل فرقوا بين الأجناس البشرية على أساسه، بل اتخذها بعضهم أساسًا للتفرقة العنصرية.

● ويقول بعض الباحثين: إن مشكلة العقل الجماعى هى إحدى صور التنازع القائم بين علماء الاجتماع وعلماء النفس، حول تبعية علم النفس الاجتماعى، وذلك حينما كان هذا العلم يجاهد لإثبات وجوده فى مستهل نهضته، وكان الاجتماعيون يؤكدون العكس.

فإذا سلمنا جدلا بوجهة نظر علماء الاجتماع، فإننا نكون قد سلمنا ضمنًا بأن الجماعة هى وحدة التحليل العلمى.

وإذا سلمنا جدلا بوجهة نظر علماء النفس، فإننا نكون قد سلمنا ضمنًا بأن الفرد هو وحدة التحليل العلمى.

والاتجاه الحديث لا ينقاد انقياداً مباشرا وراء أحد هذين الاتجاهين، ولكنه يدرس تفاعل الفرد مع الأفراد الآخرين، أى أن هذا الاتجاه لا يتخذ الفرد وحدة بمعزل عن الجماعة، ولا يتخذ الجماعة وحدة بمعزل عن الفرد، ولكنه يبحث العلاقات «والديناميكية» والخيوط غير المنظورة التى يتألف منها نسيج الحياة(١).

● وقد أدلى علماء المسلمين بدلائهم فى تعريف العقل، فتعددت تعريفاتهم، وتباينت على النحو الذى نشير إليه فى تعريفات نسبت إلى :

الجرجانى فى تعريفاته،

والكندى،

والفارابى،

وابن سينا،

وإخوان الصفا.

وسوف نشير إلى هذه التعريفات فيما يلى :

● يقول الشريف الجرجانى فى كتابه : «التعريفات».

«العقل جوهر مجرد عن المادة فى ذاته، ومقارن له فى فعله، وهو النفس الناطقة التى يشير إليها كل أحد بقوله : أنا.

– وقيل : العقل جوهر روحانى خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان.

– وقيل : العقل نور فى القلب يعرف الحق والباطل.

– وقيل : العقل جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف.

– وقيل : العقل قوة النفس الناطقة، وهذا تعريف يصرح بأن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة، وأن الفاعل فى التحقيق هو النفس، والعقل آلة لها، بمنزلة السكين بالنسبة إلى القاطع.

– وقيل : العقل والنفس والذهن واحدة، إلا أنها سميت عقلا لكونها مدركة، وسميت نفسا لكونها متصرفة، وسميت ذهنا لكونها مستعدة للإدراك.

---

(١) د. أحمد زكى : معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية.

● والعقل: ما تعقل به حقائق الأشياء.

قيل محله الرأس، وقيل محله القلب.

● والعقل الهيولانى: هو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهو قوة محضة خالية عن الفعل كما للأطفال،

وإنما نسب إلى الهيولي؛ لأن النفس فى هذه المرتبة تشبه الهيولى الأولى الخالية فى حد ذاتها عن الصور كلها.

● والعقل: من عقال البعير، يمنع ذوى العقول من العدول عن سواء السبيل.

● والصحيح: أنه جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

● والعقل بالملكة: وهو علم بالضروريات،واستعداد النفس بذلك لاكتساب، النظريات.

● والعقل بالفعل: وهو أن تصير النظريات مخزونة عند قوة العاقلة بتكرار الاكتساب بحيث تحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد، لكنها لا تشاهدها بالفعل.

● والعقل المستفاد: وهو أن تحضر عنده النظريات التى أدركها بحيث لا تغيب عنه.

● ويعرّف الكندى العقل بأنه: جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها، لا حقيقة ذاتية أو موضوعية تتخطاه.

● ويقول الفارابى: العقل هو حقيقة الإنسان وجوهره.

● ويقول ابن سينا: «العقل هو حقيقة الإنسان وجوهره»، كما قال الفارابى.

● ويتوسع إخوان الصفا فى الحديث عن العقل فيقولون:

«اعلم يا أخى أن العقل اسم مشترك يقال على معنيين:

– أحدهما: ما تشير به الفلاسفة إلى أنه أول موجود اخترعه البارى جل وعز، وهو جوهر بسيط روحانى محيط بالأشياء كلها إحاطة روحانية.

– والمعني الآخر: ما يشير به جمهور الناس إلى أنه: قوة من قوى النفس الإنسانية التى فعلها التفكير والروية والنطق والتمييز والصنائع وما شاكلها»..

ثم يواصل إخوان الصفا قائلين:

«واعلم يا أخى أنه لما كان العقل الذى نحن فى ذكره: قوة من قوى النفس الإنسانية هى أيضا قوة من قوى النفس الكلية.

والنفس الكلية هى فيض فاض من العقل الكلى الذى هو أول فيض فاض من البارى جل وعز، وهى كلها تسمى موجودات أولية...»(١).

ثم يواصل إخوان الصفا قائلين:

«واعلم يا أخى بأن الموجودات كلها صور وأعيان غيريات أفاضها البارى عز وجل على العقل الذى هو أول موجود جاد به البارى وأوجده، وهو جوهر بسيط روحانى فيه جميع صور الموجودات غير متراكمة، ولا متزاحمة، كما يكون فى نفس الصانع صور المصنوعات قبل إخراجها ووضعها فى الهيولى، وهو فائض تلك الصور على النفس الكلية دفعة واحدة بلا زمان كفيض الشمس نورها على الهواء.

وأن النفس قابلة لتلك الصورة تارة وفائضة على الهيولى تارة، كما يعقل القمر نور الشمس تارة، ويفيض على الهواء تارة...

وأن الهيولى قابلة لتلك الصور من النفس الكلية شيئا بعد شىء على التدريج بالزمان كما يقبل الهواء نور القمر فى وقت دون وقت، ومن مسامتة دون مسامتة، كما يقبل التلميذ من الأستاذ شيئا بعد شىء...».

«فقد بان أن الموجودات كلها صور غيريات وهى:

– أنها أعيان الأشياء،

– وأنها متتاليات فى الحدود والبقاء كتتالى العدد من الواحد،

– وأنها كلها من الله مبدؤها وإليه مرجعها، كما ذكر الله تعالى فى كتابه على لسان نبيه فقال: ﴿ **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا** (٤٨) ﴾ [**المائدة**: ٤٨]، [**والأنعام**: ١٠٥]، وقال سبحانه وتعالى:

---

(١) قول إخوان الصفا بالفيض هو مذهب الأفلاطونية الحديثة التى تقول إن صدور الموجودات عن الله بطريق الفيض، وهو مخالف لما قرر الإسلام من أن الموجودات صدرت عن الله تعالى بالخلق لا بالفيض.
وتلك من القضايا الفلسفية التى كثرت فيها الآراء وتباينت، ولا نجد مبررا لتفصيل الحديث فيها فى هذا المجال – وهو مجرد تعريف العقل عند عدد من علماء المسلمين.

﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) ﴾ [فاطر: ٤]، وقال الله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

– كما أن العدد إلى الواحد ينحل، كما أنه منه تركب فى الأصل، حسب ما بينا.

كذلك الموجودات كل مرجعها ومصيرها إلى الله الواحد الأحد.

ثم يواصل إخوان الصفا قائلين:

«فاعلم يا أخى أن الموجودات كلها نوعان:

جسمانى،

وروحانى،

فالجسمانى: ما يدرك بالحواس،

والروحانى: ما يدرك بالعقل ويتصور بالفكر.

والروحانى أيضا على ثلاثة أنواع:

– منها الهيولى الأولى الذى هو جوهر بسيط منفعل معقول قابل لكل صورة.

– والثانى النفس التى هو جوهرة بسيطة فعالة علامة،

– والثالث العقل الذى هو جوهر بسيط مدرك حقائق الاشياء.

وأما البارى جل وعز فليس يوصف بالجسمانى ولا الروحانى، بل هو علتها كلها، كما أن الواحد لا يوصف بالزوجية ولا الفردية، بل هو علة الأزواج والأفراد من الأعداد جميعا».

● ولبعض فلاسفة المسلمين تحديد لمراتب العقل نذكرها فيما يلى:

– العقل الهيولى – المادى – وهو قابل للإدراك قبولا محضا، وهو العقل بالقوة أو بالفطرة.

– والعقل المكتسب – أى المعرفة الأولية المستمدة من أفعال التعليم والتلقين المتنوع.

– والعقل بالفعل – أى اكتساب المعرفة والقدرة على استعمالها دون تعلمها مرة ثانية.

– والعقل المستفاد – أى امتلاك ناصية العلوم، وتمثلها بحضور دائم.

– والعقل الفعال أو المفارق – أى المعقولية الخالدة أو الموضوعية اللا مادية للعقل الذى

يفيض ويحدد صور أو ماهية نظام الكون والفساد.

ولو كانت المعانى الكلية للعقل متغيرة فاسدة لما أمكن التحدث عن وحدة النوع الإنسانى بالتالى.

– والعقل الظاهر – كما يرى الكندى – هو مرتبة فعلية العقل الفعال، أى صدوره من ذاته إلى العقل المستفاد.

– والعقل القدسى – كما يرى بعض الغلاة – وهو فى مرتبة المعرفة المطلقة أو كما قال بعض الغلاة – الذين فسدت عقيدتهم – هو مرتبة تأله الإنسان!!!

● وعلى مستوى الدراسات الفلسفية العديدة قديما، يمكن حصر أنواع العقل على النحو التالى:

– العقل الفطرى أى بالملكة،

– والعقل المكتسب أى المستفاد،

– والعقل بالقوة،

– والعقل بالفعل،

– والعقل النظرى،

– والعقل العملى،

– والعقل الفعال،

– والعقل الظاهر.

– والعقل القدسى.

● وعلى مستوى الدراسات الفلسفية الحديثة يمكن الإشارة إلى أنواعه التالية:

– العقل الطبيعى أى الغريزى،

– والعقل التمييزى،

– والعقل النظرى الخالص،

- والعقل التجريبى،
- والعقل الجدلى،
- والعقل التحليلى،
- والعقل الكلى،
- والعقل المطلق،
- والعقل الناظم،
- والعقل المنظوم،

● وعلى المستويات المعرفية الحديثة، يمكن أن نرصد من أنواع العقل أو مراتبه ما يلى :

- العقل البدائى أى الوحشى،
- والعقل الأسطورى أى الخرافى،
- والعقل الدينى،
- والعقل العادى أى اليومى،
- والعقل العلمى،
- والعقل الفنى أى الجمالى،
- والعقل الفلسفى «الميتافيزيقى».

وبعد هذه الجولة التى بدت طويلة فى مجال تحديد مفهوم لمصطلح نجد أننا تتبعنا هذا المفهوم فى اللغة وفى الاصطلاح، وفى المصطلحات الإسلامية، وفى الدراسات الاجتماعية، وعند فلاسفة المسلمين، وفى الدراسات الفلسفية القديمة والحديثة، لنلقى الضوء الكافى على هذا المصطلح الذى بلغ من الشأن والشأو أن قال عنه بعضهم : إنه الإنسان.

● ونستطيع أن نخلص من ذلك كله إلى تحديد واضح للمفهوم العام للعقل، وهو الملكة التى يناط بها الوازع الأخلاقى، أو المنع عن المحظور والمنكر.

ونحن المسلمين نعتبر المحظور والمنكر هو ما نهى الله عنه على وجه التحريم، وأن هذا الذى

حرمه الله أو حظره يتقبله العقل لو تجرد عن الهوى، وبالتالى فلسنا نتصور تناقضا بين العقل والنقل – أى الشرع – ولو حدث تناقض فى الظاهر وجب العمل على إزالته؛ لأنه ليس صحيحا ولا حقيقيا.

فإذا لم يمكن إزالة هذا التناقض قلنا إن الخلل فى العقل لا فى الشرع، وعلى العقل أن يعيد النظر والتأمل، وأن يطيل الفكر بعيدا عن الهوى والتحيز والعناد.

٣ – مصطلح عمل العقل

للعقل أعمال أو وظائف جليلة القدر فى حياة الإنسان.

وهذه الأعمال أو الوظائف إنما تنبع من طبيعة العقل، وما له من خصائص هيأها الله تعالى له؛ إذ جعله مناط التكليف، وميَّز به الإنسان عن الحيوان وكثير من المخلوقات.

● وإذا لم يعمل العقل فإن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة إنسانية كريمة، بل قصارى ما يطمع فيه – وقد عطل عقله – أن يحيا كما يعيش الحيوان.

ومن غير العقل فلا تكليف، ولا مسئولية، ولا كرامة ولا نبل ولا قيم فاضلة.

فما أهم وظائف العقل وأهم أعماله؟.

ذلك ما نحاول أن نحدده فيما يلى:

أولا: الفهم

– وهو هيئة للإنسان يدرك بها معانى ما يَحسنُ وما يَقبُح، ما يليق به أو لا يليق من القول والصمت، والفعل والترك.

– والفهم هو قوة الإدراك والتفكير التى تميز بين الخطأ والصواب، وتدرك العلاقات المنطقية.

– أو هو الإدراك القائم على الذكاء أى القدرة على فهم الأشياء أو المواقف أو الحوادث.

● وفى القرآن الكريم مما يؤيد هذه المعانى للفهم ما يلى:

قال الله تعالى: ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** (٧٩) ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، أى جعلناه يدرك وجها آخر للحكم بين المتنازعين اللذين قصدا داود وسليمان ليقضى بينهما فى الحرث، إذ نفشت فيه غنم قوم آخرين.

– ومن المعروف المسلَّم به أن التكرار مدعاة للفهم؛ إذ يتيح للإنسان أن يتأنى فى فهم ما يسمع.

– ولذلك ورد فى السنة النبوية المطهرة ما رواه البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه «كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تُفهم عنه...».

– وروى الدارمي بسنده عن علي رضي الله عنه قال: الفقيه حق الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخّص لهم في معاصي الله، ولم يؤمّنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره. إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فهم فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها».

ثانيا: التصور

وهو حصول صورة الشيء في العقل بعد وصفه وصفا دقيقا، وهو عمل عقلي يقوم على الإدراك، ويكشف عن جزئيات ما تصوره العقل.

● وكل من الفهم والتصور يعود إلى العقل المدرك.

ثالثا: إدراك الوازع الأخلاقي:

أي الأمر والنهي، أو الحسنات. وإدراك هذا الوازع الأخلاقي يعني إدراك أسباب هذا الوازع وإدراك عواقبه، واتخاذ الأسلوب الملائم للسلوك الأخلاقي.

والقرآن الكريم يخاطب هذا العقل في أكثر من آية قرآنية:

– قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)** ﴾ [البقرة: ١٦٤].

– وقال جل شأنه: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)** ﴾ [الروم: ٢٥ – ٢٨].

رابعا: إدراك سائر الأمور المحيطة بالإنسان

وذلك الإدراك يقوم به العقل بعيدا عن الوازع الأخلاقي أو بعيدا عن قوائم الحسنات والسيئات، والأوامر والنواهي، لاتخاذ موقف نحو هذه الأمور بالقبول أو الرفض.

والقرآن الكريم يخاطب هذا العقل فى عدد من الآيات الكريمة :

– قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) ﴾ [الزمر : ١٨] .

– وقال جل شانه : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

خامسا : التأمل فيما يدركه

أى أن العقل يتدبر ما يدركه ويعيد فيه النظر مرة بعد أخرى؛ للوصول من خلال ذلك إلى أن يستيقن الإنسان مما يتأمل فيه .

وهذا التأمل يتضمن مفردات أهمها :

التفكير، والتحليل، وإصدار الحكم .

● فالتفكير : إعمال العقل فى الأمر وترتيبه للوصول إلى معرفة مجهول، أو إعمال العقل فى موضوع مًا يصل إلى درجة الإشكال؛ للتوصل إلى حل لهذا الإشكال .

والقرآن الكريم يخاطب العقل المفكر فى الآيات الكريمة التالية :

– قال الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

– وقال جل شانه : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ .... (٨) ﴾ [الروم : ٨] .

– وقال عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

● والتحليل : أى بيان أجزاء الموضوع أو الأمر، وفك المركب منه إلى عناصره التى يتكون منها، من أجل الحصول على فهم أفضل، أو هو اكتشاف عناصر موضوع معين من أجل فرض معين .

وهذا التحليل يؤدى إلى استخراج الأسباب بل الأسرار، والوقوف على الصورة الدقيقة لها، ويمهد التحليل لمعرفة النتائج والوصول إلى مرحلة إصدار الحكم على الأمر أو الشيء الذى يحلل .

● وإصدار الحكم: هو عمل عقلى يترتب على التأمل والتفكير والتحليل، وإصدار الحكم عمل رئيس من أعمال العقل، يترتب عليه قبول الحسن ورفض القبيح.

وهناك علاقة وثيقة بين الحكم والحكمة، فمن استطاع أن يصدر حكما عقليا انبنى على تلك الأعمال العقلية التى ذكرنا، يكون بذلك قد وصل إلى الحكمة وهى العلم بالحسن والقبيح لقبول الأول ورفض الآخر.

والقرآن الكريم يخاطب هذا العقل فى عدد من آيات القرآن الكريم نذكر منها ما يلى:

– قال الله تعالى: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩)** ﴾ [**البقرة**: ٢٦٩].

– وقال عز وجل: ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨)** ﴾ [**المؤمنون**: ٦٨].

– وقال جل شأنه: ﴿ **وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)** ﴾ [**البقرة**: ١٥١].

سادسا: الرشد أو الهدى والصلاح

وهذا العمل من أعمال العقل، يعتبر من أهم أعمال العقل وأرقى وظائفه، وذلك أن الرشد يعنى الاهتداء الراشد المستقيم على طريق الحق مع تمسك به، ولذلك سمى بهذا الرشد: الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، وامتن الله تبارك وتعالى على نبيه إبراهيم بأن آتاه الرُّشد، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ.... (٥٢)** ﴾ [**الأنبياء**: ٥١، ٥٢]، أى أعطيناه هداه من قبل النبوة، أى وفقناه للنظر والاستدلال عندما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والقمر والشمس.

● والرُّشد خلاف الغيّ، قال الله تعالى: ﴿ **.... قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)** ﴾ [**البقرة**: ٢٥٦].

● والرشد: الاستقامة والصواب، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)** ﴾ [**الكهف**: ١٠].

● والراشـد مَنْ رُزق الإيمان واختـاره دون الكفـر، ومن ذلك المعنى قـول الله تعـالى: ﴿ .... وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ ﴾ [الحجرات: ٧].

● ولقد نفى الله تعالى صفة الرشد عن اليهود المغضوب عليهم، فقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝١٤٦ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ أى سيصرفهم سبحانه وتعالى عن فهم كتابه – كما قال بذلك أكثر المفسرين.

● فالرشد إذن من أرقى أعمال العقل وانفعها للإنسان، ولكونه كذلك فإنهم شرطوا فيه ألا يكون فيه نقص أو خلل فى الإدراك، ولا نقص ولا خلل فى الحكمة.

● هذا العقل الراشد الذى يفكر ويحلل ويستنتج ويصدر الحكم، وتكون له حكمة فى عمله.

هذا العقل بهذه الأعمال هو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم كثيرا، فوصف بعدة أوصاف؛ إذ وصف بالفكر، والنظر، والبصر، والتدبر، والاعتبار، والتذكر، والعلم.

وسوف نسرد عدداً من الآيات الكريمة التى وصف فيها العقل بهذه الأوصاف.

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

– وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ ﴾ [النحل: ١١].

● ففى هاتين الآيتين وصف العقل بالفكر.

– وقال الله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ [ق: ٦ – ٨].

● وفى هاتين الآيتين وصف للعقل بالنظر.

– وقال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾

[آل عمران : ١٣] .

– وقال جل وعلا : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) ﴾ [الحشر : ٢] .

● وفى هاتين الآيتين وصف للعقل بالبصر .

– قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾

[المؤمنون : ٦٨] .

– وقال سبحانه وتعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) ﴾

[ص : ٢٩] .

● ففى هاتين الآيتين وُصف للعقل بالتدبر .

– وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد : ١٩] .

– وقال سبحانه : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾

[النحل : ١٣] .

● ففى هاتين الآيتين وصف العقل بالتذكر .

– وقال تبارك وتعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة : ١٥١] .

– وقال جل شأنه : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) ﴾ [يونس : ٥] .

● ففى هاتين الآيتين وصف للعقل بالعلم .

● هذا العقل الراشد أوفر حظا ونصيبا فى الفهم والتصور وإدراك الوازع، والتفكير والتحليل واستخراج النتائج، ومعرفة الأسباب والأسرار، وإصدار الحكم، وملازمة الحكمة والالتزام بالحسن، ونبذ القبيح .

إن هذا العقل الراشد أوفر حظا ونصيبا فى كل ذلك من العقل الذى يكتفى بأن يكف صاحبه عن السوء، دون أن يرتقى فى درجات الرشد الذى يميز الخبيث من الطيب، ويعرف الفرق بين الحسن والأحسن؛ وذلك أن العقل الذى يكتفى بمجرد أن يكف صاحبه عن السوء يعيش به صاحبه بعيدا عن أن يكون إيجابيا يعرف الطريق نحو الأفضل والأحسن.

محاذير فى عمل العقل وعيوب

- وهناك محاذير يجب أن يبتعد عنها العقل، ويتخلص نهائيا من أن يتصف بها؛ إذ هى عيوب فادحة فاضحة، تدل على أن العقل الذى وقع فيها قد تعطل عن العمل.

وهذا العيوب كثيرة، ولكنا سوف نركز منها على ثلاثة فقط هى -فى تصورنا- أخطرها، وكل منها وردت آيات قرآنية كريمة تلوم وتوبخ من وقع فيها، هذه العيوب هى:

العيب الأول:

هو تقليد السابقين دون تفكير وإنعام نظر وتدبر فيما لو كان هذا التقليد لهم صحيحا أو خاطئا، نافعا للمقلد أم ضاراً به؛ لأن من فعل ذلك فقد عطل عقله وحال بينه وبين أداء وظائفه.

وفى اللوم والتوبيخ على هذا التقليد جاءت آيات كريمة تذكر منها:

- قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [**البقرة**: ١٧٠، ١٧١].

فقد وصفتهم الآيتان الكريمتان بصفات منها:

- أنهم يقلدون آباءهم على غير وعى؛ لأن آباءهم لم يكونوا يعقلون شيئا ولا يهتدون إلى حق أو صواب.
- وأنهم فى جحدهم الحق الذى أنزله الله عليهم كمثل راعى الغنم يناجيها فلا تفقه عنه شيئا، فكانوا كالصم البكم العمى الذين عطلوا حواسهم، فتعطلت عقولهم، فأصبحوا لا يعقلون.

– وقوله جل شأنه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة: ١٠٤]. فقد وصفتهم الآية الكريمة بأنهم قلدوا آباء يجهلون الحق ولا يعلمون شيئا عنه ولا يهتدون إلى طريق الصواب.

– وقال عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

فهؤلاء قلدوا آباءهم على الرغم من أنه قد جاءهم الرسول بما هو أهدى وأحكم مما كان عليه الآباء، ومع ذلك لم يُعملوا عقولهم ليخرجوا من دائرة هذا التقليد.

● إن هذه الآيات التي نعت على هؤلاء الناس تقليد السابقين دون أن يُعملوا عقولهم فيما عليه السابقون، ودون إدراك لما ينفعهم أو يضرهم من أعمال أسلافهم، أي نعت عليهم ولامتهم ووبختهم على تعطيل عقولهم واكتفائهم بتقليد السابقين.

والعيب الثاني:

الاقتداء البليد بأصحاب السلطة الدينية، دون تفكير وتدبر فيما يكون عليه مَن يقولون عن أنفسهم إنهم رجال دين من حق أو باطل وخطأ أو صواب، فهم بهذا الموقف يلغون عقولهم ويسلمون قيادهم إلى هؤلاء، منخدعين بهذه السلطة الدينية.

والآيات القرآنية التي تنعى عليهم هذا الموقف وتوبخهم عليه وتتوعدهم؛ لأنهم عطلوا عقولهم، كثيرة، نذكر منها نماذج فيما يلي:

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة: ٣١، ٣٢].

والأحبار علماء اليهود، والرهبان علماء النصارى، والمعنى أنهم أطاعوا أصحاب السلطة الدينية فيما أمروهم به ونهوهم عنه، دون تفكر أو تدبر، فكانوا كمن اتخذوهم أربابا؛ فأطاعوهم كما يطاع الرب، فكان ذلك كالعبادة لهم.

فقد روى الترمذى بسنده عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة – التوبة – ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . . .** ﴾ فقال : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه » .

– وقال جل وعز : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)** ﴾ [البقرة : ١٦٥ – ١٦٧] .

فهؤلاء ضلت عقولهم فاتخذوا أربابا من دون الله يحبونهم ويطيعونهم ويعبدونهم كعبادة الله تعالى، ويجعلونهم مثله، فعطلوا بذلك عقولهم فضلوا، وسوف تنكشف لهم الحقائق ويعلمون كم ضلوا يوم يتبرأ منهم من قلدوهم واتبعوهم .

– وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)** ﴾ [التوبة : ٣٤]، ومعنى الآية : أن كثيرا من الأحبار والرهبان – استغلالاً لثقة الناس فيهم، واتباع الناس لهم فى كل ما يقولون – يستحلون أموال الناس بغير حق، فهم بذلك الاتباع ضالون معطلون لعقولهم، كان عليهم أن يدركوا خطأ هذا الاتباع .

والعيب الثالث :

الخوف والجبن أمام أصحاب السلطة الدنيوية، وما يترتب على هذا الخوف من حاكم ظالم مستبد من إلغاء للعقل وتعطيل له .

- وأصحاب السلطة الدنيوية الزمنية يستبدون بالناس ويتسلطون عليهم، على أقوالهم وأفعالهم وسائر أعمالهم، بل يحولونهم إلى مادحين لهم ومنافقين، بل مبررين لسيئ أعمالهم، بل يحولونهم إلى التنافس فيما بينهم فى خدمة هؤلاء الحكام الباطشين، مما يضفى قبولا على ظلمهم وبطشهم .
- نعم، يستطيع الحاكم المستبد أن يفعل ذلك، بل أكثر منه، لكنه لا يستطيع – مهما أوتى

من أسباب القهر والبطش - أن يسيطر على دخائل الناس وضمائرهم، ولا على عقولهم وأفكارهم.

● وإن من أفدح العيوب والمحاذير التى يقع فيها العقل أن يستسلم لأصحاب السلطة الدنيوية المستبدة؛ لأن هذا الاستسلام يرفضه الإسلام ويحذر منه؛ لأن معناه سيطرة الظالم على عقل المظلوم، وهذا العقل يجب أن يظل حرا طليقا لا يقر الظلم ولا يرضى به، فإن عجز عن مقاومته ورفضه، رحل عن المكان الذى يستبد به الظالم إلى مكان آخر فى أرض الله الواسعة.

- قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)** ﴾ [النساء: ٩٧ - ١٠٠].

● والمعنى: أن الإنسان لا يجوز له أن يخضع ويذل للظالم فيطيعه فيما يريد منه من الذل والهوان، فالملائكة يسألون هؤلاء: لِمَ ارتضيتم الذل والهوان بطاعة الظالمين؟! فيقولون: كنا مستضعفين خاضعين لحاكم ظالم، فتُرفَض إجابتهم ويقال لهم: كان عليكم أن تهاجروا من هذه الأرض التى تحيون فيها حياة الذل والهوان، لقد حق عليكم العقاب. ويستثنى من ذلك من عجزوا عن هذه الهجرة من الرجال والنساء والأطفال.

● وهذا المعنى هو الذى جعل المسلمين الأوائل فى ظل استبداد قريش وظلمها يهاجرون إلى الحبشة مرتين، ثم اعتبرت الهجرة من سيطرة الظالمين مبدأ إسلاميا يلتزم به كل مسلم، إلى أن أتم الله على المسلمين نعمة التمكين ففتحوا مكة، ثم أصبح شرعا ونظاما أن يهاجر المسلم من أى بلد يتسلط عليه فيها حاكم مستبد أو سلطة زمنية جائرة.

● ومن المسلمات فى شريعة الإسلام أن طاعة ولىّ الأمر واجبة، ولكنها طاعة مقيدة بقيود نذكر منها ما يلى:

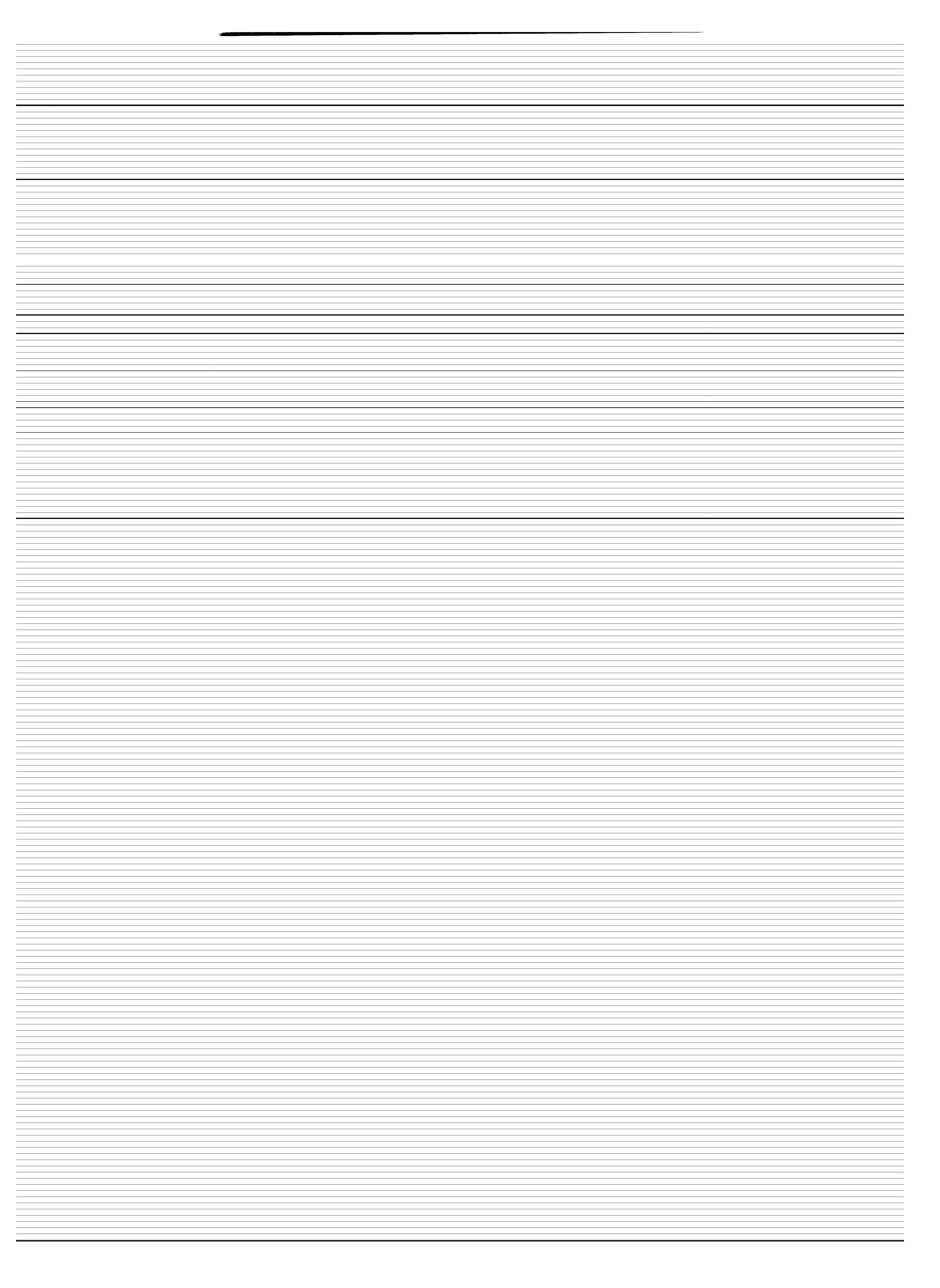
- لا طاعة له فيما لو أمر بمعصية الله.

- لا سلطان له على القلب والعقل؛ لأن أضعف الإيمان أن ينكر عليه ظلمه بقلبه وعقله.

- وعند العجز عن مقاومة ظلمه شرعت الهجرة من الأرض التى يسيطر عليها فراراً بالدين

والعقل، وخشية الفتنة فيهما.

● والخلاصة التى نحب أن ننتهى إليها فى ذلك هى أن الإسلام يرفض أن يلغى الإنسان عقله أو يعطله بسبب تقليد الأسلاف أو بسبب الانصياع لأصحاب السلطة الدينية، أو بسبب الخوف من أصحاب السلطة الدنيوية.



الفصل الثاني

تربية الإسلام للعقل

ويتناول :

١ - أهداف تربية الإسلام للعقل .

٢ - سياسات تربية الإسلام للعقل .

٣ - وسائل تربية الإسلام للعقل .

تربية الإسلام للعقل

تربية الإسلام للعقل تعنى توجيهه وتسديده وإقداره على عمله - الذى أوضحنا مفرداته تحت عنوان عمل العقل آنفا -، كما تعنى إعفاءه من الخوض فيما هو فوق إمكاناته؛ خوفا عليه من الشرور والإحساس بالعجز، أو الانحراف والضياع.

● وبدايةً أحب أن أوضح أن تربية الإسلام للعقل وإن كانت على أكبر قدر من الأهمية، إلا أنها ليست على حساب تربية الإسلام للروح أو الخلق أو أى جانب من جوانب شخصية - وقد قررنا ذلك من قبل فى الحلقتين السابقتين، ونذكر به هنا فى هذه الحلقة - وذلك أن سمة التوازن فى التربية الإسلامية عموما سمة ظاهرة لا تفارق التربية بأى حال.

● وتربية الإسلام للعقل تعنى من الناحية التربوية أن يصل عقل الإنسان إلى أحسن مستوى له، بحيث يمارس أعماله بكل حرية، وبكل قدرة على الأداء الجيد لأعمال العقل من فهم وتصور وإدراك للوازع الأخلاقى، وإدراك لكل ما يحيط بالإنسان، وتأمل وتدبر لما يدركه، بحيث يفكر ويحلل ويصدر الحكم، ورشد يهديه إلى الصلاح الذى يعصمه وينفعه.

● وهذه التربية الإسلامية للعقل ليست قهرية - كما يتصور بعض الواهمين أو المضللين فيما يكتبون، أولئك الذين ينخدعون بما هو سائد فى كثير من بلدان العالم الثالث البائس التعيس الرازح تحت هموم ثقيلة من الظلم والقهر والكبت والحرمان من الحريات.

حيث تخضع التربية فى معظم هذه البلدان لرغبة الحكام المستبدين الذين يخططون لتربية الناس أو تشكيلهم وفقا لمصالحهم ومصالح ذويهم ومن ينافقونهم ويدورون فى فلكهم، بحيث يحتفظون بسدة الحكم ما شاء لهم قهرهم للناس أن يستمروا.

● ولقد قرر هذه الحقيقة بالنسبة للتربية القهرية بعض الباحثين الغربيين، ومنهم: «باولو فريد» وغيره(١).

وليست التربية الإسلامية عموما ولا تربية الإسلام للعقل على وجه الخصوص معتمدة على القهر ولا على أى شىء منه، وإنما تدعم حريات الإنسان وتحافظ عليها، وتمنع المساس

---

(١) انظر فى ذلك:

باولو فريد: تعليم المقهورين، ترجمة يوسف نور عوض، ط بيروت، دار القلم: ١٩٨٠م - المقدمة.

بها، وتجعل المحافظة على نفس الإنسان ودينه وعقله، وماله وعرضه من أهم أهدافها فى الحياة الدنيا.

● وهذه التربية الإسلامية للعقل لها - روافد - أشرنا إليها من قبل - وهى الكتاب والسنة، ونضيف هنا أن ما جاء فى هذين المصدرين أو الرافدين الأساسيين للتربية الإسلامية من:

- أخبار الأولين وقصصهم، وموقفهم من أنبيائهم ورسلهم مصدقين لهم أو مكذبين.

- وأخلاق وقيم جُعل الاتصاف بالفاضل منها واجبا شرعيا، والابتعاد عن الرذائل منها واجبا كذلك.

- وأحكام عديدة تشمل كل فروع الحياة الإنسانية.

كل ذلك يتخذ طريقا فى تربية العقل، ويمثل الأصول لأهداف تلك التربية وقيمها وسياستها ووسائلها.

● هكذا يربى الإسلام العقل، وسوف يسهم هذا الفصل من الكتاب فى توضيح أبعاد هذه التربية، أهدافها وسياساتها ووسائلها. والله تعالى هو الموفق المعين.

١ - أهداف تربية الإسلام للعقل

لا شك أن تربية الإسلام للعقل تستهدف تكريم الإنسان باحترامه؛ أى احترام عقله، إذ إن العقل من أكبر نعم الله تعالى على الإنسان، فهو الفارق بين إنسانٍ متكامل البناء مكلف من قبل الله تعالى، وآخر ناقص البناء لا يستأهل التكليف.

- والتكليف الشرعى تشريف للمكلف وخطاب موجه إليه بكل أمرٍ أمَرَه الله به، وبكل نهى نهاه الله عنه، وحسب الإنسان شرفا أن يوجه الله تعالى خطابه إليه.

- وحسب العقل مكانة وشرفا أن به يعرف توحيد الله تعالى، وهذا التوحيد يقوم عليه الإيمان كله، وأن الله تعالى استنكر على بعض الناس ألا يعقلوا ما يقومون به من عمل، فى قوله تعالى: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٤٤].

فهذا التصرف من اليهود ذميم؛ إذ يأمرون الناس ولا يأتمرون هم به، مع أنهم يتلون الكتاب ويعلمون أن ذلك مما لا يجوز، ولا ترضى به أو عنه العقول، فمن عمل ذلك فليس له عقل يردعه عن هذا التصرف الذميم.

- وللتربية الإسلامية للعقل أهداف عديدة نذكر منها هنا ما يفتح الله به، وتتكفل باقى فصول الكتاب بتوضيح ما لا يسعنا توضيحه فى هذا المجال من الكتاب.

وهذه الأهداف من أهمها ما يلى:

الهدف الأول:

العمل على تنمية العقل وتنويره

ربما كان مصطلح التنمية متهما لدى كثير من الباحثين المسلمين؛ بالنظر إلى أنه مصطلح وافد من مجتمعات لا تؤمن بالله واليوم الآخر، ولا تقيم للدين وزنا يذكر، وإنما تعزله عن حياتها بالعلمانية أو الإلحاد.

ولكن ليس لنا أن نرد مصطلحا لمجرد أنه وافد علينا من بلاد تعادى عقيدتنا وتحارب ديننا؛ لأن الإسلام علمنا أن ننظر إلى الناس والأشياء عموما نظرة موضوعية محايدة، فنقبل أو نرفض وفق معايير أخرى نبرر بها القبول أو الرفض.

وهذا المصطلح «التنمية» يصح لنا استعماله دون حَرج؛ لأن المعرفة الإنسانية ملك للإنسان فى كل زمان ومكان، يأخذ منها ما يوافق مصالحه، ويدع ما يجلب له ضررا فى دينه أو دنياه.

● والتنمية عموما - أى فى مفهومها الاجتماعى العام الذى تدخل فيه بكل تأكيد الناحية العقلية - هى:

تعبئة جهود الأفراد والمجتمع كله وتنظيمها وتوجيهها للعمل المشترك -بأساليب ديمقراطية- لحل مشكلات المجتمع، ورفع مستوى أبنائه اجتماعيا واقتصاديا، مع الانتفاع بكافة الموارد الطبيعية والبشرية والفنية والمالية.

● ولهذه التنمية هدف هو: إحداث التغييرات الوظيفية والهيكلية اللازمة لنمو المجتمع، مع تحقيق أكبر قدر من الحرية والرفاهية، بأسرع معدل نمو ممكن.

● وعند النظر الفاحص المحايد لمفهوم هذا المصطلح نجد فيه ما يحول بيننا وبين استعماله، لأنه بهذا المفهوم لا يصطدم مع شيء من ديننا وعقيدتنا.

بل كل ما دل عليه هذا التعريف للتنمية الاجتماعية يمكن إجماله فى قوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (٢)﴾ [**المائدة**: ٢]. بل مدلول الآية الكريمة أوسع وأشمل؛ لأنها أدخلت التقوى عنصرا يتعاون عليه الناس فى المجتمع؛ أى لم تكتف بأمور الدنيا - وهى البر - وإنما زادت عليها أمور الآخرة - وهى التقوى - .

الأسس التى تقوم عليها تنمية الإسلام للعقل

● **والأسس التى تقوم عليها تنمية الإسلام للعقل أهمها ثلاثة:**

أولا: تزويد العقل بالعلم الموثَّق والمعرفة الصحيحة، ولا أوثق ولا أصح من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ. وقد أوضح القرآن الكريم أن الذين يعلمون أفضل وأحكم من الذين لا يعلمون، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** (٩)﴾ [**الزمر**: ٩]، أى لا يستوى من نظروا فى الأدلة فعلموا حقوق

الله تعالى وأدوها والذين أهملوا النظر فى هذه الأدلة، وما يتعظ بذلك إلا أصحاب العقول السليمة.

● والعلم الموثق والمعرفة الصحيحة قد حفل بهما القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فى مجالات عديدة منها:

– الحديث عن ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

– والحديث عن النبوات، والعبادات والأحكام والأخلاق والآداب، فقد جاء القرآن والسنة النبوية فى ذلك بالعلم الحق، فبدد الشكوك والأوهام التى كانت تسيطر على الناس فى ذلك كله.

– والحديث عن المؤمنين والكافرين فى الأمم الماضية لتكون من قصصهم عظة وعبرة ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ... (٣)** ﴾ [يوسف: ٣] و ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ... (١١١)** ﴾ [يوسف: ١١١].

– والحديث عن الكون كله وما فيه من مخلوقات الله تبارك وتعالى، فذلك كتاب ضخم يستقى منه أوثق العلم عن الكون والحياة، فالقرآن الكريم: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٢٩)** ﴾ [ص: ٢٩]. وآيات الله فى الكون كثيرة[1]. قال الله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)** ﴾ [الروم: ٢٢]. وقال جل شأنه: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)** ﴾ [الروم: ٢٤]، وقال عز وجل ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)** ﴾ [فصلت: ٥٣].

● كل هذا وغيره فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كثير، وكله يزود العقل بالعلم الموثق والمعرفة الصحيحة، ولايتركه يبحث عن العلم والمعرفة لدى من لا يوثق لهم فى علم أو معرفة.

---

(١) اقرأ فى ذلك سورة الروم من الآية: ٢٠ إلى الآية: ٤٦ ففيها كثير من مفردات هذا الكون.

ثانيا : حثُّ العقل على التفكير والنظر والتدبر

فالعقل لابد أن يعمل وإلا أصابه الصدأ، وإذا أصابه الصدأ تبلد، فقبل كل ما يعرض عليه دون تفكير أو تأمل، ومن كان عقله كذلك فما فائدته؟

● إن شحذ العقل بالتفكير والتكفر، والنظر والتأمل، والبحث والتدبر، هو الأصل الذى يحرص عليه الإسلام وهو يربى العقل وينميه ويشحذه ويقويه.

● وإن البداية لذلك هى السير فى الأرض والنظر فيما تقع عليه الحواس، والسير فى الأرض والنظر فى عواقب الذين كذبوا رسلهم فرض أوجبته آيات قرآنية كريمة كثيرة منها :

- قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران : ١٣٧].

- وقوله جل شأنه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) ﴾ [النمل : ٦٩].

- وقوله جل شأنه : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج : ٤٦].

- وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ... (١٨٥) ﴾ [الأعراف : ١٨٥].

● فكل هذا يشحذ العقل بدعوته إلى السير فى الأرض والنظر فى عواقب الأمم السالفة، وأخذ العبرة والعظة من هذه الأمم ومن مخلوقات الله فى السموات والأرض، ومن لم يفعل ذلك فكأنه يعيش بلا عقل ولا قلب فى عمى وصمم.

ثالثا : دعوة العقل إلى ترك ما يتوصل إليه بالظن والتخمين :

أى تعويده على النظر فى الأدلة والبراهين، واعتماد ما يتوصل إليه بهذه الأدلة والبراهين؛ لأن ذلك معناه الاهتداء إلى الحق ومعرفة الحقيقة.

● والإسلام - كما قلنا - لا يقهر أحداً ولا يجبره على علم أو معرفة مسلمة دون دليل وبرهان، وقد دعا القرآن الكريم إلى ذلك. قال الله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨)﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

● وعدو العقل ومعطله هو اتباع الهوى والشهوات، وما يستتبعه ذلك من جور على العقل وتسطيحه وتجهيله، لذلك نهى القرآن الكريم عن ذلك.

– قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١)﴾ [المؤمنون: ٧١].

– وقال جل شأنه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

– وقال جل وعلا: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [يونس: ٣٦].

● كل هذه الآيات الكريمة – وغيرها كثير – تدعو العقل إلى ترك ما يتوصل إليه بالظن والتخمين، واعتماد ما يتوصل إليه بالدليل والبرهان، وهذا من صميم تنمية العقل وتنويره بالعلم والبرهان.

وبعد: فتلك هي الدعائم الثلاثة التي تقوم عليها تنمية العقل وتنويره وتحسين أدائه، وهذه هي تربية الإسلام للعقل في هذا الجانب من جوانب التربية.

الهدف الثاني :

تعويد العقل التفكير العلمي :

ووسيلة التربية الإسلامية إلى تحقيق هذا الهدف هي أن يرفض العقل الخرافة والأسطورة والشعوذة والسحر، وكل ما يتصل بذلك من دجل مما تلوكه ألسنة هؤلاء الكهان أو العرافين أو السحرة أو المشعوذين؛ لأن في قبول ذلك إلغاءً للعقل وتعطيلاً له؛ لأن كل ذلك لا يقوم على دليل ولا يستند إلى برهان؛ لأنه جميعه من علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

● وروى البزار بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من تطير أو تُطيِّر له، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له، أو سحر أو سُحِر له، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

● وروى الطيالسى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العرافة أولها ملامة وآخرها ندامة، والعذاب يوم القيامة».

● والتفكير العلمي يأبى كل ذلك ويبحث عن الدليل والبرهان ويناقش ويحاور ويرد ويستمع؛ حتى يهتدى إلى الحق والصواب.

● وقد علمنا القرآن الكريم ذلك التفكير العلمى المنطقى فى موقفين مع سيدنا إبراهيم عليه السلام:

أحدهما:

موقفه مع ربه سبحانه وتعالى.

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)** ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

والآخر:

موقفه مع قومه، إذ أنكر عليهم اتخاذ الأصنام آلهة:

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ**

بالأمن إن كنتم تعلمون (٨١) الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٨٢) وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم (٨٣) ﴾

[الأنعام: ٧٤ - ٨٣].

أى تلك الحجة العظيمة على الألوهية والوحدانية أعطاها الله نبيه إبراهيم عليه السلام ليقيمها على قومه، فغلبهم بها لما فيها من دليل وعلم. وسنة الله فى عباده أن يرفع بالعلم والحكمة من يشاء من عباده.

– والحجة: هى الدلالة المبيّنة والبرهان.

– والمحاجّة: أن يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن حجته بالدليل. وحشد الأدلة والنظر فى أدلة الطرف الآخر وردها أو قبولها هو التفكير العلمى الذى تحرص التربية الإسلامية للعقل على أن تجعله من أهدافها.

الهدف الثالث:

تعويد العقل الأمانة العلمية:

والأمانة عموما من الفضائل الأخلاقية التى دعا إليها الإسلام بل ألزم بها وأمر، والأمانة فى العلم مطلب شرعى لا يجوز التخلى عنه بحال من الأحوال، فالأمانة من الثوبت فى الإسلام التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال.

● والأمانة العلمية تعنى أن يتجرد العقل من كل الشوائب والأسباب التى تؤدى إلى انحرافه عن الحق، وإنما يكون ذلك إذا توفرت أنواع من التجرد فى العلم نذكر منها ثلاثة:

الأول:

التجرد عن الهوى والميل:

● ومعنى ذلك أن يكون العقل معزولا عن الميول الشخصية وأنواع الهوى وهو يمارس التفكير فى العلم، حتى يصل إلى الحقائق العلمية الصحيحة المجردة عن الهوى.

– قال الله تعالى فى النعى على المشركين الذين لم يحسنوا الاستدلال: ﴿ **إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** (٢٣) ﴾ [النجم: ٢٣].

– وقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء : ١٣٥].

– وقال عز وجل : ﴿ ... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) ﴾ [البقرة: ١٤٥].

- والتجرد عن الميل والهوى يجعل العقل دائما مع الحق.

والثانى :

التجرد من الأحكام الجزافية :

- ومعنى ذلك وجوب التدقيق والتحرى قبل إصدار الحكم على أمر ما، وذلك هو التثبت من كل خطوة يخطوها العقل فى مجال العلم، ولن يكون هذا التثبت إلا بإطالة النظر فى الموضوع وبحثه من سائر وجوهه وكل احتمالاته، إلى أن يتبين الحق فيه ووجه الصواب.

- وقد علمنا الله تعالى ضرورة التبين والتثبت فى آيات قرآنية كثيرة منها:

– قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .... (٥٣) ﴾ [فصلت : ٥٣].

– وقال جل وعلا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) ﴾ [النساء : ٩٤].

– وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ [الحجرات : ٦].

- فهذه الآيات الكريمة تمنع وتحذر من المجازفة أو إصدار حكم على أمر من الأمور دون تبين وتثبت، وتلك هى الأمانة العلمية.

والثالث :

التجرد من العجلة والتسرع :

- ومعنى ذلك أن العقل -وهو يفكر أو يحلل أو يصدر حكما - يجب أن يكون بعيدا عن العجلة والتسرع؛ لأن الحكم الذى يصل إليه العقل ينبغى أن تصحبه الأناة والتمهل والدقة والضبط، وكل تلك من الصفات التى تؤدى إلى الأمانة العلمية.

- وقد علمنا القرآن الكريم أن العجلة مذمومة وأنها لا تأتى بخير، وأن على المسلم أن لا يعجل فى أمر حتى ينضج هذا الأمر، وذلك فى آيات كريمة منها ما نذكره فيما يلى :

- قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)** ﴾ [مريم : ٨٣، ٨٤].

- وقال جل وعلا : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)** ﴾ [الأحقاف : ٣٥].

- وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)** ﴾ [الإسراء : ١١].

- فهذه الآيات تحذر من العجلة والتسرع، وبالتالى تدعو إلى الأناة والتريث، وتلك سمة الأمانة العلمية التى يجب أن يتعودها العقل.

الهدف الرابع :

حرية التفكير :

- تربية الإسلام للعقل تستهدف أن تجعله حرا فى تفكيره وتأمله وتدبره. وفى هذه الحرية احترام كبير للعقل؛ أى احترام للإنسان وتكريم له، وليس أولى من الإسلام باحترام العقل وجعله حرا فى عمله كله من فهم وتصور وإدراك وتأمل ورشد.

- وحرية العقل فى التفكير تحتاج إلى حوافظ ترفع عنها القيود وتعطيها فرصة الانطلاق؛ لتصل إلى الحق من خلال أدلة وبراهين حية وقوية.

وهذه الحوافظ أو الاحترازات كثيرة من أهمها ما نذكره فيما يلى :

أولا :

الاجتهاد

وهو : بذل الجهد العقلى للوصول إلى حكم، وهذا الاجتهاد حق من حقوق العقل كفله له الإسلام، وحرصت التربية الإسلامية على أن تجعله من أهدافها .

وبهذا الاجتهاد أو حرية التفكير يستطيع العقل أن يواجه كل متغير يحدث فى المجتمع الذى يعيش فيه، ليقبله أو يرفضه؛ بناء على حرية التفكير فيه .

● وإذا كان الاجتهاد جائزًا فى الأمور الشرعية، فإن جوازه فى الأمور العقلية من باب أولى .
وقد فتح رسول الله ﷺ باب الاجتهاد عندما بعث معاذا رضى الله عنه إلى اليمن .

فقد روى الإمام أحمد بسنده «عن رجال من أصحاب معاذ رضى الله عنه أن النبى ﷺ لما بعثه إلى اليمن، فقال : كيف تقضى؟ قال : أقضى بكتاب الله، قال : فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قال : فبسنَّة رسول الله ﷺ، قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو . قال : فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله ﷺ » .

ثانيا :

ورفض التقليد

● العقل الذى كفل الإسلام له حرية التفكير، لا يقلد أحدا ولا رأيا، وإنما يعمل هو ويفكر ويتدبر ويهتدى إلى ما يراه من رأى، مع محافظة على الأمانة العلمية والتجرد عن الهوى والبعد عن الأحكام الجزافية، والبعد عن الهوى .

● والمتفق عليه بين علماء المسلمين أن التقليد فى الإيمان لا يدل على الإيمان، ومن كان مقلدا سواه فى إيمانه – دون اقتناع – فليس بمؤمن؛ لأن الإيمان عمل قلبى داخلى لا يجوز فيه التقليد .

● واختلفوا فى التقليد فى العبادات بمعنى؛ أن يقلد المؤمن فقيها فيأخذ عنه العبادات وغيرها، فنتج عن هذا الاختلاف أقوال كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ما يلى :

– قال بعضهم إنه لا تقليد وأن الأصل هو الاعتماد على الدليل لا على الرجال، حتى لو كان هؤلاء الرجال من كبار الفقهاء .

– وقال بعضهم لا داعى للدليل، والأصل الاعتماد على الرجال، وهؤلاء قد ضلوا وأضلوا، حتى قال بعض منهم:

● إن اتباع الآباء فى أصل الدين هو الذى يُرجع إليه دون غيره، وإنما ضلوا وأضلوا؛ لأن قولهم هذا معناه رد براهين الرسالة ورد حجة القرآن ورد دليل العقل، مع أن القرآن الكريم نعى على من قال بذلك من الكفار فى قول الله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤)** ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

● ومن هؤلاء الإمامية فى اتباع الإمام المعصوم – فى زعمهم – حتى لو خالف ما جاء به النبى ﷺ!

● ومنهم المهدوية الذين جعلوا أفعال مهديهم حجة؛ وإن خالفت الشريعة.

– وقال بعضهم باتخاذ بعض المتصوفة واتخاذ ما صدر عنهم من أحوال على أنه شريعة ودينا وإن خالف الكتاب والسنة.

– ومنهم من قال بتحكيم عقول الرجال دون الشرع، بمعنى أن الشرع إذا وافق آراءهم قبلوه وإلا ردوه!

● والخلاصة أن التربية الإسلامية للعقل تعطيه حرية التفكير وتمنعه من التقليد؛ ليمارس وظيفته الأساسية فى الحياة، فلو قلد لفقد هذه الحرية.

ثالثا:

إتاحة حرية النقد وحرية الاعتراض

● أعطت التربية الإسلامية للعقل حرية النقد والاعتراض على كل أمر يوجه إليه من آخر، قبل أن يقبل هذا الأمر، ويلتزم به؛ بمعنى أن له أن يبدى وجهة نظره فى الأمر المطروح عليه؛ يناقش ويحاور ويجادل بالتى هى أحسن دون أن يلام على ذلك، فضلا عن أن يوصف بأنه ممتنع أو مكابر.

● والسر فى ذلك أن من أهم أعمال العقل – كما أوضحنا آنفا – الفهم والتصور والإدراك والتأمل فيما يدركه ليحلل ويستنتج ثم يرشد بعد ذلك ويهتدى.

● وحرمان العقل من حرية النقد والاعتراض حرمان له من وظائفه، بل تعطيل لهذه الوظائف، ولا قائل بهذا التعطيل لوظائف العقل، وكيف يقول أحد بذلك والعقل مناط التكليف؟!

● غير أن هذه الحرية في النقد والاعتراض لا ينبغى أن تكون هدفا فى ذاتها، وإنما يجب أن يكون لها ما يبررها من سبب مقبول، ولذلك كان من شروط هذه الحرية فى النقد والاعتراض ما يلى:

١ – أن يكون النقد أو الاعتراض على أمر لم يرد فيه نص من القرآن الكريم ولا من السنة النبوية المطهرة، ولم ينسب إلى مجموع الصحابة رضوان الله عليهم.

٢ – وأن يكون النقد والاعتراض لم يحركه الهوى ولا مجرد الرغبة فى النقد والاعتراض لإثبات الذات ومجرد الخلاف، للوصول إلى كسب أدبى – كأن يشار إليه – أو مادى أو نحوه.

٣ – وأن لا يكون النقد والاعتراض لمجرد غلبة صاحب الرأى ومنازعته وإحراجه.

٤ – وأن يكون الهدف من النقد والاعتراض بيان وجه الحق والصواب فى الأمر المعروض، لأن الحق أحق أن يتبع.

٥ – وأن يحسن الناقد أو المعترض عرض وجهة نظره ملتزما أدب الإسلام فى الحوار وفى استعمال الألفاظ والمعانى.

٦ – وأن يكون النقد والاعتراض خارجا مخرج النصيحة، لا الفضيحة ببيان الخطأ بعنف وقسوة؛ لأن النصيحة واجب شرعى من المسلم نحو المسلم، والرفق خلق إسلامى ما كان فى شيء إلا زانه، والأحاديث النبوية فى النصيحة كثيرة معروفة.

٧ – وأن لا يؤدى النقد والاعتراض إلى التشبث بالرأى والتعصب له؛ لأن ذلك لا يجوز من المسلم الذى يدعو الله بقوله: اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

● وبعد، فهكذا يربى الإسلام العقل، وتلك هى أهداف التربية الإسلامية للعقل، نرجو أن نكون قد وفقنا فى بيانها، والله ولىّ كل توفيق.

٢ – سياسات تربية الإسلام للعقل

للتربية الإسلامية للعقل أهداف هى:

– العمل على تنمية العقل وتنويره،

– وتعويده التفكير العلمى،

– وإعطاؤه حرية التفكير، كما أوضحنا.

للتربية الإسلامية للعقل سياسات تتبع لتحقيق هذه الأهداف، وهذا ما سنحاول توضيحه فى هذا الجانب من الحديث، والله المستعان.

● وهذه السياسات التى نعنى فى تربية الإسلام للعقل هى خطوط ثابتة لهذه التربية لا يمكن الخروج عنها؛ إذ هى من الثوابت التى تحيط بهذه التربية وتساعد على تحقيق أهدافها.

وهذه الخطوط العامة أو السياسات هى:

– احترام العقل وتقديره،

– وتأكيد مكانته فى الحياة الإنسانية،

– وفتح الإسلام لباب الشورى.

فكل خط من هذه الخطوط لا يمكن تجاوزه أو تجاهله إذا أريد لهذه الأهداف التى ذكرنا أن تتحقق وأن تبلغ بالإنسان إلى لب تربية الإسلام للعقل.

وعلى سبيل المثال:

– فإن من لم يحترم العقل ويقدره، فحاول أن يقلل من شأنه – فضلا عن أن يتجاهله فضلا عن أن يهمله أو يعطله – لا يستطيع أن يحقق أهداف التربية الإسلامية للعقل.

– وإن من لم يعرف للعقل مكانته فى الحياة الإنسانية، فجعله فى منزلة ثانية أو ثالثة، وتجاوز به المكانة الأولى فى حياة الإنسان، فإنه يفشل تمام الفشل فى تحقيق أهداف التربية الإسلامية للعقل.

– وإن من أغلق باب الشورى، وحرم العقل من أن يسهم فى التفكير ويشير فى حل القضايا والمشكلات، فإنه يعطل هذا العقل تعطيلا، وبالتالى يعجز عن أن يحقق أى هدف من أهداف التربية الإسلامية للعقل.

● وإن هذه الخطوط الثلاثة أو السياسات الثلاثة لتحقيق أهداف التربية الإسلامية للعقل يمكن تركيزها وإيجازها فى كلمة واحدة تمثل السياسة العامة للإسلام فى هذه التربية، هى: «احترام الإنسان».

– إن احترام الإنسان فى الإسلام غلب على كل تشريع إسلامى. فما من نظام فى الإسلام، وما من تشريع إلا يلحظ فيه بوضوح احترام الإنسان وتقديره، تمشيا مع القاعدة الثابتة الأصيلة فى الإسلام، وهى أن الله تعالى كرم الإنسان وفضله على كثير من مخلوقاته وسخر له ما فى السموات والأرض ليكون فى خدمته.

– وقد سبق أن قلنا إن أهم شيء فى الإنسان عقله، حتى لقد قال بعضهم إن العقل هو الإنسان، وبغير العقل فلا إنسان، وبغير العقل فلا حياة إنسانية.

– والقرآن الكريم – كتاب الإسلام ومصدره – لا يذكر فيه العقل إلا فى مجال التعظيم من جانب، ومجال وجوب العمل للعقل، ووجوب الرجوع إليه، ووجوب تحكيمه.

– والقرآن الكريم وهو يخاطب الإنسان – وكله خطاب للإنسان – إنما يخاطب عقل الإنسان لا جسده، وخطابه للعقل يؤكد أهمية هذا العقل وأنه مناط التكليف وموضع المسئولية.

– والقرآن الكريم يشتمل على أحاديث مفصلة تفصيلا شديدا فى خطاب العقل، فلما توجد فى كتاب آخر من كتب الأديان المعروفة للناس، وما ذلك إلا لمكانة العقل فى الإسلام.

– وإن اعتبار الشورى فى الإسلام عملا من الأعمال التى أمر الله تعالى بها أمرا صريح موجه إلى خاتم رسله ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [**آل عمران**: ١٥٩]، مع أنه ﷺ فى غنى عن هذه المشاورة بما يوحى الله تعالى إليه، وبما عصمه من الخطأ، إن ذلك يعنى احترام العقل وطلب مشورته دائما وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

● لنفصل القول فى هذه السياسات أو الخطوط الثابتة لتحقيق أهداف التربية الإسلامية للعقل، والله المستعان.

أولا : احترام العقل وتقديره

وهذا يعنى احترام الإنسان وتقديره؛ لأن أهم ما فى الإنسان عقله كما ذكرنا أكثر من مرة، وإنما يحترم الإسلام عقل الإنسان لأنه به يعرف توحيد الله تعالى، وعلى توحيد الله بالألوهية والربوبية يقوم الإيمان كله.

● ولابن حزم الأندلسى الفقيه صاحب المحلى والفصل والإحكام فى أصول الأحكام، كلمة فى العقل جاء فيها: «ومن أبطل العقل أبطل التوحيد؛ إذ كذَّب شاهده عليه، إذ لولا العقل لم يعرف الله عز وجل أحد، الا ترى المجانين والأطفال لا يلزمهم شريعة لعدم عقولهم؟.

ومن جوَّز هذا – أى تعطيل العقل – فلا ينكر على النصارى ما يأتون به من خلاف المعقول، ولا على الدهرية ولا على السوفسطائية ما يخالفون به المعقول»(١).

● ومن علامات احترام الإسلام للعقل وتقديره إياه أنه يسند إليه التبصر والتفكر والتذكر، والعلم والتدبر والتفقه، بل تصفه آيات القرآن الكريم بهذه الصفات المتميزة الفاضلة، كما نفهم ذلك من الآيات القرآنية الكريمة التالية:

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾

[القيامة: ١٤، ١٥].

– وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

– وقال جل وعلا: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾

[آل عمران: ١٣].

● ومن الآيات التى يفهم منها احترام العقل وتقديره لما يقوم به من تفكر:

---

(١) ابن حزم: الفصل فى الملل والأهواء والنحل: ١/ ٨٢، ط دار المعرفة – بيروت ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.

- قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً .... (١٩١)﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

- وقوله جل شانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس: ٢٤].

- وقوله جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الروم: ٢١].

● ومن الآيات التي يفهم منها احترام العقل وتقديره لقيامه بالتذكر:

- قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص: ٢٩].

- وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩)﴾ [الزمر: ٩].

- وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧)﴾ [آل عمران: ٧].

● ومن الآيات الكريمة التي يفهم منها احترام العقل لما يقوم به من العلم:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)﴾ [يونس: ٥].

- وقوله عز من قائل: ﴿..... وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾ [البقرة: ٢٣٠].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)﴾ [الأنعام: ٩٧].

● وقوله سبحانه : ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)** ﴾ [العنكبوت : ٤٣].

● ومن الآيات الكريمة التى يفهم منها احترام العقل وتقديره لما يقوم به من التدبر والتفقه :

– قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)** ﴾ [النساء : ٨٢].

– وقوله عز وجل : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)** ﴾

[ص : ٢٩].

– وقوله جل وعلا : ﴿ .... **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)** ﴾ [التوبة : ١٢٢].

– وقوله عز وجل : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)** ﴾ [الأنعام : ٩٨].

● وبعد، فهذه الآيات الكريمة التى ذكرنا – وغيرها كثير مما لم نقصد استيعابه – تؤكد عددا من الحقائق فى مجال احترام الإسلام للعقل وتقديره أحسن تقدير، ونحب أن نوضح هنا هذه الحقائق على النحو التالى :

١ – أن هذا العقل ما لم يكن له فى الإسلام هذا الاحترام وهذا التقدير – كما دلت على ذلك الآيات الكريمة – ما خاطبه الله تعالى هذا الخطاب ولا أوجب عليه التبصر والتفكر والعلم والتدبر والتفقه، ولما أثنى عليه لذلك الامتثال.

٢ – وأنه إذا لم يكن الإسلام يحترم العقل ويحترم وظائفه لما طالبه بأداء هذه الوظائف، التى ينفعه أداؤها فى دينه ودنياه.

٣ – وأنه إذا لم يكن الإسلام يحترم العقل، فلمَ يرفض الإيمان القائم على التقليد والتبعية والجمود والتبلد؟ ولماذا يطالب العقل بالاجتهاد؟.

٤ – وأنه إذا لم يكن الإسلام يحترم العقل ويقدره حق قدره، فلماذا يستنكر على الناس ترك التفكر والتدبر والتعقل والنظر والسير فى الأرض؟ وذلك فى الآيات الكثيرة التى يرد فيها الاستفهام المنفى قبل تلك الألفاظ مثل : ﴿ **أفلا تعقلون..** ﴾، ﴿ **أفلا ينظرون..** ﴾، ﴿ **أفلم يسيروا...** ﴾.

- هذا عن الآيات الكريمة التى فهمنا منها احترام الإسلام للعقل وتقديره.

- وأما عن الأحاديث النبوية الشريفة التى يفهم منها احترام العقل وتقديره فهى وتقديره فهى كثيرة جدا، وليس لنا - بل لا نستطيع أن نحصيها هنا - وإنما نكتفى بالإشارة.

- وحسبنا - مع هذه الإشارة - أن نؤكد أن هذه الأحاديث من الكثرة بحيث ألف العلماء فيها كتبا مستقلة، ومن أشهر هذه الكتب كتابان:

الأول:

«كتاب العقل»

الذى ألفه داود بن المُحَبَّر[1] المتوفى سنة ٢٠٦ هـ.

وداود بن المحبر من رجال ابن ماجه صاحب السنن، وثقه بعض العلماء وضعفه آخرون.

قال عنه يحيى بن معين: «هو صدوق ولكنه كان يخطئ ويصحف» وقال عنه أيضا فى رواية الدورى: «ما زال معروفا بالحديث، ثم تركه وصحب قوما من المعتزلة فأفسدوه، وهو ثقة».

والثانى:

«كتاب العقل وفضله»

الذى ألفه ابن أبى الدنيا[2] عبد الله بن محمد بن عبيد القرشى الأموى مولاهم صاحب كتاب «أدب الدنيا والدين».

- وقد قال عنه الذهبى: «هو المحدث العالم الصدوق صاحب التصانيف».

- وقال عنه ابن أبى حاتم: «كتبتُ عنه مع أبى، وهو صدوق».

- وقال عنه الخطيب البغدادى: «وكان ذا مروءة، ثقة صدوقًا صنف أكثر من مائة مصنف فى الزهد».

---

(١) هو داود بن المحبر بن محذم بن سليمان الطائى أبو سليمان من أهل البصرة، سكن بغداد، وبها توفى سنة ٢٠٦ هـ، وهو من رجال الحديث له كتاب «العقل».

(٢) ولد سنة: ٢٠٨ هـ ٢٨١ هـ فى بغداد وبها توفى، وهو غير ابن أبى الدنيا الكذاب المتوفى سنة ٣٢٧ هـ.

● ومن كتاب : « العقل وفضله » لابن أبى الدنيا الثقة الصدوق ننقل بعض الأحاديث النبوية الشريفة التى يفهم منها احترام الإسلام للعقل وتقديره إياه .

– ما رواه ابن أبى الدنيا بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه » .

ورواه الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه .

– وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يعجبنكم إسلام امرئ حتى تعرفوا معقود عقله » .

– وروى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا بلغه عن أحد من أصحابه عبادةٌ قال : « كيف عقله » ؟ .

فإن قالوا عاقل، قال : « ما أخلق صاحبكم أن يبلغ » وإن قالوا : ليس بعاقل، قال : « ما أخلقه ألا يبلغ » .

والمعنى : أن يبلغ بعقله رضا الله الذى يوصله إلى الجنة التى هى متبغى كل مؤمن، وليس بعدها منزلة .

– وروى أيضا بسنده عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه، أن رجلا من بنى قشير أتى النبى ﷺ فقال : إنما كنا نعبد فى الجاهلية أوثانا، وكنا نرى أنها تضر وتنفع !!!

فقال رسول الله ﷺ : « أفلح من جعل الله عزَّ وجل له عقلا » .

– وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما رفعه، قال : « . . . الرجل ليكون من أهل الصلاة والزكاة، والجهاد، والجُمَع، والعمرة، حتى ذكر سهام الخير، وما يجزى يوم القيامة إلا بقدر عقله » .

– وروى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لما خلق الله تعالى العقل قال له : قم، فقام، ثم قال له : أدبر، فادبر، ثم قال له : أقبل، فاقبل، ثم قال له : اقعد، فقعد، فقال عز وجل : ما خلقتُ خلقا خيرا منك، ولا أكرم منك، ولا أفضل منك، ولا أحسن منك؛ بك آخذ، وبك أُعطى، وبك أُعرف، وإياك أعاتب، بك الثواب وعليك العقاب » .

– وروى بسنده عن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله عز وجل، مداراة الناس»(١).

ومن المعروف أن مداراة الناس لا تكون إلا بالعقل وبُعد النظر والحكمة.

● ونكتفي بهذا القدر من الأحاديث النبوية الشريفة، ففيها دلالة على ما أردنا تأكيده من أن الإسلام يحترم العقل ويقدره أحسن تقدير، ويعتبر تلك سياسة تلتزم بها التربية الإسلامية وهي تربي العقل.

(١) ابن أبي الدنيا: العقل وفضله. ط الحلبي القاهرة، شهر رمضان المبارك ١٣٦٥ هـ الموافق أغسطس ١٩٤٦م، ط أولى.

ثانيا: تأكيد مكانة العقل فى الحياة

تلك هى الخطوة الثانية فى سياسات تربية الإسلام للعقل، تلجأ إليها التربية الإسلامية لتكون بمثابة عنصر ثابت فى هذه السياسة يساعد على تحقيق الأهداف، ويمثل استمراراً للتأكيد على مكانة العقل فى الحياة الإنسانية؛ لأن الحياة الإنسانية فى عمومها تتعطل ما لم يكن للعقل فعل، وفاعلية.

● ولكى تتضح مكانة العقل فى الحياة الإنسانية نود أن نوضح الحقائق التالية:

– أن هذا العقل هو الذى يهدى صاحبه إلى الإيمان بالله، ويخرجه من الكفر، ويوجهه إلى الهدى ويجنبه الضلال؛ أى يعطيه حياة بعد موت وأمنا بعد حيرة وضلال.

– وأن هذا العقل هو الذى يحصّل العلوم الكلية الأولية، فينقل بهذا التحصيل من المجهولات، ومن المعارف الغائمة إلى الحياة الإنسانية الهادئة الهادفة التى يسودها الإيمان والأمن، ويكشف عما فيها النور الذى يهتدى إليه العقل، أو النور الذى هو العقل نفسه، كما نفهم ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** (١٢٢) ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا النور الذى يخرج الإنسان من الكفر والظلام – كما يرى كثير من المفسرين – هو العقل.

وعلى فرض أن هذا النور هو القرآن الكريم كما قال بذلك بعض المفسرين، فإن القرآن لا يهدى إلى الإيمان إلا عند تأمله وتدبره وإعمال العقل فيه وأخذ العبرة منه والاهتداء بهديه والمضى فى طريقه المستقيم.

● وإنما كان للعقل هذه المكانة، ولم تكن للحواس، مثلاً؛ لأن الإدراك به أوسع وأشمل وأعمق من الإدراك بالبصر والسمع أو بغيرهما من الخواص، ومع الاتساع والشمول والعمق فى الإدراك تكون الرؤية الصحيحة الكاشفة للحياة الإنسانية الراشدة.

● كما أن مكانته السامية الشريفة تتأكد من أنه يستطيع أن يدرك الخالق سبحانه وتعالى، فى حين لا تستطيع الأبصار متفرقة أو مجتمعة مهما أوتيت أن تدركه سبحانه وتعالى؛ لأنه سبحانه «لا تدركه الأبصار..» كما جاء فى القرآن الكريم.

● كما يعزز مكانة العقل وفضله وتميزه على سائر الحواس، أن هذه الحواس تعجز عن أداء وظائفها عندما يقوم أمامها حاجز الزمان أو المكان أو نحوهما، أما العقل فإنه قادر على أن يدرك ما يدركه دون أن يعجزه حاجز الزمان أو المكان.

● وكذلك فإن مما يدعم مكانة العقل فى الحياة الإنسانية أنه لا يكتفى بإدراك ظواهر الأشياء وأشكالها؛ كما هو شأن الحواس، وإنما يدرك بواطنها وموضوعاتها، ولا شك أن هذا النوع من الإدراك يتيح للإنسان حياة أفضل فى دنياه وآخرته.

وهل بعد نقل العقل لصاحبه من الكفر إلى الإيمان مكانة أعلى أو منزلة أرفع؟! إن هذه النقلة هى قصارى ما يطمع فيه إنسان عاقل.

● وسوف أذكر من الأحاديث النبوية الشريفة ما يدعم مكانة العقل فى الحياة الإنسانية، وليس أقوى من كلام المعصوم – الذى لا ينطق عن الهوى فى تأكيد مكانة العقل – كلام؛ إذ كلامه ﷺ وحى يوحى.

ومن تلك الأحاديث النبوية ما يلى:

– روى الديلمى فى مسند الفردوس بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب المؤمنين إلى الله تعالى مَنْ نصب فى طاعة الله عز وجل، ونصح لعباده، وكمل عقله، ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح».

– وروى الترمذى الحكيم[1] فى النوادر بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلتُ يا رسول الله: بم يتفاضل الناس فى الدنيا؟ قال: بالعقل، قلتُ: وفى الآخرة؟ قال: بالعقل، قلتُ: أليس يجزون بأعمالهم؟ فقال ﷺ: يا عائشة، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل؟ فبقدر ما أعطاهم الله من العقل عملوا، وبقدر ما عملوا يجزون».

– وروى أبو نعيم فى «حلية الأولياء» بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تقرب الناس بأنواع البِرّ ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل، فاكتسب أنت من أنواع العقل، تسبقهم بالزلفة والقرب».

---

(١) هو محمد بن على بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذى، عالم بالحديث وأصول الدين –وهو غير الترمذى محمد بن عيسى صاحب السنن– عاش بترمذ ثم انتقل إلى بلخ فأكرمه أهلها بعد أن أُخرج من ترمذ، ومن كتبه: نوادر الأصول فى أحاديث الرسول. وغيره من كتب الكلام والتصوف، توفى سنة ٣٢٠ هـ على أرجح الأقوال.

– وروى ابن المحبر بسنده فى كتابه «العقل» وكذلك روى الحكيم الترمذى بسنده فى نوادره كلاهما عن أنس رضى الله عنه قال: أثنى قوم على رجل عند النبى ﷺ حتى بالغوا، فقال ﷺ: «كيف عقل الرجل؟ فقالوا: نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال ﷺ: «إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقلهم».

– وروى ابن المحبر بسنده عن عمرو[1] بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله، فعند ذلك تم إيمانه، وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس».

● ومما يدعم مكانة العقل فى حياة الإنسان أن الله تعالى جعله مناط التكليف، فأعفى من تكليفاته كلها مَنْ حرم هذا العقل أصلا أو فقده لعارض من العوارض.

● ولقد اتفق أسلافنا من علماء الفقه الإسلامى على أن من أهم الشروط التى تكون فى المكلف أن يكون عاقلا فاهما للتكليف؛ وذلك أن التكليف خطاب من الله تعالى للمكلف، وخطاب من لا عقل له ولا فهم محال، كخطاب الجماد والبهيمة.

● واتفق علماء الشريعة الإسلامية على أن تكاليف الشريعة ترجع فى جملتها وتفصيلها إلى حفظ مقاصدها فى الناس.

وهذه المقاصد التى يجب المحافظة عليها أقسام ثلاثة:

الأول: الضروريات، وهى ما لا بد منها فى قيام مصالح الدين والدنيا.

وحفظها يكون بإقامة أركانها وتثبيت قواعدها ودفع أى اختلال عنها، ومجموع هذه الضروريات خمسة وهى:

حفظ الدين،

وحفظ النفس،

وحفظ النسل،

وحفظ العقل،

---

(١) هو عمرو بن شعيب بن محمد السهمى القرشى، أبو إبراهيم من بنى عمرو بن العاص رضى الله عنه، من رجال الحديث، كان يسكن مكة، وتوفى بالطائف سنة ١١٨ هـ.

وحفظ المال.

وقد أجمع العلماء على أن هذه الخمسة مراعاة فى كل ملة، فى العبادات والمعاملات والعادات:

- وذلك فى العبادات بتحقيق الإيمان وأركان الإسلام،

- وفى المعاملات بحفظ النسل والمال،

- وفى العادات بحفظ العقل وتناول الطعام والشراب.

● ومن هنا ندرك ضرورة أن تكون الخمر محرمة فى كل ملة - على الرغم من ادعاء بعضهم غير ذلك - لأن الخمر تغيب العقل أو تفسده وتضيعه. والأصل فى تشريع كل ملة المحافظة على العقل.

والثانى: الحاجيات، وهى ما يفتقر الإنسان إليه للتوسعة ورفع الضيق المؤدى غالبا إلى الحرج والمشقة.

- وذلك فى العبادات كالرُّخص مثل قصر الصلاة ونحوه،

- وفى المعاملات كالسَّلم -وهو بيع عاجل بآجل - ونحوه،

- وفى العادات كإباحة التمتع بالطيبات.

والثالث من هذه الأقسام: التحسينات، وهى الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب المدنسات، ويجمع هذا وذاك مكارم الأخلاق.

- وذلك فى العبادات كأخذ الزينة، والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل،

- وفى المعاملات كمنع بيع فضل الماء والكلأ ونحوه،

- وفى العادات كآداب الطعام والشراب والنوم ونحوه.

● والخلاصة أن العقل مقصد ضرورى من مقاصد شريعة الإسلام، والمحافظة عليه واجبة شرعا، وهذا ما يؤكد مكانته وأهميته فى الدين والدنيا معا.

أما فى الدين فلأنه لا تكليف بغيره، وبالتالى فلا ثواب ولا عقاب إلا فى وجوده.

وأما فى الدنيا فلا ممارسة للحياة إلا به، ولا تحمل لأى مسئولية إلا معه.

فالحياة الإنسانية بغيره لا تكون، وبدونه تسقط التكاليف وتسقط المسئولية، كما تسقط عن البهائم والجماد.

● وهذه المسئولية إنما جاءت نتيجة لوجود العقل، فلو انتفى لانتفت، والدليل على أن العقل هو سبب هذه المسئولية أنه لا تكليف لغير العقلاء كما أوضحنا آنفا.

● والدليل على هذا المسئولية عديد من الآيات القرآنية الكريمة، وعديد من أحاديث الرسول ﷺ، وسوف نذكر بعضها فيما يلي، والله الموفق:

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)** ﴾

[**الحجر**: ٩٢، ٩٣].

– وقال جل وعلا: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)** ﴾ [**الصافات**: ٢٢ – ٢٤].

– وقال عز وجل: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)** ﴾ [**النحل**: ٩٣].

وهذه الآية الكريمة تخبر الناس بأمرين هامين:

● أن الله تعالى جعل الإنسان مختارا، فمن اختار الكفر وآثر شهوات الدنيا على الإيمان والطاعة فهو وما اختار، ومن اختار الإيمان والعمل الصالح فهو وما اختار كذلك.

● وأنه سبحانه وتعالى يؤكد للناس جميعا، من آمن منهم ومن كفر أنهم سوف يسألون جميعا عما عملوا واختاروا، وسوف يجازون عنه.

– وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)** ﴾

[**الكهف**: ٢٩ – ٣١].

● وأما الأحاديث النبوية الشريفة التى تؤكد المسئولية، فنذكر منها ما يلى:

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته: الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته».

وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيم علم؟».

– وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يسأله: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتك وفرقت من الناس».

● وكل هذه المسئولية تابعة للعقل؛ إذ لولاه لم تكن مسئولية أبدا؛ إذ كيف يُسأل من لا يعقل؟!

– روى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله العقل، فقال: أقبل فاقبل، ثم قال له أدبر فادبر، ثم قال الله عز وجل: وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم علىَّ منك؛ بك آخذ وبك أعطى، وبك أثيب، وبك أعاقب».

● وهكذا تتأكد مكانة العقل فى الحياة الإنسانية؛ فبه يكون الإيمان والإسلام والعدل والإحسان والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله؛ لتكون كلمة الله هى العليا، والتمكين لدين الله فى الأرض، وبغير العقل لا يكون شىء من ذلك.

● وبعد، فهذه هى الخطوة الثانية من خطوات السياسات التى وضعتها التربية الإسلامية للعقل، السياسات الثابتة التى تيسر تحقيق الأهداف التى حددتها هذه التربية للعقل.

ثالثا : فتح باب الشورى على مصراعيه

وفتح باب الشورى على مصراعيه سياسة ثابتة للتربية الإسلامية وهى تربى العقل، وهى تأكيد لمكانة العقل فى الحياة الإنسانية كلها؛ إذ إنها من الخطوط الثابتة فى هذه السياسة؛ لكى تحقق أهداف التربية الإسلامية للعقل.

- وإنما كان فتح باب الشورى على مصراعيه أمام العقل من السياسات الثابتة للتربية الإسلامية؛ لأن الإسلام تعامل مع هذه الشورى من منطلقين:

– منطلق أنها صفة إيمانية يعد الاتصاف بها عبادة لله تعالى.

– ومنطلق الأمر بها وإلزام كل حاكم وكل مسئول عن عمل بأن يأخذ بالشورى.

ودليلنا على ذلك ما يلى :

أولا :

اعتبار الشورى من صفات الإيمان والتعبد لله تعالى.

فقد قال الله تعالى: ﴿ **فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)** ﴾ [الشورى: ٣٦ – ٤٣].

فالشورى فى هذه الآيات الكريمة صفة إيمانية جُمعت إلى الصفات الإيمانية الواردة فيها وهى:

١ – الإيمان،

٢ – والتوكل على الله،

٣ – واجتناب كبائر الإثم والفواحش،

٤ – والتسامح ،

٥ – والاستجابة لما أمر الله به أو نهى عنه،

٦ – وإقامة الصلاة ،

٧ – والتعامل بالشورى ،

٨ – والإنفاق فى سبيل الله ،

٩ – وعدم قبول الظلم أو الرضوخ للظالم ،

١٠ – والعدل ،

١١ – والإصلاح بين الناس ،

١٢ – والصبر ،

١٣ – ومغفرة أخطاء الآخرين.

فهذه ثلاث عشرة صفة من صفات المؤمنين، يعد الاتصاف بها أو ببعضها عبادة لله تعالى.

وعند التدقيق نجد صفة الشورى متوسطة بين هذه الصفات؛ إذ قبلها ست صفات وبعدها ست أخرى، وهى قد جاءت كواسطة العقد التى تعد أزين ما فى هذا العقد من خرزات.

وما ذاك إلا لأن الشورى من أهم الصفات التى يتحلى بها الإنسان المسلم؛ لما لها من تأثير وإيجابية فى حياته.

وتلك تربية للعقل تمكنه من ممارسة كافة أعماله من فهم وتصور وإدراك وتفكير وتدبر، وفى ذلك ما ينضجه ويعلى من شأنه، بل يؤكد مكانته فى الحياة الإنسانية.

ثانيا :

الأمر بالشورى والإلزام بها .

وهذا الأمر واضح أشد الوضوح فى قوله الله تبارك وتعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

● قال ابن عطية: «والشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشر أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾ [الشورى: ٣٨].

● وقال ابن خويز منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين؛ يستشيرون وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها».

● وقد روى عن الحسن والضحاك قالا: «ما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة من الفضل، ولتقتدى به أمته من بعده».

● وقال البخارى رحمه الله: «وكانت الأمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها».

● وقال الحسن البصرى: «ما تشاور قوم فيما بينهم إلا هداهم الله إلى أفضل ما يحضر بهم»[1].

● وقال فخر الدين الرازى: «الفائدة فى أنه تعالى أمر الرسول ﷺ بمشاورتهم وجوه:

– أنه ﷺ وإن كان أكمل الناس عقلا، إلا أن علوم الخلق متناهية، فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان عن وجوه المصالح ما لا يخطر بباله، لا سيما فيما يُفعل من أمور الدنيا، فإنه عليه السلام قال: «أنتم أعرف بشئون دنياكم، وأنا أعرف بأمور دينكم»، ولهذا السبب قال ﷺ: «ما تشاور قوم قط إلا هُدوا لأرشد أمرهم». وقال الحسن البصرى وسفيان بن عيينة: إنما أمر بذلك ليقتدى به غيره فى المشاورة، ويصير سنة فى أمته.

– وأنه ﷺ شاورهم فى وقعة أحد فأشاروا عليه بالخروج، وكان ميله ألا يخرج، فلما خرج وقع ما وقع، فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك لكان ذلك يدل على أنه بقى فى قلبه منهم

(١) هذه الكلمات نقلا عن القرطبى: الجامع لأحكام القرآن الكريم: ٤ / ٢٣٠ وما بعدها؛ دار الشعب، دون تاريخ.

بسبب مشاورتهم - بقية أثر، فأمره الله تعالى بعد تلك الواقعة بأن يشاورهم، ليدله على أنه لم يبق فى قلبه أثر من تلك الواقعة»[1].

«فإذا عزمت فتوكل على الله» أى إذا عزمت بعد المشاورة فى الأمر على إمضاء ما ترجحه الشورى، وأعددت له عدته فتوكل على الله فى إمضائه، وكن واثقا بمعونته وتأييده لك فيه، ولا تتكل على حولك وقوتك.

● ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى تؤكد وجوب الشورى وأهميتها ووجوب الأمانة فى إعطاء الرأى والمشورة، ما نورده فيما يلى:

- أخرج الخطيب بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله: الأمر ينزل بعدك لم يتنزل فيه قرآن، ولم يسمع منك فيه شيء؟ قال: «اجمعوا له العابد من أمتى، واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوا فيه برأى واحد».

- وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم أسخياءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه».

- وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن، فإذا استشير أحدكم فليشر بما هو صانع لنفسه».

- وروى عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ما شقى عبدٌ بمشورة، وما سعد باستغناء رأى».

● والشورى هى: إعمال للعقل، واحترام له، وتقدير لقدرته ومكانته فى الحياة الإنسانية، ولذلك اعتبرها الإسلام مجالا يجب على العقل أن يتحرك فيه، حتى تكون المستجدات والمتغيرات التى تحيط بحياته موضعا للبحث والفكر والتأمل، ليقبل منها أو يرفض بملء

---

(١) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ٩/ ٥٤ وما بعدها باختصار، ط ادر الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

إرادته وحريته واختياره، فتصبح حياته الدنيا أكثر إيناساً له وأكثر إرضاء لقيم دينه ومبادئه وأحكامه وأخلاقه وآدابه.

● وإن فتح باب الشورى على هذا المستوى من الاتساع، ليؤكد لكل ذى بصر وبصيرة أن التربية الإسلامية – وهى تحاول أن تحقق أهدافها فى عقل الإنسان – تكفل له الحد المناسب للنضج والارتقاء والأسلوب الأمثل لجعل الحياة الإنسانية ملائمة لتكريم الله تعالى للإنسان.

٣ - وسائل تربية الإسلام للعقل

لابد أن تكون هذه الوسائل التى اتخذتها التربية الإسلامية للعقل محققة للأهداف التى حددتها هذه التربية، ولابد كذلك أن تكون متماشية مع السياسات التى اتخذتها؛ لكى تسير الوسائل فى تلاؤم معها وانسجام ورغبة فى الالتزام بخطوط هذه السياسة.

● وإذا كانت الأهداف - كما أوضحنا آنفا - هى فى صورة مجملة:

- العمل على تطوير العقل وتنويره،
- وتعويده على التفكير العلمى،
- وتعليمه الأمانة العلمية،
- وتدريبه على حرية الفكر بعيدا عن الجمود والتقليد،
- وإعطاؤه حرية النقد وحرية الاعتراض.

فلابد أن تكون الوسائل قادرة على تحقيق هذه الأهداف.

● وإذا كانت السياسات الثابتة التى اتخذتها التربية الإسلامية للعقل، هى فى صورتها المجملة:

- احترام العقل وتقديره حق قدره،
- وتأكيد مكانته فى الحياة الإنسانية،
- وفتح باب الشورى أمامه على أوسع ما يكون.

فلابد أن تكون وسائل التربية الإسلامية للعقل ملائمة لهذه السياسات، غير خارجة عن إطارها العام.

● إن هذه الوسائل تعين على تحقيق الأهداف، وتعايش السياسات وتدعم خطواتها وخطتها، وذلك ما نحاول أن نوضحه فى هذه الصفحات، والله المستعان.

هذه الوسائل فى إجمال شديد أو فى كلمات هى: كل عمل يؤدى إلى تحقيق هذه الأهداف فى ظل تلك السياسات.

وهذه الوسائل فى تفصيل يلائم هذا الكتاب هى :

١ – تزويد العقل بروافد جيدة موثوقة من العلم والمعرفة،

٢ – وعرض نماذج للتفكير العلمى أمام العقل،

٣ – وتغذيته بالقيم التى تجعله أمينا مع نفسه ومع أى موضوع يفكر فيه،

٤ – وتدريبه على حرية التفكير، وتنفيره من الجمود والتبعية والتقليد،

٥ – وتشجيعه على ممارسة النقد البناء والاعتراض البناء الذى يقدم البدائل.

● ولكل وسيلة من هذه الوسائل كلمات تكشف عنها وتعرفها، فيما نسوق من هذا الحديث، والله المستعان.

الوسيلة الأولى :

تزويد العقل بروافد جيدة موثوقة من العلم والمعرفة

لكى تطور التربية الإسلامية العقل وتنوره، لابد لها أن تزوده بروافد العلم والمعرفة، ولكى تحافظ عليه من الضلال والتخبط لابد أن تنتقى له هذه الروافد بحيث تكون جيدة ومحل ثقة.

● وهذه الروافد بتلك الشروط لابد أن تكون أصولها ومنابعها على هذا المستوى من الجودة والثقة. وعند البحث والتدقيق والتحرى لا تجد التربية الإسلامية روافد على هذا المستوى إلا فى القرآن الكريم، وفى السنة النبوية بمعناها الواسع الذى تدخل فيه سيرة الرسول ﷺ.

– فالقرآن الكريم كتاب الله الذى ختم به كتبه إلى رسله، وميزه على سائر كتبه بميزات عديدة نذكر منها ما يلى :

أ – أنه الكتاب السماوى الوحيد الذى تكفل الله بحفظه، بينما أوكل مهمة حفظ كتبه الأخرى إلى بعض الناس من الأحبار وغيرهم.

ب – وأنه الكتاب المهيمن على سائر الكتب السماوية التى سبقته فى النزول، أى غالباً عليها ومؤتمنا على الحق الذى جاء فيها.

جـ – وأنه أتم الكتب السماوية وأكملها وخاتمها، فلا كتب بعده.

ء – وأن الله تعالى أودع فيه – دون غيره من الكتب السماوية – كل شيء من أمر الدين، وبهذا الدين تقوم الدنيا فى كل ناحية من نواحيها وكل شعبة من شعبها وفى كل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هـ – وأنه سبحانه وتعالى أراد أن يكون القرآن الكريم – معجزة الإسلام – معجزة خالدة باقية، فى حين جعل المعجزات الخاصة بالأديان الأخرى موقوتة بزمن الرسول الذى جاء بها أو جرت على يديه – عليه السلام –[1].

● وأجمع ما قيل فى القرآن الكريم ما رواه الإمام الدارمى فى سننه بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتن»، قلت: وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله، كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذى مَن تركه مِن جبَّارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلُق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [الجن: ١، ٢]. وهو الذى من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومَن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم..».

● وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمَن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ، فأرجو أنى أكثرهم تابعا يوم القيامة».

– والسنة النبوية المطهرة فى ألفاظها وكلماتها تفسير وشرح بل إيضاح لما أُجمل فيه، وهى تحل وتحرم مثله، بل هى مثله.

والسنة النبوية فى سيرة الرسول ﷺ هى تطبيق عملى لما جاء فى القرآن الكريم.

والسنة النبوية كالقرآن الكريم فى الاحتجاج بها والتماس الأحكام منها، وتعرف مفردات الإيمان والإسلام والعدل والإحسان والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

---

(١) ناقشت ذلك بتوسع فى الحلقة الأولى من سلسلة التربية فى القرآن الكريم: التربية الإسلامية فى سورة المائدة، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة: ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

● فالقرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدر كل الروافد التى تمد العقل بالعلم والمعرفة، وليس مثلهما مصدر فى الجودة والثقة.

● وأما العلم والمعرفة فلابد من إلقاء بعض الضوء على مفهومهما فى هذا المجال من الحديث بإيجاز[1].

– العلم : إدراك الشيء بحقيقته، وإدراك الكلىّ والمركب.

أو هو نور يقذفه الله تعالى فى قلب من يحب من عباده.

– والمعرفة : التدبير والسياسة للأمر، وإدراك الجزئى والبسيط بإحدى الحواس، ولذا يقال : عرفت الله ولا يقال علمت الله.

● ونحن المسلمين نعتقد أن أرقى مصادر العلم والمعرفة وأصحها وأوثقها هى : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، السنة بمعناها العام الذى تدخل فيه السيرة النبوية المطهرة.

ثم يأتى بعد هذين المصدرين مصادر أخرى تزود العقل وترفده بالعلم والمعرفة؛ مثل هذا الكون الفسيح الذى خلقه الله تعالى وسخر ما فيه للإنسان؛ بشرط ألا يتعارض ما تعطيه هذه المصادر للعقل من علم ومعرفة مع ما جاء فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

والوسيلة الثانية :

عرض نماذج للتفكير العلمى أمام العقل

وهذا العرض لتلك النماذج من وسائل التربية الإسلامية لتربية العقل بتعويده على التفكير العلمى المنظم.

والتفكير العلمى المنظم يعنى الاستدلال العقلى الذى يقوم على الملاحظة والمشاهدة مع الفهم والتصور، والتحليل والتركيب والاستنتاج، وإصدار الحكم.

● وما دامت التربية الإسلامية تنهل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وهى تربية العقل، فإن لها فى ذلك المنهل أمثلة ونماذج عديدة تعوّد المسلمين التفكير العلمى المنظم.

---

(١) التوسع في ذلك سوف يكون في فصل العلم والعقل في هذا الكتاب، إذا أذن الله تعالى.

وقد سبق لنا أن أوضحنا أن الإيمان الحق هو ما فكر فيه الإنسان وتروّى فقبله - بعد هذا التروى وطول التفكير - أو رفضه، وذلك معناه أن التفكير العلمى المنظم ممارسة لحرية الرأى وإطراح لكل موضوع لا يفكر فيه الإنسان بحرية، مهما تكن الجهة الظالمة التى تطلب من الناس أن يعتنقوا ما يفرض عليهم.

● ومن النماذج التى عرضها القرآن الكريم قصة فرعون إذ خُيِّل إليه بقهره وجبروته أنه قادر على أن يلغى عقول الناس لأنه يفكر لهم، أو يفكر بدلا عنهم، وتلك سنة الظالمين من أصحاب السلطان فى كل زمان، عرض القرآن الكريم ذلك الأنموذج فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** (٢٩) ﴾ [غافر: ٢٩]. فليس لأحد أن يفكر نيابة عن أحد، لأنه بهذا يسلبه حقه فى الحرية - بل حقه فى الحياة الإنسانية ذاتها - ويحيله بهذا القهر إلى إنسان أقرب ما يكون إلى الحيوان.

● ويصرح القرآن الكريم بأنه يدعو الناس إلى التفكير الحر الأمين الذى يستقل الإنسان فيه برأيه، إذ يخلو إلى نفسه دون قوة خارجية تقهره أو تؤثر عليه، وإنما له أن يخلو إلى صديق أمين صدوق يطارحه التفكير فى أمر من الأمور ليصلا معا إلى الحق فى هذا الأمر، دون ضغط أو إكراه.

وهذا الأنموذج من التفكير الحر نجده فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** (٤٦) ﴾ [سبأ: ٤٦].

والمعنى: قل يا محمد لقومك إنما أعظكم بخصلة واحدة هى أن تقوموا مخلصين لله بعيدين عن التقليد والتبعية فيما تفكرون فيه، ولكم أن تكونوا وأنتم تفكرون اثنين اثنين يتعاونان فى هذا التفكير والتأمل، أو واحداً واحداً يستقل بتفكيره فى عدل وإنصاف، ثم انظروا بحرية فى أمر صاحبكم محمد - ﷺ - الذى عاشرتموه وعرفتم سلامة عقله بل رجاحته، فما به من جنون وهو يعرض عليكم هذا الدين، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد.

● ولقد قرر القرآن الكريم أن الإنسان قد فطره الله على حرية الرأى والتفكير، وقد تمثلت هذه الحرية فى حب الجدل والحوار، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** (٥٤) ﴾ [الكهف: ٥٤].

والمعنى: أن حب الجدل فى طبيعة الإنسان، فإذا كان متعنتا فى جداله، جادل بالباطل محاولا أن يغلب به الحق، أو جادل بالحق ليدحض به الباطل، فهو أكثر شىء جدلا.

- والجدال هو المفاوضة والمحاورة على سبيل المحاجة بتقديم الأدلة والبراهين لإظهار الحق، وهو الجدال الحسن الذى أمر به القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)** ﴾ [النحل: ١٢٥].

أما الجدال بغير التى هى أحسن فهو الجدال الباطل، وإنما يكون كذلك إذا كان بغير علم، أو بهدف غلبة الخصم دون أن يستند إلى دليل أو أساس علمى أو وَحْى من عند الله أو إلهام صادق، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)** ﴾ [الحج: ٨، ٩].

- والجدال لإظهار الحق باتباع الطريقة التى أحسن فى الجدال من محامد الأخلاق، التى دعا إليها القرآن الكريم، وأما الجدال لغير ذلك فهو من مذامّ الأخلاق التى نهى عنها القرآن الكريم.

- والجدل أو الجدال إنما يقوم على الدليل العقلى، والدليل العقلى يأتى من التفكير الصحيح المستقيم.

والقرآن الكريم قد اشتمل على جميع أنواع الأدلة والبراهين. قال السيوطى[١]: «وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به، لكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين».

- والجدل القرآنى يستهدف تقرير الحق بإقامة الدليل العقلى عليه، وهذا هو التفكير العلمى المنظم الذى يتعلمه المسلم من القرآن الكريم، ليكون أسلوبه فى التفكير كلما حَزَبَه أمر من الأمور فى دينه أو دنياه.

- وإن سورة واحدة من سور القرآن الكريم، هى سورة «هود» عليه السلام، قد حفلت بأنواع الجدل الذى دار بين الأنبياء وأقوامهم، وهم: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب عليهم السلام.

---

(١) السيوطى: الإتقان فى علوم القرآن: ٢/١٣٥ ط الحلبى القاهرة: ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.

وهو جدل يقوم كله على الحوار والمناقشة والحرية فى إبداء الرأى والحرية فى الرد عليه، وحشد الأدلة والبراهين لتأييد الرأى، بحيث يمكن اعتبار هذا الجدل بين أولئك الأنبياء الكرام وأقوامهم أنموذجا للتفكير العلمي الحر الذى لا يفرض فيه طرف على طرف رأيه بغير الحجة والبرهان.

- بل إن القصص القرآنى فى معظمه يحمل صوراً من الجدال بين الأنبياء وأقوامهم أو بين صالحى المؤمنين وأقوامهم[1]، وهو فى كل ذلك يعلم كيف يكون التفكير وكيف يكون جمع الأدلة والبراهين للدفاع عن الحق ورد الباطل.

ومن تأمل هذا الحوار وتدبر فى أمر هذا الجدل علم أنه يقوم على التفكير العلمى المنهجى الدقيق؛ إذ يستمع الخصم إلى أدلة خصمه، ثم يفندها دليلا وراء دليل، ثم يقدم هو أدلته، ويرد على جميع الاعتراضات الواردة على أدلته، كل ذلك ليتعلم المؤمنون هذا المنهج فى التفكير، وهم يدعون إلى الحق ويدحضون الباطل.

- ولقد جاء فى هذه السورة الكريمة – سورة «هود» عليه السلام – أكثر من أنموذج لهذا الجدل القائم على التفكير وحشد الأدلة، وسوف نختار من هذه النماذج القرآنية فى الجدل القائم على التفكير المنهجى ما دار بين نوح عليه السلام وقومه فى قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)** ﴾

﴿ **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)** ﴾

﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)** ﴾

---

(١) وذلك مثل: مؤمن آل يس في الآيات من: ٢٠ – ٢٨ من سورة يس.
ومؤمن آل فرعون: في الآيات من: ٢٨ – ٣٣ من سورة غافر.
فكل منهما جادل عن الحق بحجج وبراهين واتبع تفكيرا منهجياً في ذلك.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) .... ﴾ [هود: ٢٥ - ٣٦].

● ففي هذه الآيات الكريمة حاور نوح عليه السلام قومه وناقشهم في جدل خضع فيه لنهج تفكير علمي إذ حشد أدلته وبراهينه على صدق ما يدعو إليه من وجوب عبادة الله وحده.

وقد اعترض عليه قومه اعتراضات ثلاثة :

الأول :

اعتراضهم على بشرية نوح عليه السلام، في ضوء تصورهم أن النبي المرسل من الله تعالى لا يكون بشرا: ﴿ **ما نراك إلا بشرا مثلنا** ﴾.

- فردَّ على اعتراضهم هذا بأن أبطل هذا التصور، فأخبرهم بأن الأمر في ذلك يعود إلى الله تعالى؛ فهو يصطفي للنبوة من عباده من يشاء، ثم قال لهم: أخبروني إن كنت مؤيدا من الله بحجة واضحة وأعطاني الله الرسالة فحجبكم عن هذا الحق اغتراركم بالمال والجاه، فهل يصح أن نلزمكم بهذه الحجة، وبالإيمان بها مضطرين كارهين؟ ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده**[١] **فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾.

والثاني :

اعتراضهم عليه وعلى نبوته بأن أتباعه من الفقراء والضعفاء، وهؤلاء من شأنهم أن يطيعوا دون تفكير، ولو كانوا من الأغنياء والأقوياء لفكروا ورفضوا الاستجابة لما يدعو إليه.

- فردَّ عليهم في هذا الاعتراض بأنه لا يستطيع أن يطرد الفقراء والضعفاء؛ لأن دين الله ليس حكرا على الأغنياء والأقوياء بل هو ملاذ الفقراء والضعفاء. هذا من جانب، ومن

---

(١) الرحمة هنا هي النبوة والرسالة - والرحمة من الله إنعام وإفضال - وقد أنعم عليه وتفضل بأن جعله نبيا رسولا.

جانب آخر فإن نوحاً عليه السلام ليس طالب مال ولا جاهٍ بدعوته وإنما هو مبلغ رسالة **﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم، ولكنى أراكم قوما تجهلون، ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون﴾**.

الثالث:

ومن اعتراضاتهم أن نوحاً لا فضل له ولا لمن اتبعه على الكافرين، فلا معجزة مادية لديه ولا مال ولا جاه لديه أو لدى من اتبعه، فكيف يتبعون من هذه صفاته؟

– فردّ عليهم بإبطال دعاواهم، فهو عليه السلام لم يدّع أنه من الأغنياء الذين يتحكمون في خزائن الله.

ولا ادعى أنه يعلم الغيب،

ولا ادعى أنه مَلَك،

ولا قال للضعفاء والفقراء إن الله سيحرمكم الخير.

ولو فعل شيئا من ذلك لكان ظالما، **﴿ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب، ولا أقول إنى ملك، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا، الله أعلم بما فى أنفسهم، إنى إذاً لمن الظالمين﴾**.

- قالوا: يا نوح قد جادلتنا – لنؤمن بما تدعو إليه – فأكثرت جدالنا حتى مللنا كلامك وما تدّعى، فأتنا بالعذاب الذى تهددنا به إن كنت صادقا في قولك: إن الله تعالى سيعذبنا إذا لم نؤمن بك.
- قال لهم نوح: إن هذا العذاب أمر بيد الله وحده، فإذا جاء العذاب فلن يفلت منه أحد.
- ولا ينفعكم نصحى مهما أردت لكم الخير إذا كان الله يريد أن تضلوا؛ لما علمه منكم من فساد قلوب وضلال عقول، وهو مجازيكم على كل ذلك.
- وأبطل دعواهم فى زعمهم أن ما جاء به نوح قد افتراه من عند نفسه؛ بأن ذلك لو كان منه لكان جرماً عظيماً، ولوقع إثمه علىّ وحدى، أما إذا كنت صادقا فأنتم المجرمون وأنا برىء من آثار جرمكم.
- وعند التدبر فى هذه الآيات يتعلم الإنسان منها كيف يفكر تفكيرا علميا منهجيا،

بحيث ينصت إلى حجج خصمه ويرد عليها، ثم يجمع من الأدلة والبراهين ما يؤيد دعوته والحق الذى يدعو إليه.

● وإذا كان هذا شأن القرآن الكريم، فلابد أن تكون السنة النبوية المطهرة شأنها كذلك، فهى مثل القرآن الكريم.

وعند التأمل فى السنة النبوية المطهرة قولاً وفعلاً وتقريراً نجدها كالقرآن الكريم فى اشتمالها على الجدل الذى يقوم على الأدلة والبراهين ويستهدف إظهار الحق لا مجرد غلبة الخصم، وذلك هو نهج التفكير العلمى الصحيح.

● ولو ذهبنا نلتمس الأحاديث أو المواقف النبوية الدالة على ذلك لاحتجنا إلى أسفار وأسفار، لكننا سوف نكتفى بمثال واحد كما فعلنا مع آيات القرآن الكريم.

● روى الإمام مسلم بسنده عن أبى حميد الساعدى رضى الله عنه قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأسْد يقال له: ابن اللتبية على الصدقة...

فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أُهدى إلىّ..

فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدى إلىَّ؟» أفلا قعد فى بيت أبيه - أو فى بيت أمه - حتى ينظر أيُهدَى إليه أم لا؟.

والذى نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغتُ؟! - مرتين».

● وعند التأمل فى هذا الحديث الشريف وقصته نجد من ألوان التفكير العلمى مواقف عديدة نذكر منها ما يلى:

- موقف ابن اللتبية عامل رسول الله ﷺ على الصدقة، حيث استعمل الحجة والمنطق فيما تصور:

فأعطى لبيت المال ما جمع باسمه وهو الزكاة: هذا لكم، ثم جاءته شبهة فيما قدم إليه من هدايا فتصور أنها قدمت إليه لشخصه، فقال: وهذا أهدى إلىّ، ورغب فى ألا يسلمه لبيت المال، بتلك الحجة.

– وموقف الرسول ﷺ إزاء هذه الحجة كان على النحو التالى:

- جعل من ذلك قضية عامة؛ إذ كل عامل على الصدقة قد يتصور ما تصوره ابن اللتبية، فقام على المنبر بعد جمع الناس وناقش هذه القضية نقاشا هادئاً هادفاً.
- فعجب من عامل على الصدقة يتصور ما تصوره ابن اللتبية «ما بال عامل أبعثه..».
- وأرسى قاعدة هى أن ما يهدى للعامل بسبب عمله، يرد كذلك إلى بيت المال، وذلك أن الهدية جاءت نتيجة لعمل العامل لا لشخصه، فكان العمل سببا أو علة فيها، والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدما، فكان كل ما يجىء عن طريق العمل يرد إلى جهة العمل وهى بيت مال المسلمين.
- ثم حذر من أن يأخذ أحد شيئا من المال الذى يرد على العامل على الصدقات دون أن يبلغ عنه، فخوف من عقاب الله على ذلك فى صورة تمثيلية مفزعة:

فكل من أخذ بغير حق جملا جاء يوم القيامة يحمله على كتفيه، وحسبك بذلك ثقلا ومشقة، ثم يكون لهذا الجمل وهو محمول رغاء وهو صوته ليفضح بهذا الصوت الحاد الغليظ صاحبه الذى يحمله.

وكل من أخذ بقرة جاء يوم القيامة يحملها على كتفيه وهو تخور فوقه فيفتضح أمره.

وكل من أخذ شاة جاء يوم القيامة يحملها على كتفيه وهى تيعر؛ أى تحدث صوتها المعروف نكاية فيه وفضحا له.

وبعد.. فهكذا نجد الحوار والجدل الذى يقوم على التفكير العلمى المنهجى فى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وما ذلك إلا ليعلمنا كيف نفكر ويعودنا على التفكير العلمى الذى يقوم على الأدلة والبراهين.

وهكذا تفعل التربية الإسلامية فى تربية العقل وهى تعرض له نماذج من التفكير العلمى الهادئ الهادف الذى يحترم الدليل ويحترم البرهان.

والوسيلة الثالثة:

تغذية العقل بالقيم التى تجعله أميناً مع نفسه ومع أى موضوع يفكر فيه.

- القيم جمع قيمة: وهى كل ما هو جدير باهتمام الإنسان ونشدانه، وهذه القيم يتشربها الفرد ويحكم بها، وهى تحدد مجالات تفكيره بل تحدد سلوكه وتؤثر فى تعلمه،

كالصدق والأمانة والولاء والشجاعة وتحمل المسئولية ونحوها.

- ومصدر هذه القيم هو الثقافة التى تسود المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان، والقيم أنواع، منها:

– القيم الخلقية: وهى التى تحدد معايير الخير والشر، وتوضح متى يكون الفعل أو الشىء نفسه خيراً ومتى يكون شراً.

– والقيم الجمالية: وهى التى تحدد معايير الجمال والقبح، وتبين متى تكون الأعمال والفنون جميلة ومتى تكون قبيحة.

– والقيم العقلية: وهى التى تحدد الصواب والخطأ فى المعتقدات والأعمال.

- والقيم قد تتضارب فى المجتمع الواحد بين جماعاته، فقد تكون إحدى جماعاته محافظة تقاوم كل تجديد، وإحداها متحررة من كل قيد تقبل على الجديد رغبة فى ترك القديم، وقد تكون إحدى الجماعات فى المجتمع تنظر للأمور نظرة نفعية فتقبل على ما ينفعها، بغض النظر عن أى اعتبار.

- ومن بين أهداف الإسلام – بوصفه منهجاً كاملاً متكاملاً – أن يوحد هذه القيم، وبخاصة القيم الخلقية ليرسم بذلك حدوداً للخير والشر.

والقيم الخلقية التى جاء بها الإسلام تشمل كل فضيلة تؤدى إلى عمل صالح، وكل هذه الفضائل قد أوجبها الإسلام على المسلمين من خلال آيات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- وتلك القيم الخلقية فى الإسلام من الثوابت المستمرة دائما فى حياة الناس، التى لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الأحوال، فالصدق والأمانة والعفة تظل أبد الآبدين فضائل يؤدى التمسك بها إلى العمل الصالح، كما أن الكذب والخيانة والعهارة تظل أبد الآبدين رذائل تؤدى ممارستها إلى الفساد والإفساد، وهكذا سائر القيم التى جاء بها الإسلام.

- ومعرفة هذه القيم التى جاء بها الإسلام تفرض على الإنسان تبعة العمل بما تطلبه هذه الفضائل، بل إن القيم الخلقية التى جاء بها الإسلام تجعل الحياة الإنسانية أفضل وأكثر ملاءمة لتكريم الله تعالى للإنسان وتفضيله على كثير مما خلق، إذا عمل المسلم على نصرة هذه القيم ونشرها فى الأرض، أى أن يستمر حياته كلها آمراً بالمعروف، ناهيا عن المنكر، فذلك هو الذى يبنى إطارا عمليا جيدا للحياة التى يعيش فيها الإنسان.

- والتربية الإسلامية للعقل تهتم كثيرا بأن تمده بهذه القيم الخلقية الفاضلة الفاعلة المؤدية إلى الأعمال الصالحة، كالصدق والأمانة والعفة والشجاعة والولاء للحق، والنزاهة والعدل والموضوعية، وما لا أستطيع أن أحصى من هذه القيم التى يكمن فيها كل خير ومعروف، وينأى عنها كل شر ومنكر.
- وهدف التربية الإسلامية من تغذية العقل أو الإنسان بهذه القيم هو أن يصبح هذا العقل أميناً بكل معنى من معانى الأمانة وفى كل مجال من مجالاتها. ولتوضيح هذه المعانى وتلك المجالات نقول: إن الإنسان أو العقل يجب – بعد أن يتشرب هذه القيم – أن يكون أمينا فى كل ما يحيط به، أى أن يكون أميناً:

– مع نفسه،

– ومع الحق الذى يؤمن به،

– ومع أى أمر يتعامل معه،

– ومع الناس،

– ومع الأشياء،

– ومع معاشه ومعاده.

فما هى الأمانة التى يجب أن يتحلى بها فى كل هذه الأحوال؟.

- للأمانة عدة معانٍ كلها مقصود ومرغوب فيها، وهى التى أشرنا إليها فى قولنا: الأمانة بكل معنى من معانيها.

وتلك المعانى هى:

– الأمانة بمعنى التكاليف الشرعية،

– والأمانة بمعنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»،

– والأمانة بمعنى العدالة،

– والأمانة بمعنى الوفاء،

– والأمانة بمعنى الاطمئنان وعدم الخوف.

– والأمانة بمعنى صيانة الودائع وأدائها لأصحابها كاملة.

– والأمانة بمعنى: حروف التهجي،

– والأمانة بمعنى العقل، وهذا ما رجحه الأصبهانى أحد علماء اللغة فى كتابه «المفردات فى غريب القرآن الكريم»، حيث قال: والأمانة بمعنى العقل هو صحيح، فإن العقل هو الذى لحصوله يتحصل معرفة التوحيد، وتجرى العدالة، وبه تُعلم حروف التهجى، بل لحصوله تُعلم كل ما فى طوق البشر تعلمه، وفعل ما فى طوقهم من الجميل فعله، وبه فضل الإنسان على كثير ممن خلقه الله تعالى.

● ولأهمية صفة الأمانة كانت ملازمة لكل نبى أو رسول من رسل الله تعالى؛ حيث أجمع العلماء المسلمون – بعد استقراء صفات الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام – على أن أهم صفاتهم أربعة:

– الصدق،

– والأمانة،

– والتبليغ عن الله تعالى،

– والفطانة أى الذكاء.

● والأمانة قرين الإيمان توجد أين وجد وتنعدم إذا انعدم، فقد روى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

● والأمانة من أمهات الفضائل الأخلاقية؛ إذ تعد قاسماً مشتركاً فى كل قول أو عمل يؤديه المسلم؛ إذ لابد من الأمانة فى أداء كل ما فرض الله تعالى، ولابد من الأمانة فى الانتهاء عن كل ما نهى الله عنه.

● فكيف تكون الأمانة فى كل ما يحيط بالإنسان؟.

أ – الأمانة مع النفس تعنى:

أن يلزم الإنسان نفسه بمنهج الله تعالى ونظامه فى صمته وقوله، وعمله وتركه، وحركته وسكونه، ومطعمه ومشربه، ومنكحه، ونومه ويقظته، وكل ما يصدر عنه.

– ولا يحركه إلى الالتزام بذلك كله إلا عقله.

ب – والأمانة مع الحق الذى يؤمن به تعنى :

الإيمان العميق بهذا الحق، والتواصى به والصبر على متاعب التمسك به، وهذا الحق هو التوحيد، وهو منهج الله، وهو سنة رسول الله ﷺ .

ومن الإيمان بهذا الحق دعوة الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة أو جدالهم بالتى هى أحسن، أو أطرهم على هذا الحق أطرًا؛ إن دعت الظروف إلى ذلك.

– ولا يلتزم الإنسان بهذا الحق إلا إذا دعاه عقله إلى هذا الالتزام ورسم له أبعاد هذا العمل، وهيأ له أنسب ظروفه.

جـ – والأمانة مع أى أمر يتعامل معه، وهذا يعنى :

أن تكون الامانة – بكل معانيها التى أشرنا إليها آنفا – مسيطرة على الإنسان وهو يتعامل مع أى قضية من القضايا : العلمية أو العملية، الثقافية أو الاجتماعية، السياسية أو الاقتصادية، الفنية أو التقنية، الجمالية أو النفعية.

– وإنما يحمل الإنسان على ذلك عقله؛ إذ يزين له ما يجب عليه عمله، ويبغض إليه ما يجب أن ينتهى عنه.

د – والأمانة مع الناس، تعنى :

أن يكون الإنسان أميناً فى تعامله مع الناس مؤمنهم وكافرهم، فلا يهضم حق أحد أو يظلمه، ولا يسلم أخاه المسلم لعدو أو لخطر يحدق به، ولا يعين على ظلم، ولا يسكت عن ظالم، وأن يتعاون مع الناس على البر والتقوى.

– ولا ينير له طريق هذا التعامل مع الناس إلا عقله، فهو الذى يدعوه إلى كل ذلك.

هـ – والأمانة مع الأشياء، وهى تعنى :

أن يكون الإنسان أمينا فى التعامل مع الحيوان والنبات والجماد وسائر المخلوقات، بمعنى أن يحسن إليها ما وسعه الإحسان، فلا يفسد فيها شيئا، وإنما يتعامل معها على أن الله سخرها له، فليفد منها دون إفساد لها، بمعنى أنه لا يجوز لمسلم أن يجيع حيوانا أو يتلهى بتعذيبه، أو يقطع نباتا دون حاجة إليه، ولا يحبس ماءً ولا ناراً ولا عشباً عمن يحتاج إليه.

– والذى ييسر له هذا التعامل هو عقله، وما يقدم له من تحسينات لهذا التعامل، وتنفير من الفساد والإفساد.

و – والأمانة مع معاش الإنسان ومعاده، بمعنى:

أن يكون الإنسان أميناً فى تحصيل أسباب معاشه، فلا يحصل عليها من طريق حرام، ولا يحتكر طعاما ولا تجارة ولا يتعامل بالربا، ولا يسرف فى التعامل مع هذه الأسباب، وهذه الأسباب هى الطعام والشراب والملبس والمسكن والزوجة والولد والأقارب والأرحام والجيران...

– والعقل هو الذى يهيئ للإنسان الأمانة فى كل ذلك.

● وكذلك الشأن فى التعامل مع يوم المعاد، فإن لهذه الأمانة عُدة وأسباباً يجب أن تُتناول بأمانة.

وتلك العدة والأسباب هى الأعمال الصالحة والإيمان بالغيب واليوم الآخر والبعث والحشر والحساب والجزاء والجنة والنار، وما يجرى فى هذا اليوم العظيم.

– ولا يساعد على ذلك ولا يقنع به إلا العقل الذى غُذى بالقيم الخلقية الفاضلة.

● والأمانة باب واسع يشمل: الإيمان، والإسلام، والعدل، والإحسان، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكل فضيلة دعا إليها الإسلام.

● وجميع القيم الخلقية التى دعا إليها الإسلام أو ندب إليها تزكى فى الإنسان الأمانة.

والهدف الأكبر لتلك القيم التى تحيى فى نفس المؤمن الأمانة هو على وجه الإجمال أمران – كما سبق أن فصلنا فيهما القول – وهما:

– الأول: أن يكون الإنسان أميناً مع نفسه،

– والثانى: أنى كون أميناً مع الناس.

● وقد وردت فى الأمانة آيات كريمة وأحاديث نبوية، نذكر منها ما يلى:

– قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)** ﴾ [النساء: ٥٨].

والمعنى – والله أعلم – أن الله تعالى يأمر المؤمنين بأن يؤدوا جميع ما ائتمنوا عليه من الله أو من الناس إلى حيث يجب أن تؤدى الأمانة، فلا يجوروا فى حكم ولا قضاء ولا تحكيم ولا موازنة، وتلك أحسن موعظة يعظكم بها الله تبارك وتعالى، وهو سبحانه سميع لما تقولون

بصير بما تعملون.

- وقال جل شأنه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** (٢٧)﴾ [الأنفال: ٢٧].

أى لا يجوز من مؤمن أن يخون الله فيما أمر به أو نهى عنه، أو يخون رسول الله ﷺ فى عدم الاستجابة لكل ما دعا إليه، أيا كانت هذه الخيانة، ولا تخونوا الأمانات التى تكون بينكم، لا تفعلوا شيئًا من ذلك وأنتم تعلمون أن الله أمر ونهى، ورسوله ﷺ بلغ ودعا.

- وقال جلَّ وعلا: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (١١)﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

أى تحقق للمؤمنين الفلاح وفازوا بأمانيهم، وهؤلاء المؤمنون من صفاتهم: رعاية الأمانة، ورعاية العهد، فلا يخونون أمانة ولا يخيسون بعهد؟

● وأما الأحاديث النبوية التى أوجبت الأمانة فكثيرة نذكر منها ما يلى:

- روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

وهذا الحديث الشريف يؤكد أن على المسلم أن يؤدى الأمانة إلى كل أحد، حتى مَنْ خانه من الناس، لأن خيانة الآخر لا تبرر للمسلم أن يرتكب الخيانة كما يصرح بذلك هذا الحديث الشريف، وتلك قيمة خلقية رفيعة القدر لا تجدها إلا فى الدين الخاتم، على رسوله أفضل الصلاة والسلام.

- وروى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع إذا كن فيك، فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق، وعفة المطعم».

وهذا الحديث الشريف يوضح أنَّ من حَفِظ الأمانة، فقد توفرت فيه صفة من أهم أربع صفات فى الحياة، بحيث من توفرت فيه جميعها فلن يخسر شيئا، إذا لم تتوفر له أى طيبات

من هذه الدنيا؛ لأن التأمل فى هذه الصفات الأربع يؤكد أنها جماع سائر صفات الخير، وحسبنا فى الدلالة على جمع كل صفات الخير صفة حسن الخلق فضلا عن الصدق والعفة.

– وروى الطبرانى فى المعجم الكبير بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما تفتقدون من دينكم الأمانة».

وفى هذا الحديث إشارة إلى أن أول خلل أو أول نقص يلحظه الناس أو يفتقدونه فى الدين هو الأمانة، أى أنها أول ما يضيعه الناس من أخلاق الدين وقيمه، وهى كذلك دليل على أن خللاً كبيراً قد وقع فى المجتمع الذى تضيع فيه الأمانة.

- والأحاديث الأخرى فى ذلك المعنى كثيرة، والذى نخلص إليه من هذه الأحاديث النبوية وأمثالها أن الإسلام يقيم للأمانة أكبر وزن، ويجعل لها فى بناء المجتمع السليم الآمن أوفى نصيب.

- ومَنْ دفعته القيم الخلقية الإسلامية إلى أن يكون أميناً مع نفسه، وأميناً مع الحق، وأميناً مع كل من يتعامل معه، وأميناً مع الناس والأشياء، وأميناً مع معاشه ومعاده، أميناً بكل معنى من معانى الأمانة التى ذكرنا، فذلك هو الإنسان القادر على أن يحيا حياة سعيدة وعلى أن يسهم فى إسعاد من حوله من الناس، ومن كان كذلك فهو الرجل الذى ينظر إلى الناس والأشياء نظرة حيادية موضوعية مجردة عن الميل والهوى.

- التربية الإسلامية للعقل وهى تمده وتغذيه بهذه القيم، وتستهدف من وراء ذلك النظرة الحيادية والموضوعية لكل ما يفكر فيه العقل من قضايا ومسائل، هى التربية التى تربى العقل على الأمانة العلمية، بحيث يسهل عليه – وقد تجرد من الهوى – أن يصل إلى الحق والخير والصواب فى كل أمر يفكر فيه دون ما يعرفه الناس، بل أوشكوا أن يألفوه من مبالغة وتهويل، فضلا عن المغالطة والتضليل.

والوسيلة الرابعة:

تدريب العقل على حرية التفكير، وتنفيره من الجمود والتبعية والتقليد.

تدريب العقل هو إعداده للترقى فى كل مجال من مجالات نشاطه، وتأهيله بكفاءة لأداء أعماله بإتقان وإجادة، وأبرز ما يُدرب عليه العقل هو أن يفكر بحرية فى كل ما يعرض له من أمر.

- إن العقل إذا دُرب على ذلك أمكنه أن يشق طريقه فى موكب الحياة الإنسانية، موفور

الكرامة، معروف المنزلة، مستحقا لهذا التكريم الذى منحه الله تعالى إياه، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾ [الإسراء : ٧٠].

● وإن كل قيد على حرية العقل لهو انتكاس بالإنسان، وعودة به إلى ظلمات التمييز العنصرى والتفرقة، بل إلى الفوضى وعدم الإحساس بالمسئولية أو تقدير تبعات الحياة، ورجوع بالعقل إلى ذلك الظلم الذى كان شائعا فى الحضارات والأديان والنظم التى كانت قبل ظهور الإسلام.

● وإن حرية التفكير أو تلك الحريات التى سنشير إليها بعد قليل لا ينبغى أن تكون منحة من حاكم، أو هبة من نظام؛ لأن ذلك ينفى هذه الحرية بل ينسفها نسفًا، وإنما الأصل أن تكون هذه الحرية حقًا من حقوقه؛ لأن الله تعالى فطر العقل على حرية التفكير، وكل ما يتجاوب مع الفطرة فهو حق أصيل لا نزاع فيه.

● وقد جاء الإسلام بهذه الحرية أو هذا الحق مبرأً من كل مَنّ أو أذى، وكذلك فعل مع سائر حقوق الإنسان أو حرياته؛ فما هى هذه الحقوق أو الحريات؟.

– إن الحرية هى ما خالف العبودية، أو ما برئ من النقص والعيب.

– والحريات العامة هى : ما تعورف عليه اليوم بأنه : حقوق الإنسان، أو الحقوق العامة له، وهى – كما يرى الباحثون فى علوم الاجتماع والسياسة – :

الحرية، والمساواة، والملكية، والأمن، ومقاومة الظلم، كما نصَّت على ذلك الدساتير.

● وهذه الحريات فى عمومها مقسمة إلى قسمين، هما :

– حرية الفرد،

– وحرية الدولة أو المجتمع.

ولا تعارض بين حرية الفرد وحرية المجتمع – كما يدعى ذلك كثير من الباحثين –؛ إذ ليس صحيحا ما يُدعى من أن الفرد يجب أن يكون فى خدمة الدولة أو المجتمع، حتى لا تطغى الدولة على الفرد.

وليس صحيحا أيضا ما يُدَّعَى من أن المجتمع يجب أن يكون فى خدمة الفرد حتى لا يطغى الفرد على الدولة أو المجتمع.

وإنما الصحيح أن يكون الفرد والمجتمع كلاهما فى تعاون وتكافل يسمح لكل طرف منهما أن يرعى الطرف الآخر وأن يهيئ له من الظروف ما يمكنه من الاستمتاع بحقوقه والقيام بواجباته؛ إذ لا يستطيع أحد من الطرفين أن يمارس حياته دون الآخر.

● ولنلق ضوءاً على كل قسم من هذين القسمين:

أولا:

حرية الفرد.

ويمكن أن نعبر عنها بحقه أو حقوقه، وهذه الحرية أقسام أيضا، نذكر منها ما يلى:

- حريته فى المعتقد والفكر،
- وحريته فى العبادة،
- وحريته فى العمل والكسب،
- وحريته فى التنقل،
- وحريته فى الملكية،
- وحريته فى التصرفات.
- وحريته فى التعبير.

وحريته فى كل ما من شأنه أن يحفظ عليه حقه فى حياة إنسانية كريمة آمنة.

● وكل مساس بإحدى هذه الحريات ظلم للإنسان وإهدار لحقوقه وحجر على عقله، مهما كانت مكانة هذا الظالم أو منزلته فى النظام الاجتماعى الذى يمارس هذا الظلم.

وهذا الظلم حرام فى كل دين، وفى كل نظام يقوم على احترام حق الإنسان فى الحياة الإنسانية الكريمة.

ثانيا :

حرية الدولة أو المجتمع، وهى - كحرية الفرد - أقسام عديدة نذكر منها ما يلى :

- الحرية الأخلاقية فى ظل الثقافة السائدة فى المجتمع،
- والحرية السياسية فى اختيار نظام الحكم الذى يرتضيه أبناء هذا المجتمع من خلال تعبيرهم عن ذلك بالوسيلة التى يرونها.
- والحرية الاجتماعية، وما يدخل تحتها من فروع كثيرة فى ظل القيم المرعية فى هذا المجتمع السائدة فيه.
- والحرية الاقتصادية فى اختيار المذهب أو المذاهب الاقتصادية التى يقبلها أبناء هذا المجتمع.

وغير ذلك من الحريات التى ليس من هدفنا أن نستقصيها هنا.

- وكل تحدٍ من الفرد لهذه الحريات مرفوض أيا كان هذا الفرد من الجاه أو السلطان أو الثروة أو الانتماء؛ لأن فى تعزيز هذه الحريات، تعزيزاً لحرية الفرد بل دعماً لها ومحافظة عليها، وكل عدوان على هذه الحريات إفساد للحياة الاجتماعية عموما، وإفساد للمجتمع والدولة وأنظمتها ومؤسساتها، وهو عمل يجب أن يقاوم فى إطار العدل والمحافظة على حقوق الإنسان.
- وجميع هذه الحريات المكفولة للدولة أو المجتمع، لم نجدها على هذا القدر وتلك المكانة فى دين أو نظام سابق قبل الإسلام، وإنما توجد فى النظام الإسلامى على صورتها المثلى التى تكفل الحقوق وتفرض الواجبات فيها، كما نجد فى هذا النظام الإسلامى وحده - دون سائر الأديان والنظم - كفالة حقوق الفرد وفرض الواجبات عليه.
- وهذه الحريات التى كفلها الإسلام للعقل وأحاطها بكل هذه الحوافظ وكل تلك المراعاة، إنما كانت نتيجة لتكريم الله تعالى للإنسان وتفضيله على كثير من خلقه، وهذه الحريات تقوم على مبادئ ودعائم لا يمكن للعقل أن يمارس حريته الصحيحة إلا بها.

وهذه المبادئ أو الدعائم هى :

- تحمل المسئولية والإحساس بالتبعية،
- والمساواة،

- والشورى والمشاورة.

فهذه الدعائم الثلاث هي عصب الحرية ولبابها وجوهرها، بحيث إذا اختل شيء من هذه المبادئ أو الدعائم انهارت حرية العقل وأصبح يرسف في القيود والأغلال التي يؤدي إليها فقد هذه الدعائم أو فقد بعضها.

● وهذه المبادئ الثلاثة يكمل بعضها بعضاً،وبالتالي فلا يغني بعضها عن بعض، وهي بمجموعها تعطي للعقل حريته الصحيحة، فلو لم يتحمل العقل مسئوليته لشاعت الفوضى والتعادي، ولو لم تكن المساواة لأكل القوى الضعيف واستبد الغني بالفقير، ولو لم تكن شورى لكان الاستبداد والظلم والتحكم في الناس والتعصب للرأي، وضاعت حرية العقل بين هذا الركام من الفوضى، والاستبداد والتعصب.

● ومن أجل ألا يحدث شيء من ذلك في مجتمع ينظمه الإسلام، نصت آيات القرآن الكريم على كل دعامة من هذه الدعامات وأكدتها، وسوف نستشهد ببعض الآيات الكريمة الدالة على ذلك.

- ففي مبدأ المسئولية الفردية:

جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)** ﴾ [**الطور**: ٢١]؛ فكل إنسان مرهون بعمله، لا يؤاخذ به غيره كما لا يكافأ عليه سواه. وهذه المسئولية الفردية يسبقها التبليغ عن الله، ويواكبها العلم، وينتج عنها العمل.

ففي وجوب التبليغ عن الله أولا: قال تعالى: ﴿ **.. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)** ﴾ [**الإسراء**: ١٥].

وفي وجوب العلم قبل العمل نجد قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)** ﴾ [**العلق**: ٣ - ٥].

وفي وجوب العمل الذي هو نتيجة للمسئولية، نجد قول الله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ [**الزلزلة**: ٧، ٨].

- وفي مبدأ المساواة بين الناس:

جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)** ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

فلا فرق بين أمة وأمة، ولا بين قبيلة وأخرى، ولا بين أحد وأحد، لا فرق بينهم فى الحقوق والواجبات، وإنما الفرق برعاية الحقوق والواجبات؛ أى بتقوى الله تبارك وتعالى.

● وليس معنى المساواة إلغاء التفاوت والفروق الشخصية فى المواهب والقدرات، فهناك تفاوت فى العلم يفهم من قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [**الزمر**: ٩]، وهناك تفاوت فى القدرة على الإصلاح والجهاد، يفهم من قوله تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ**.... (٩٥)﴾ [**النساء**: ٩٥]، وهناك تفاوت فى الرزق وأسباب العيش، يفهم من قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** (٣٢)﴾ [**الزخرف**: ٣٢].

– وفى مبدأ الشورى والمشاورة:

جاء قول الله تعالى يمتدح صفات المؤمنين الذين يتوكلون على الله: ﴿.... **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ... (٣٨)﴾ [**الشورى**: ٣٨].

وفى وجوب الشورى جاء قوله تعالى: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ... (١٥٩)﴾ [**آل عمران**: ١٥٩].

● وفى ذلك احترام للرأى الآخر ومقاومة للغرور والاستبداد بالرأى، واستبعاد لمنطق فرعون حيث يقول: ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ** (٢٩)﴾ [**غافر**: ٢٩].

● والذى يعنينا أن نركز عليه الحديث هنا هو حرية الفكر التى تدرب التربية الإسلامية عليها العقل.

● وهذه الحرية تعنى أن التربية الإسلامية قد أعطت هذا العقل الحرية فى أن يفكر وينظر ويتأمل ويتدبر، بل طالبه الله تعالى بهذا التفكر والنظر والتأمل والتدبر، فجعل ذلك من واجباته لكى يهتدى إلى الحق فيؤمن عن بينة، أو لا يهتدى فيكفر عن بينة وجهه إليها عقله السقيم.

● وكل ما دعا إليه الإسلام من منهج أو نظام فإن للعقل أن يفكر فيه، فيقبله أو يرفضه دون إكراه له أو حظر عليه.

ولقد نادى القرآن الكريم بوجوب التفكر والنظر والتدبر فى أمور كثيرة من شأن العقل أن يفكر فيها ويأخذ منها ويترك كما يتراءى له، فقد طالبه القرآن الكريم بالتفكر والتأمل والنظر فيما يلى من الأمور:

- فى نفسه وخلقته،
- وفى الأرض والسماء،
- وفى الطعام والشراب،
- وفى سير الأولين.

● وقد جاء ذلك فى آيات قرآنية كثيرة نذكر منها ما يلى:

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)** ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢٢].

- وقال عز وجل: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)** ﴾ [الطارق: ٥ - ١٠].

- وقال جل وعلا: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)** ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٧٢].

- وقال عز من قائل: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)** ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن**

واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢].

● ومن البديهى أن التربية الإسلامية التى تربى العقل على هذه الحرية فى التفكير والنظر والتأمل والتدبر ترفض كل الرفض أى تبعية أو تقليد أو جمود يوصف بها، أو يلجأ إليها هذا العقل، وذلك أن منطق: ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون (٢٣) ﴾ [الزخرف: ٢٣]، هذا المنطق الذى لجأ إليه من ألغوا عقولهم واكتفوا بتقليد الآباء والتبعية لهم، حتى لو كانوا لا يعلمون شيئا ولا يهتدون، هذا المنطق يناقض من كل وجه حرية العقل وحرية عمله فى التفكر والتأمل والنظر.

● وآيات القرآن الدالة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلى:

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون (١٧٠) ﴾ [البقرة: ١٧٠].

- وقال عز وجل: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون (١٠٤) ﴾ [المائدة: ١٠٤].

- وقال جل وعلا: ﴿ ... قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا (٧٨) ﴾ [يونس: ٧٨].

- وقال جل شأنه: ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون (٧٠) قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين (٧١) قال هل يسمعونكم إذ تدعون (٧٢) أو ينفعونكم أو يضرون (٧٣) قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون... (٧٤) ﴾ [الشعراء: ٧٠ - ٧٤].

● والمعنى الإجمالى لما احتوته هذه الآيات الكريمة عن تقليد الأبناء للآباء، أن هذا التقليد مرفوض وغير منطقى، لما فيه من إلغاء العقل أو حرمانه من التفكير فيما كان عليه الآباء، وكل ذلك ضد حرية العقل وضد حقه فى التفكير والنظر والاختيار.

● هذه الحرية التى كفلها الإسلام للعقل لم تعرف لها البشرية نظيرا قبل الإسلام فى ظل أى حضارة شرقية كحضارة فارس، أو غربية كحضارة الروم، ولا فى ظل دين غير الإسلام كاليهودية أو المسيحية، ولا فى ظل نظام سياسى كالرأسمالية أو الاشتراكية أو الشيوعية، فضلا عما يزعم اليوم من نظام عالمى جديد.

● وإن هذه الحرية التى تدرب عليها التربية الإسلامية العقل تستهدف احترام العقل وتمكينه من ممارسة حريته، وإبعاده تماما عن الجمود والانغلاق، وعن التبعية لأى أحد أو نظام؛ ما دام يفكر فى هذا النظام ويختاره، وعن التقليد حتى لو كان للآباء؛ ما دام لم يفكر فيما كان عليه الآباء.

الوسيلة الخامسة:

تشجيع العقل على ممارسة النقد، وإعطاؤه حق الاعتراض البنَّاء الذى يقدم البدائل.

سبق أن قلنا: إن من أهداف التربية الإسلامية إعطاء العقل حرية التفكير.

وما دام الأمر كذلك، فإن هذه التربية لابد لها أن تشجع العقل على ممارسة الحرية فى النقد، وفى الاعتراض على أى أمر لا يقتنع به العقل.

وهذه الحرية فى النقد والاعتراض مشروطة بأن يكون الهدف منها إحقاق الحق أو إظهاره، مع تقديم البدائل التى يراها أصلح وأجدى مما نقده أو اعترض عليه.

● وإن العقل الذى ينتقد ويعترض هو العقل الذى يزداد على مر الأيام نضجا، وباتساع الخبرات قدرة على التصور الصحيح، والاقتراح البديل، والمشاركة الفعالة فى الأمور، وكلما حرم العقل من هذه الحرية فى النقد والاعتراض كلما خبا ضوؤه وخملت قدراته، وانعزل عن الحياة.

فما هذا النقد وهذا الاعتراض؟

– النقد هو: تمييز الجيد من الردىء، وهذا هو المعنى المعروف بل المشهور للنقد. وهذا الذى تحرص التربية الإسلامية عليه.

وقد يكون النقد بمعنى ذكر العيوب والاغتياب، ومن ذلك المعنى للنقد ما ينسب إلى أبى الدرداء رضى الله عنه من أنه قال: إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك.

وهذا المعنى للنقد مرفوض شرعا؛ لأن ذكر عيوب الناس واغتيابهم حرام.

● والنقد البنّاء هو الذى لا يعمد إلى تتبع العيوب ورصدها وإشاعتها فى الناس، وإنما يذكر العيوب بموضوعية وحيادية ومحاولة الإصلاح وتقديم النصح، ويذكر معها المحاسن ويثنى عليها ويطلب منها المزيد، يذكر هذه المحاسن فى غير ملق أو نفاق، وإنما بموضوعية وحيادية ورغبة فى الاستفادة منها.

● والاعتراض على أمر من الأمور هو رفضه وإنكاره وأى درجة من درجات الإنكار المتاحة.

- وعارض الرأى أو اعترض عليه: جانبه وعدل عنه.

- والمعارضة: المقاومة وبذل الجهد ضد اتجاه مّا، بحيث تقف منه موقفا عكسيا.

أو هى الجهود التى تبذل لمقاومة أفكار شخص أو جماعة.

- والمعارضة السياسية هى: جماعة أو حزب يعمل متعاونا متضامنا ليعارض الحزب الحاكم.

وهذه الجماعة أو الحزب السياسى المعارض تحاول دخول الانتخابات للفوز بالحكم غالبا، أو للتعبير عن سياسة معارضة للحزب الحاكم، إن عجزت عن الوصول إلى الحكم.

- وهذه المعارضة عموما تكون بناءة ومفيدة فى عرض أكثر من رأى وأكثر من سياسة ليختار الناس ما يرونه أصلح لهم من هذه الآراء والسياسات ولا يتجمدوا على رأى واحد وسياسة واحدة.

● وشرط المعارضة فى الإسلام أن تكون مخلصة فى عرض وجهة نظرها، وألا تنزل عن المستوى المقبول غير المهين عندما تعارض وأن تستهدف إظهار الحق وإحقاقه.

● ذلك منطق الإسلام ومنطلقه فى المعارضة؛ لأن الأخلاق الفاضلة فى الإسلام يجب أن تظل ثابتة فى كل حين، فى الرضا والغضب، فى الوفاق والاختلاف، فى السلم وفى الحرب، وذلك أن القيم الخلقية فى الإسلام من العناصر الثابتة التى لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الأحوال.

ومن أجل هذه القيم فإن المعارضة أيا كان نوعها، ثقافية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية لا يقبل فيها التحامل على الطرف الآخر، ولا المغالطة ولا الخداع ولا التدليس، فضلا عن التضليل وقلب الحقائق والكذب والافتراء.

● والتربية الإسلامية - وهى تربى العقل على حرية التفكير - تشجعه على أن يمارس حرية النقد والمعارضة ليعبر من خلالهما عن وجهة نظر يراها أصوب وأنفع للناس، فى أى موضوع يحتمل النقد والمعارضة.

- ولا تكتفى التربية الإسلامية بالتشجيع على حرية النقد والمعارضة، وإنما تمد هذه المظلة ليصبح النقد والمعارضة أمراً مطلوبا أو واجبا فى بعض المواقف، ومثال ذلك أن يستشار المسلم - وهو من أهل القدرة على المشورة - فإن عليه أن يشير، ولا يملك أن يمتنع عن

إبداء رأيه مهما كان مخالفا لرأى من استشاره؛ لأن مشورته فى هذه الحالة أمانة يجب أداؤها والمستشار - كما جاء فى الحديث الشريف - مؤتمن، فقد روى البخارى ومسلم والنسائى وأبو داود بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن».

ورواه الترمذى بسنده عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها، ورواه ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن مسعود.

- وقد يكون الاعتراض واجبا شرعيا عندما يجد المسلم منكرا لا شك فى أنه منكر، فإنه من الواجب أن يرفضه وينكره وينهى عنه ما وجد إلى ذلك سبيلا.

- ويكون واجبا كذلك فى الاعتراض على الظلم ورفضه والوقوف فى وجهه، وما لم يقم بذلك فهو آثم مخالف لما أمر الله به وما نهى عنه، كما سنرى ذلك فى كثير من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

● والمشاورة أو طلب المشورة أصل من الأصول التى أقرها الإسلام ودعا إليها بل طالب بها وأوجبها.

- قال الله تعالى: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (١٥٩)﴾

[آل عمران: ١٥٩].

وإنما كان هذا الأمر للرسول ﷺ - على الرغم من أنه أغنى الناس عن استشارة غيره؛ لأنه ﷺ مؤيد بالوحى ومعصوم عن الخطأ - لتكون تلك سنة فى الحكام من بعده ﷺ، ولما فى ذلك من تربية الأمة المسلمة كلها على احترام الرأى الآخر والبحث عنه والاستفادة منه؛ حتى يستقر الرأى الصحيح بهذه المشاورة.

- والمشاورة تعليم وتوجيه للمستشار، تعطيه الفرصة فى ممارسة حرية النقد وحرية الاعتراض على أى خلل يراه، ولذلك قال أسلافنا رحمهم الله: الخطأ مع المشورة أصلح من الصواب مع الانفراد بالرأى والاستبداد به.

وقالوا: المستشير مهما كان أفضل من المستشار رأيا وأكمل عقلا، فقد يزداد برأى المشير رأيا، كما تزداد النار بالدهن ضوءاً ونوراً.

● ولقد فتح الإسلام الباب واسعا أمام العقل ليمارس حرية النقد وحرية الاعتراض، ما دام

يستهدف إظهار الحق وإحقاقه، ولقد كانت الاستشارة خلقا للرسول ﷺ، حيث كان يستشير أصحابه فى كثير من الأمور.. وهى الغنى عن أى رأى - والأمثلة على ذلك فى سنته وسيرته أكثر من أن تحصى، ولكننا نذكر منها ما يلى:

- روى البخارى بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «ما تشيرون علىّ فى قوم يسبون أهلى..».

- وروى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قام خطيباً فى الناس فتشهد وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «.. أشيروا علىّ فى أناس أبنوا أهلى» أى اتهموهم.

وكان ﷺ يستطيع أن يتخذ ما يشاء من الإجراءات ضد من خاضوا فى حديث الإفك دون أن يستشير أحدا، ولكنه استشار ليربى الأمة على فقه المشاورة وتغذية الرأى بالرأى الآخر؛ لأن الشريعة الإسلامية شريعة الشورى، ولأن الأمة المسلمة أمة الشورى، ولأن الشورى حق لكل مسلم، بل واجب عليه عندما يهم بأمر ذى بال.

- ومن استشارات النبى ﷺ المشهورة لأصحابه رضوان الله عليهم ما نورد أمثلة قليلة له فيما يلى:

- استشارته المسلمين فى القتال فى بدر:

روى ابن إسحق قال: «.. وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد ابن عمرو فقال يا رسول الله: امض لما أراك الله فنحن معك...

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا علىّ أيها الناس وإنما يريد الأنصار... فقال له سعد بن معاذ: ... فامض بنا يا رسول الله لما أردت فنحن معك.. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم.

- واستشارته ﷺ فى أسارى بدر:

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال: استشار رسول الله ﷺ فى الأسارى يوم بدر فقال: إن الله عز وجل قد أمكنكم منهم:

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ.

ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس، فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله إن ترى أن تعفو عنهم وتقبل منهم الفداء، فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء، قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم﴾، إلى آخر الآية».

– واستشارته ﷺ في الأذان:

– روى ابن ماجه بسنده عن سالم عن أبيه رضي الله عنه: أن النبي ﷺ استشار الناس لما يهمهم إلى الصلاة:

فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود،

ثم ذُكر الناقوس فكرهه من أجل النصارى،

فأُرىَ النداء تلك الليلة رجل من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد، وعمر بن الخطاب، فطرق الأنصاري رسول الله ﷺ ليلا، فأمر رسول الله بلالاً به فاذن... قال عمر: يا رسول الله قد رأيت مثل الذي رأى ولكنه سبقني.

– واستشارته الصحابة في أمر غزوة الخندق:

قال الإمام محمد بن يوسف الصالحي رحمه الله: «... فإن خزاعة(1) عندما تهيأت قريش للخروج أتى ركبهم رسول الله ﷺ في أربع ليالٍ حتى أخبروه فندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم في أمرهم: أيبرز من المدينة أم يكون فيها ويحاربهم عليها وفي طرقها؟ فأشار سلمان رضي الله عنه بالخندق(2)...».

أما المواقف التي استشار فيها الرسول ﷺ صحابته دون أن تكون لها شهرة تلك المواقف التي ذكرنا فأكثر من أن تحصى في هذا الكتاب.

● وهذه الاستشارات من النبي ﷺ تعلم المسلمين خلق الشورى والاستشارة، وتشجع

---

(1) كانت خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، وهم الذين قام الرسول ﷺ لنجدتهم عندما اعتُدي عليهم فتوجه إلى فتح مكة.

(2) محمد بن يوسف الصالحي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: ٤ / ٥١٤ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

عقولهم على حرية التفكير وإبداء الرأى وبذل المشورة بإخلاص وأمانة.

● وأما الاعتراض على موقف أو أمر من الأمور، فقد كان ﷺ يفسح صدره لذلك، وكثيرا ما ينزل على رأى المعترض؛ إن رأى فيه الخير والمصلحة.

وقد كانت هذه الاعتراضات فى أمور الدنيا[1] أو أمور الحرب والسياسة، وكان المعترضون يسوقون اعتراضاتهم بغاية الأدب ورعاية مقام النبوة؛ لكى يعبروا فى حرية عن آرائهم فى تلك المواقف، وكان الأصوب أن نسميها استفسارات ونصائح بدل أن نقول اعتراضات، ولكنه سياق الحديث عن حرية الرأى وحرية التعبير عنه، فسميناها اعتراضات، ومن ذلك:

– اعتراض أحد الصحابة على منزل جيش المسلمين فى بدر:

● قال محمد بن يوسف الصالحى: «وسار رسول الله ﷺ عشاء... حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل.

فقال الحباب بن المنذر بن الجموح – فيما رواه ابن إسحق –: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟.

قال: بل الرأى والحرب والمكيدة.

قال: يا رسول الله ليس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأى»[2].

وذكر ابن سعد أن جبريل نزل على النبى ﷺ فقال: «الرأى ما أشار به الحباب»[3].

– واعترض بعض الأنصار على رأى رآه الرسول ﷺ فى مجال سياسة الحرب وتجنيب المسلمين شر عدوهم.

● قال الإمام محمد بن يوسف الصالحى: «لما بلغ رسول الله ﷺ نقض بنى قريظة العهد،

---

(١) أما أمور الدين فليس لأحد أن يعترض على شىء منها كما هو معروف.

(٢) محمد بن يوسف الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد: ٤/ ٤٩ مرجع سابق.

(٣) السابق: ٤/ ٤٩.

أرسل إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف - وهما قائدا غطفان وأسلما بعد ذلك - فلما جاءا فى عشرة من قومهما قال لهما رسول الله ﷺ : أرأيتما إن جعلت لكما ثلث تمر المدينة أترجعان بمن معكما، وتخذلان بين الأعراب؟

فقالا: تعطينا نصف تمر المدينة.

فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما عن الثلث، فرضيا بذلك.

فأحضر رسول الله ﷺ الصحيفة والدواة، وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة، وهو يريد أن يكتب الصلح بينهم، وعبَّاد بن بشر قائم على رأس رسول الله ﷺ، مقنّع فى الحديد.

فأقبل أُسيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ، ومعه الرمح، ولا يدرى بما كان من الكلام.

فلما جاء إلى رسول الله ﷺ وعيينة بن حصن مادٌّ رجليه بين يدى رسول الله ﷺ، وعلم ما يريدون قال: يا عين الهجرس[1] اقبض رجليك، أتمدهما بين يدى رسول الله ﷺ؟ والله لولا رسول الله ﷺ لأنفدتُ خُصيتيك[2] بالرمح.

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن كان أمراً من السماء فامض له، وإن كان ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف، متى طمعوا بهذا منا؟[3].

فسكت رسول الله ﷺ، فدعا سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة فاستشارهما فى ذلك - وهو متكئ عليهما - والقوم جلوس، فتكلم بكلام يخفيه وأخبرهما الخبر[4].

● وقال ابن إسحق: إن رسول الله ﷺ استشارهما فى ذلك فقالا: يا رسول الله، إن كان الأمر من السماء فامض له، وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوى فامض له سمعا وطاعة، وإن كان إنما هو الرأى، فما لهم عندنا إلا السيف، وأخذ سعد بن معاذ الكتاب.

فقال رسول الله ﷺ : إنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم[5] من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر مّا.

---

(١) الهجرس: القرد أو الثعلب.

(٢) وفى إمتاع الأسماع للمقريزى: «لأنفد خصيتيك بالرمح».

(٣) أى لم يطمعوا فى ذلك منا أبدا فالاستفهام للنفى.

(٤) محمد بن يوسف الصالحى: سبيل الهدى والرشاد: ٤ / ٥٣١ مرجع سابق.

(٥) أى كانوا مجتمعين ضدكم كما تجتمع الكلاب على فريسة.

فقال له سعد بن معاذ:

يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله تعالى ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال رسول الله ﷺ: أنت وذاك.

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب[1]، ثم قال: ليجهدوا علينا»[2].

وبعد: فهذه وسائل التربية الإسلامية للعقل وسياساتها وأهدافها، نرجو أن نكون قد وفقنا فى توضيحها بعون من الله وتوفيق.

---

(١) الكتاب هنا أى الكتابة.

(٢) محمد بن يوسف الصالحى: سبيل الهدى...: ٤ / ٥٣١، مرجع سابق.



الفصل الثالث

بين الـدين والعقـل

ويتناول

١ - مفهوم الدين، وفيه :

أ - الإيمان،

ب - والإسلام،

جـ - والعدل،

د - والإحسان،

هـ - والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

و - والدعوة إلى الله،

ز - والجهاد في سبيل الله .

٢ - بين الدين والعقل .

٣ - الاجتهاد فى الدين والعقل .

بين الدين والعقل

بين الدين والعقل تعاون وتوافق؛ إذ الدين وضع إلهى يسوق ذوى العقول باختيارهم إياه إلى الإصلاح فى الحال والفلاح فى المآل، فكيف يتناقض الدين مع العقل أو العقل مع الدين؟!

- وفى هذا الفصل من الكتاب نرجو أن نوفق إلى توضيح العلاقة بين الدين والعقل، لا لمجرد الردّ على من يزعمون أن الدين يعطل العقل لما فيه من إيمان بالغيب، أو يهمله ويجعل له محلاً ثانوياً فى حياة الإنسان، ليس هذا هدفنا، وإنما هدفنا أن نوضح العلاقة الوثيقة بين الدين والعقل، بحيث لا يختلفان ولا يتناقضان؛ ما دام العقل يمارس عمله من فهم وتصور وإدراك وتحليل واستنتاج بصورة سليمة.
- وتأكيد هذه العلاقة الوثيقة بين العقل والدين يعيد كثيراً من الرؤى والأفكار والتوجهات إلى وضعها الصحيح، ويسهم فى رسم أبعاد واضحة وحدود حاسمة لطريق التلازم بين الدين والعقل؛ إذ لا دين يؤثر فى الإنسان ما لم يكن هذا الإنسان ذا عقل سليم، ولا عقل يستطيع أن يعصم صاحبه عن الخطأ والزلل ما لم يستلهم دينا من عند الله تبارك وتعالى، بلغه عنه رسول من رسله عليهم السلام، وظل محفوظاً من التغيير والتبديل.
- وهذا الدين بهذه الأوصاف ليس إلا الدين الخاتم الذى جاء به محمد ﷺ؛ لأنه مصدق لما بين يديه من الكتب ومهيمن عليها أى مؤتمن عليها معروف من خلاله صدق كتبها من زيف هذه الكتب، فالعقل ودين الإسلام متلازمان لا متضادان ولا متناقضان، ولا يقع شىء من ذلك إلا الخلل فى العقل.
- وإذا كان الدين – كما سنوضح فى هذا الفصل من الكتاب – إيمانا وإسلامًا وإحسانًا...

– فإن الوصول إلى شىء من ذلك لا يكون إلا من خلال العقل، ولكى نوضح ذلك نسوق هذه الحقائق:

– **الحقيقة الأولى:**

أن المعرفة الحقة للخالق العظيم لهذا العالم والإيمان به، إنما يكونان عن طريق النظر والتأمل والتفكر فى مخلوقاته:

النفس الإنسانية، والطعام والشراب، والليل والنهار، والحيوان والجماد، وتاريخ الأولين..

وهذا النظر والتأمل والتفكر والتدبر أعمال عقلية، لا معرفة للخالق العظيم إلا بها؛ أى لا إيمان ولا دين إلا بهذا العقل.

- **والحقيقة الثانية:**

أن توحيد الله تعالى؛ أى الإيمان بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، لا يأتى إلا من طريق العقل أيضا، أى الاستدلال العقلى بإقامة الأدلة والبراهين على ذلك، وإقامة الأدلة والبراهين على نفى تعدد الآلهة، كل ذلك عمل عقلى، مما يؤكد أن العقل يهدى إلى التوحيد.

- **والحقيقة الثالثة:**

أن تنظيم الحياة الدنيا، والعمل من أجل الحياة الأخرى إنما يأتيان أيضا عن طريق العقل، العقل الناضج القادر على التفكير الصحيح والتحليل والاستنتاج، والوصول بذلك إلى الرشد والهداية.

- فالحياة الدنيا والحياة الأخرى قد نظمهما منهج جاء من عند الله وبلغ به محمد رسول الله ﷺ، والإيمان بهذا المنهج والإسلام لما فيه من مبادئ ونظم قادرة على إصلاح المعاش والمعاد، لا يكون إلا عن طريق العقل.

فالإيمان عن طريق العقل ينتظم الدنيا والآخرة، ولا غنى لأى إنسان عن الحياتين معا، والإيمان جزء من الدين.

والإسلام عن طريق العقل يصلح الأعمال ويغرس الخير فى النفوس ويهيئ للناس حياة اجتماعية جيدة، والإسلام جزء من الدين.

والإحسان إلى الناس بتقديم الخير لهم، وإتقان كل عمل يقوم به الإنسان فى الحياة، ومراقبة الله تعالى فى كل قول أو عمل، إنما يكون كذلك عن طريق العقل، والإحسان جزء من الدين.

والعدل مع النفس بإلزامها الحق، والعدل مع الناس برفع الظلم عن كل مظلوم، كل ذلك لا يتم إلا عن طريق العقل، وهذا العدل الذى قامت عليه السماء والأرض والناس جزء من الدين.

والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

● كل هذه الأعمال الصالحة المفروضة على الإنسان ليؤدى وظيفته فى الحياة إنما تتم وتمارس بالعقل، وهى جميعها من أجزاء الدين ومفرداته.

أفبعد هذا التوضيح يكون الدين فى تخاصم أو خلاف مع العقل؟.

- والحقيقة الأخيرة:

هى أن هذا الدين أو ذلك المنهج الذى تعددت أجزاؤه ومفرداته إنما يهتدى إليه العقل الصحيح السليم القادر على أداء وظائفه، ولابد أن يهتدى إليه ما دام صحيحاً سليماً.

وعندما يتأمل العقل فى هذا الدين أو ذاك المنهج ويتدبر فيه وفى محتواه، وفى أهدافه النبيلة ووسائله الشريفة سيهتدى بالضرورة إلى أنه دين الإسلام خاتم الأديان الذى أوحاه الله إلى محمد ﷺ، فبلغه عن ربه كاملا غير منقوص، ولو لم يكن هذا الدين الخاتم، ديناً قادراً على تحقيق السعادة للبشر فى دنياهم وآخرتهم - وهذا فرض جدلى - لكان هو المذهب العقلى الذى يوجب العقل اتباعه.

● وسوف نتحدث فى هذا الفصل عن النقاط الثلاثة التالية:

١ - مفهوم الدين،

٢ - وبين الدين والعقل،

٣ - والاجتهاد فى الدين والعقل.

ونسأل الله تعالى أن نكون فى ذلك من الموفقين.

١ – مفهوم الدين

كلمة الدين: من الكلمات التى تحمل معانى عديدة كلها صحيحة وواردة فى اللغة العربية، وكثير منها ورد فى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

ومن هذه المعانى:

– الطاعة والانقياد،

– والجزاء،

– والإسلام نفسه،

– والتوحيد،

– واسم لجميع ما يتعبد الله به،

– واستعير للشريعة.

● ونحن نميل دائما إلى فهم معانى الكلمات أو المصطلحات بتعقب معانيها فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة(١)؛ لأن ذلك أضبط وأدق وأوثق.

وقد وردت كلمة الدين فى القرآن الكريم بالمعانى التالية:

١ – الدين بمعنى الحساب:

وفى ذلك المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١** ﴾ [**الماعون**: ١].

أى يكذب بالحساب والجزاء فى الآخرة، وقوله تعالى: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤** ﴾ [**الفاتحة**: ٤].

٢ – والدين بمعنى نظام الحكم:

وفى ذلك المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ**

---

(١) هذا ما جرينا عليه فى كثير من مؤلفاتنا، إيمانا منا بأن القرآن الكريم والسنة النبوية هما أصدق معجم للغة العربية على دوام العصور والأزمان وإلى يوم الدين.

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف: ٧٦].

أى يأخذه فى نظامه وحكمه وما يدين به.

٣ - والدين بمعنى: التوحيد.

وفى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس: ٢٢].

وفى قوله سبحانه: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر: ٢]..

أى توحيد الله تعالى بالعبادة.

٤ - والدين بمعنى: الملَّة:

وفى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة: ٥].

أى أمروا بأداء ذلك ليدخلوا به فى الملَّة المستقيمة.

٥ - والدين بمعنى الطاعة والانقياد:

وذلك فى قوله تعالى: ﴿ .. ولا يدينون دين الحق.. ﴾ التوبة.

أى لا ينقادون لدين الحق - وهو الإسلام - ويطيعون ما أمر به.

٦ - والدين بمعنى العادة:

وفى ذلك المعنى جاء قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحجرات: ١٦].

أى بعاداتكم ومكنونات صدوركم التى تظهر فى سلوككم.

٧ - والدين بمعنى الإسلام:

وهو الدين الخاتم الذى أوحاه الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ.

وفى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٣].

فالدين فى هذه الآية هو دين الإسلام، وهو دين الحق الذى جاء به محمد ﷺ من عند ربه سبحانه وتعالى.

● هذا هو مفهوم الدين كما ورد فى القرآن الكريم.

● أما فى السنة النبوية فقد جاءت كلمة الدين ببعض هذه المعانى،

ولكن السنة النبوية وصفت الدين بأوصاف تعرفه للناس وتوضح مبناه ومعناه وهدفه وغايته.

ومن ذلك ما نذكره من الأحاديث النبوية التالية:

١ – روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين يُسر، ولا يشادُّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدُّلجة».

فقد وصف الدين فى هذا الحديث الشريف بأنه يسر لا عسر فيه ولا قبول لتشدد فيه.

٢ – وروى مسلم بسنده عن تميم الدارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين النصيحة، لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

فقد وُصف الدين فى هذا الحديث بأنه نصيحة واجبة على كل مسلم يؤديها نحو الله وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامة المسلمين، كلٌّ بما يناسبه من معنى النصيحة.

٣ – وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق».

فقد وُصف الدين هنا بالمتانة أى القوة والوثاقة، وطلب من الناس أن يتعاملوا مع ما أمرهم به الدين وما نهاهم عنه بالرفق.

٤ – وروى أحمد بسنده عن أبى قتادة عن الأعرابى الذى سمع رسول الله ﷺ يقول «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره».

٥ – وروى أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: ما خطبنا النبى ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

فالدين فى هذا الحديث الشريف وفاء بالعهد ورعاية له.

٦ – وروى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «وضع رسول الله ﷺ ذقنى على

منكبيه لأنظر إلى زفن(١) الحبشة، حتى كنت الذى مللت فانصرفت عنهم»، وقال عروة بن الزبير إن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة، إنى أرسلت بحنيفية سمحة».

فقد وصف الدين فى هذا الحديث الشريف، بأن فيه فسحة وسماحة، وأنه دين حنيف(٢).

٧ - وروى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: كانت امرأة تدخل عليها تذكر من اجتهادها، قال فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال: «إن أحب الدين إلى الله ما دووم عليه وإن قل».

وقد وصف الدين فى هذا الحديث بأنه محبب إلى الله ما دام صاحبه يداوم عليه.

وخلاصة ما يمكن أن نعرف به الدين بعد هذه الجولة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هى أن نقول:

إن الدين هو هذا الدين الخاتم الذى جاء به محمد ﷺ وهو الإسلام الذى لا يقبل الله من أحد ديناً غيره، وذلك استجابة لقول الله العظيم: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٨٥)﴾ [آل عمران: ٨٥].

● وبعد، فهذا مفهوم كلمة الدين من حيث دلالتها فى اللغة وفى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أما مفهوم الدين من حيث مفرداته وأركانه وتفصيلاته فهى كثيرة أحصيت منها سبعا هى:

١ - الإيمان،

٢ - والإسلام،

٣ - والإحسان،

٤ - والعدل،

---

(١) الزَّفن: الرقص.

(٢) الدين الحنيف هو المستقيم الذى لا عوج فيه.

٥ - والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

٦ - والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن.

٧ - والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

وهذه المفردات مجتمعة هى الدين كله، كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فى أكثر من حديث شريف، وسوف أستشهد بهذه الأحاديث عند الكلام عن كل مفردة من هذه المفردات.

والله سبحانه ولى التوفيق.

أ – الإيمـان

وهو من مفردات الدين بنص كلام النبى ﷺ، يوم جاءه جبريل عليه السلام فأخذ يسأله عن الإيمان، ثم عن الإسلام ثم عن الإحسان، والرسول ﷺ يجيبه وجبريل يصدقه فيما أجاب به، ثم قول الرسول ﷺ لعمر رضى الله عنه عن السائل: «إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

فالدين فى هذا الحديث الشريف الذى سنذكره بعد قليل هو:

الإيمان والإسلام والإحسان، وما يتعلق بالساعة واليوم الآخر.

● **فما هو الإيمان**

الإيمان فى اللغة هو: التصديق.

وفى الشريعة هو: التصديق بالقلب والإقرار باللسان.

ومن حيث مفردات الإيمان فهى كثيرة:

– جاءت ست منها: فى حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبى ﷺ.

– وجاء فى السنة: من الإيمان أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه،

– وجاء: حب الرسول ﷺ من الإيمان،

– وجاء: حب الأنصار من الإيمان،

– وجاء: الحياء من الإيمان.

– وجاء: قيام ليلة القدر من الإيمان،

– وجاء: الجهاد من الإيمان،

– وجاء: صوم رمضان احتسابا من الإيمان،

– وجاء: تطوع قيام رمضان من الإيمان،

– وجاء: الصلاة من الإيمان،

– وجاء: إتباع الجنائز من الإيمان،

– وجاء أداء الخمس من الإيمان،

وكل تلك المعانى للإيمان بَوَّبَ بها الإمام البخارى فى صحيحة فى: كتاب الإيمان، فكلها معانٍ صحيحة للإيمان.

● ومفردات الإيمان كثيرة تبلغ بضعا وستين أو بضعا وسبعين شعبة، كما روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها أو فأرفعها أو فأفضلها – على اختلاف الروايات – قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان[1]».

● وقد أورد البيهقى سبعا وسبعين شعبة فى شرحه الموسع، وقد أحببت أن أذكر هنا هذه الشعب جميعا لأعفى القارئ من بحثه عن هذه الشعب، وأبل غلته فى التعرف عليها، وهذه الشعب هى:

١ – الإيمان بالله عز وجل،

٢ – والإيمان برسله أجمعين،

٣ – والإيمان بالملائكة،

٤ – والإيمان بالقرآن وبجميع الكتب المنزلة قبله،

٥ – والإيمان بأن القدر خيره وشره من الله تعالى،

٦ – والإيمان باليوم الآخر،

٧ – والإيمان بالبعث بعد الموت،

٨ – والإيمان بحشر الناس بعد بعثهم من قبورهم،

٩ – والإيمان بأن دار المؤمنين ومأواهم الجنة،

١٠ – والإيمان بوجوب محبة الله تعالى،

١١ – والإيمان بوجوب الخوف من الله تعالى،

---

(١) وقد شرحها البيهقى (٣٨٤ – ٤٥٨هـ) فى كتابه الموسع المتميز: شعب الإيمان. ط: دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م. ط أولى فى ثمانية مجلدات، ومجلد للفهارس.

١٢ – والإيمان بوجوب الرجاء من الله تعالى،

١٣ – والإيمان بوجوب التوكل على الله تعالى،

١٤ – والإيمان بوجوب محبة النبى ﷺ،

١٥ – والإيمان بوجوب تعظيم النبى ﷺ وتبجيله،

١٦ – وشُحّ المرء بدينه،

١٧ – وطلب العلم وهو معرفة البارى سبحانه وتعالى،

١٨ – ونشر العلم،

١٩ – وتعظيم القرآن المجيد،

٢٠ – والطهارات،

٢١ – والصلوات الخمس،

٢٢ – والزكاة،

٢٣ – والصيام،

٢٤ – والاعتكاف،

٢٥ – والحج،

٢٦ – والجهاد فى سبيل الله تعالى،

٢٧ – والمرابطة فى سبيل الله تعالى،

٢٨ – والثبات للعدو وترك الفرار،

٢٩ – وأداء الخُمس من المغنم،

٣٠ – والعتق بوجه التقرب إلى الله،

٣١ – والكفارات الواجبات بالجنايات (القتل والظهار واليمين والمسيس فى رمضان) .

٣٢ – والإيفاء بالعقود،

٣٣ – ووجوب شكر نعم الله،

٣٤ – وحفظ اللسان عما لا يحتاج إليه،

٣٥ – وأداء الأمانة،

٣٦ – وتحريم الفروج والتعفف،

٣٧ – وتحريم السرقة، ووجوب قبض اليد عن الأموال،

٣٨ – وتحريم قتل النفس والجنايات،

٣٩ – والتورع فى المطاعم والمشارب واجتناب ما لا يحل،

٤٠ – وتحريم ما لا يحل من الملابس والزى والأوانى،

٤١ – وتحريم الملاعب والملاهى المخالفة للشريعة،

٤٢ – والاقتصاد فى النفقة وتحريم أكل المال بالباطل،

٤٣ – وترك الغِلّ والحسد،

٤٤ – وتحريم أعراض الناس وترك الوقيعة بينهم،

٤٥ – وإخلاص العمل لله تعالى،

٤٦ – والسرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة،

٤٧ – ومعالجة الذنب بالتوبة،

٤٨ – وتقديم القرابين وهى : الهدى والأضحية والعقيقة،

٤٩ – وطاعة أولى الأمر،

٥٠ – والتمسك بما عليه الجماعة،

٥١ – والحكم بين الناس بالعدل،

٥٢ – والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

٥٣ – والتعاون على البر والتقوى،

٥٤ – والحياء،

٥٥ – وبر الوالدين،

٥٦ – وصلة الأرحام،

٥٧ – وحسن الخلق،

٥٨ – والإحسان إلى المماليك،

٥٩ – وحق السادة على المماليك،

٦٠ – وحقوق الأولاد والأهلين،

٦١ – ومقاربة أهل الدين ومودتهم،

٦٢ – ورد السلام،

٦٣ – وعيادة المريض،

٦٤ – والصلاة على من مات من أهل القبلة،

٦٥ – وتشميت العاطس،

٦٦ – ومباعدة الكفار والمفسدين والغلظة عليهم،

٦٧ – وإكرام الجار،

٦٨ – وإكرام الضيف،

٦٩ – والستر على أصحاب القروف – أى الذنوب –،

٧٠ – والصبر على المصائب،

٧١ – والزهد وقصر الأمل،

٧٢ – والغيرة، وترك المذاء،

٧٣ – والإعراض عن اللغو،

٧٤ – والجود والسخاء،

٧٥ – ورحم الصغير، وتوقير الكبير،

٧٦ – وإصلاح ذات البين،

٧٧ – وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه،

وكل واحدة من هذه الشعب يمكن أن يقال فيها: إنها من الإيمان،

● وحسبنا من توضيح معنى الإيمان ومفرداته ما ذكرناه.

ب - الإسلام

والإسلام فى اللغة هو: إظهار القبول والخضوع لما جاء به النبى محمد ﷺ.

ويطلق الإسلام على الدين الذى جاء به محمد ﷺ.

● **والإسلام فى الشرع نوعان:**

أحدهما: يطلق على ما دون الإسلام وهو الاعتراف باللسان، وبه يحقن الدم، حصل معه الاعتقاد أم لم يحصل، وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** (١٤) ﴾ [**الحجرات**: ١٤].

والآخر: يطلق على ما فوق الإيمان وهو: أن يكون مع الاعتراف باللسان اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله فى جميع ما قضى وقدر، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** (١٩) ﴾ [**آل عمران**: ١٩].

● وتطلق كلمة الإسلام فى معناها العام: على أصل الدين الذى جاء من عند الله لعباده على ألسنة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، منذ أن خلق آدم عليه السلام إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ.

وضح هذا المعنى للإسلام على ألسنة الأنبياء عليهم السلام نوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى وحواريه، وذلك فى الآيات القرآنية التالية:

- على لسان نوح عليه السلام: ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٧٢) ﴾ [**يونس**: ٧٢].

- وعلى لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** .... (١٢٨) ﴾ [**البقرة**: ١٢٨].

- وعلى لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ **يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٣٢) ﴾ [**البقرة**: ١٣٢].

– وعلى لسان يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف: ١٠١].

– وعلى لسان موسى عليه السلام: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) ﴾ [يونس: ٨٤].

– وعلى لسان حواريي عيسى السلام: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) ﴾ [آل عمران: ٥٢].

● وتطلق كلمة الإسلام بمعناها الخاص: على الدين الخاتم الذى أنزله الله تعالى على محمد ﷺ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف: ٩].

وهذا المعنى الخاص للإسلام أوضحته أحاديث نبوية شريفة عديدة:

– وبعض هذه الأحاديث يفسر فيه الرسول ﷺ «الإسلام» بأنه من أعمال الجوارح كالقول والفعل كالشهادتين وهما من القول وهو عمل اللسان، وكالصلاة والصوم وهما من أعمال البدن، وكالزكاة وهى عمل مالى، وكالحج وهو عمل بدنى مالى،

يتضح هذا فيما رواه مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺفأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال: صدقت. قال فعجبنا له يسأله، ويصدقه.. » الحديث ثم قال الرسول ﷺ فى آخر الحديث: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

● وبعض هذه الأحاديث تفسر «الإسلام» بأكثر من هذه الأصول الخمسة، فتزيد عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتسليم الرجل على أ هله، وذلك فيما رواه الحاكم فى مستدركه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «والإسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتسليمك على أهلك، فمن انتقص شيئا منهن فهو سهم

من الإسلام يدعه، ومن تركهن كلهن فقد ولىَّ الإسلام ظهره» .

– وبعض هذه الأحاديث يفسر «الإسلام» فتضيف إليه الغسل من الجنابة .

– فقد روى ابن حبان بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «الإسلام: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم شهر رمضان،والاغتسال من الجنابة» .

● والإسلام عقيدة وشريعة:

أ – فالعقيدة: يدخل فيها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

– وهى تعتمد على الاستدلال العقلى للاقتناع بها وإثبات صحتها، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (٦٤) ﴾ [النمل: ٦٤]، ومن قوله تعالى: ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ** (٢١) **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ....(٢٢) ﴾

[**الأنبياء**: ٢١، ٢٢].

– وهى تقرر وحدانية الله تعالى وتنزيهه،

– وهى تقرر حرية الاعتقاد، ونفى الإكراه فى الدين،

ب – والشريعة: وهى مجموعة الأحكام التكليفية العملية التى جاء بها الإسلام ليضبط بها سلوك الناس ويهيئ لهم بها السعادة فى الدنيا والآخرة..

– والشريعة أقسام ثلاثة:

أخلاق، وعبادات، ومعاملات.

– والأخلاق فى الإسلام من الثوابت التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال.

– والعبادات فى الإسلام من صلاة وصيام وزكاة.. إلخ من الثوابت أيضا.

– والمعاملات على مستوى الفرد كالسلوك فى التعامل سلوكا شرعيا من الثوابت أيضا كعقود الزواج والطلاق والبيع والرهن وغيرها.

– أما المعاملات على مستوى المجتمع مثل النظام السياسى والنظام الاقتصادى وغيرهما

من الأنظمة فمن المتغيرات التى تخضع لتغير الزمان والمكان والحال، لكن بشرط ألا يكون فيها شيء مما حرم الله، أو أن تعطل شيئًا مما أوجب الله تعالى.

– وتنبنى هذه الشريعة على اليسر والتخفيف، وليس فى تكليفاتها جميعا ما يشق على الناس أو يكلفهم ما لا يطيقون.

– ومصادر الشريعة هى: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ويضيف بعض العلماء إلى هذه المصادر الأساسية: المصالح المرسلة والاستحسان والاستصحاب ونحوها.

– وتستهدف الشريعة الإسلامية بكل أقسامها ونظمها وأخلاقها وعباداتها ومعاملاتها تحقيق مقاصد نص عليها العلماء هى:

حفظ النفس،

وحفظ الدين،

وحفظ العقل،

وحفظ العِرْض، «الفروج وما يتصل بها» والنسل،

وحفظ المال.

وتلك هى مصالح الناس عموما لكى يعيشوا حياة إنسانية كريمة آمنة ويتعايشوا متعاونين على البر والتقوى، يحب الواحد منهم لأخيه ما يحبه لنفسه.

جـ – الإحسان

وهو ثالث مفردة من مفردات الدين كما حدَّد هذه المفردات رسول الله ﷺ.

● والإحسان هو: فِعْل ما هو حسنٌ.

ويستعمل لفظ الإحسان على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير يقال أحسن إليه.

والآخر: الإحسان فى الفعل إذا علم علما حسنا أو عمل عملا حسنا، أو قال قولا حسنا: أى الإجادة والإتقان.

● والإحسان فى الشريعة هو : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . كما عرّفه رسول الله ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام عنه .

والإحسان بهذا المعنى يعنى أن يكون الإنسان فى مقام الإخلاص، والإخلاص شرط فى صحة الإيمان والإسلام كليهما .

● والإحسان بمعنى الإجادة :

– يرد فى حق الله تبارك وتعالى فهو سبحانه قد أحسن كل شىء، وخلق كل مخلوقاته –وفى قمتها الإنسان– فى أحسن تقويم، قال الله تعالى : ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** ... ⑦ ﴾ [السجدة : ٧]، وإحسان الله تعالى مخلوقاته نعمة منه على هذه المخلوقات وتفضل عليها .

– ويرد الإحسان فى حق الإنسان على سبيل الوجوب، فقد أمر الله تعالى المسلم بالإحسان، تأسيا بإحسان الله تعالى إليه، فقال جل وعلا : ﴿ ... **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ⑦⑦ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وسوف نتحدث عن الإحسان فى مجالين :

الأول : أنواعه ،

والآخر : منزلته وجزاؤه عند الله تعالى .

الأول :

أنواع الإحسان :

وهى كثيرة سنتحدث منها عن :

أ – إحسان النية ،

ب – وإحسان الظن ،

جـ – وإحسان القول ،

د – وإحسان الفعل ،

هـ – والإحسان إلى النفس ،

و – والإحسان إلى الوالدين والأهل والأبناء، والخدم،

ز – والإحسان إلى الجار واليتيم والأرملة،

ح – والإحسان فى الخصومة،

ط – والإحسان فى طلب الحق وفى أدائه،

ى – والإحسان إلى الحيوان.

وفى كل ذلك سوف نؤيده ونستشهد له بآية كريمة أو حديث نبوى شريف، والله تعالى الموفق المعين.

أ – إحسان النية:

كل مسلم مطالب بأن يحسن نيته، أى يخلصها لله من كل شائبة، واستحضار النية الحسنة فى كل عمل شرط لقبول هذا العمل، فقد روى البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

ب – وإحسان الظن:

وهو نوعان:

– إحسان الظن بالله تعالى: ويكون ذلك فى الاعتقاد الراسخ والثقة المطلقة فى عدله ورحمته الواسعة، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى».

– وإحسان الظن بالناس:

أى بالمسلمين والمسلمات، عندما يسمع عنهم ما لا يليق بمسلم، ولقد تعلم المسلمون هذا الخلق من قصة حديث الإفك الذى اتهمت فيه أم المؤمنين عائشة بتهمة باطلة برأها الله تعالى منها.

فقد علم الله المسلمين والمسلمات إحسان الظن بعضهم ببعض فى قوله تعالى: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ** (١٢)﴾ [النور: ١٢].

جـ - وإحسان القول:

إذ الأصل ألا يقول المسلم إلا قولا حسنا يشعر أنه يرضى الله تبارك وتعالى لموافقته للشريعة. قال الله تعالى: ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا . . .** (٨٣) ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال جل شأنه: ﴿ **. . . وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا** (٥) ﴾ [النساء: ٥].

وروى البيهقى فى شعب الإيمان - بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان على الصفا يلبى ويقول: يا لسان قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن أهذا مشئ تقوله أو شيء سمعته؟! فقال لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول «أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه».

د - وإحسان الفعل

والفعل هو كل ما يصدر عن الإنسان فى حق نفسه أو فى حق غيره، إذ يجب أن يكون هذا الفعل حسنا، قال الله تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٩٥) ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال جل شأنه: ﴿ **. . . . ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (٩٣) ﴾ [المائدة: ٩٣].

وروى الإمام مسلم بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

هـ - والإحسان إلى النفس

وهو مطلب شرعى أيضا طالب به الإسلام، وأوضح ما يكون الإحسان إلى النفس بأن تكون، حيث أمرها الله، وأن تجتنب كل ما نهيت عنه، فتلك تزكية لها وتطهير ووقاية لها من المعصية، ومن عذاب الله تبارك وتعالى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** (٧) **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** (٨) **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** (٩) **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** (١٠) ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]. وقال جل وعلا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** (٦) ﴾ [التحريم: ٦]، وحفظ النفس عن النار والعذاب إحسان إليها مطلوب من كل مؤمن كما نصت على ذلك الآية الكريمة.

روى الإمام أحمد بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اضمنوا لى ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم».

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش: أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا معشر بنى عبد المطلب: أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا فاطمة بنت محمد: أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لك ضرا ولا نفعا، إن لك رحما وسأبلها ببلالها».

و - الإحسان إلى الوالدين والأهل والأبناء والخدم

وذلك معناه الإحسان إلى البيئة الصغيرة «الأسرة» التى يعيش المسلم فيها، أى معاملة كل أفرادها بما أمر الله به وندب إليه واجتناب ما نهى عنه فى التعامل معها.

وقمة هذه الأسرة هما الوالدان، والإحسان إليهما جاء بنص القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .... (٢٣)** ﴾ [الإسراء: ٢٣].

والدعاء لهما والاستغفار، وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما، وكل ذلك بعد موتهما فما بالك فى حياتهما؟.

- والإحسان إلى الزوجة فى العشرة والمسكن والمطعم والمشرب والملبس. قال تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (١٩)** ﴾ [النساء: ١٩]، ولو حدث طلاق لسبب مقبول فالإحسان إليها مطلوب أيضا قال تعالى: ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ... (٢٢٩)** ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

- والإحسان إلى الأبناء، ورعايتهم داخلة فى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .... (٦)** ﴾ [التحريم: ٦].

ورعاية الأبناء والإحسان إليهم مطلب وردت به السنة، روى عبد الرازق - فى المصنف - بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويزوجه إذا أدرك، ويعلمه الكتاب»(١).

---

(١) هو الكتابة أو القرآن الكريم.

– ورعاية الخادم والإحسان إليه مطلب شرعى، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى ذرّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله قنية تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه».

ز – والإحسان إلى الجار واليتيم والأرملة

وهذا الإحسان إلى الجار دعم قوى للروابط الاجتماعية بين المسلمين، بل بين المسلمين وغيرهم، قال الله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ**(١) **وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦)**﴾ [النساء: ٣٦]، وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره».

– وكافل اليتيم مع النبى ﷺ فى الجنة، قال الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠)**﴾ [الضحى: ٩، ١٠]، وقال جل شأنه: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)**﴾ [الماعون: ١ – ٣].

وروى البخارى بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما.

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله» وأحسبه قال: «وكالقائم الذى لا يفتر وكالصائم الذى لا يفطر».

ح – والإحسان فى الخصومة

وذلك من الأخلاق الرفيعة التى جاء بها الإسلام، وهذا الإحسان يعنى أن يبادر المسلم بالسلام، ويعمل على إصلاح ذات البين ويقابل الإساءة بالإحسان: قال الله تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)**﴾ [فصلت: ٣٤]، وقال جل شأنه: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)**﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال جل

---

(١) أى الأجنبى غير القريب نسبًا.

وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾ [الرعد: ٢٢].

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله: إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ وأحلم عنهم ويجهلون علىّ، فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفُّهم الملّ(١) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

ط - والإحسان فى طلب الحق وفى أدائه

المسلم مطالب أن يتلطف فى طلب الحق الذى له عند آخر، كما هو مطالب بأن يحسن طلب الحق، وأن يحسن أداء الحق، ذلك خلق أصيل فى المسلم، يخلو به المجتمع من التشاحن والبغضاء، ليحل محله الوئام والسلام. ولا يكون ذلك إلا بالرفق فى طلب الحق وفى الأمر كله، قال الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال جل شأنه: ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله».

وروى الحاكم فى المستدرك بسنده أن «زيد بن سعنة» كان من أحبار اليهود، وأنه أتى النبى ﷺ يتقاضاه، فجبذ(٢) ثوبه عن منكبه الأيمن ثم قال: إنكم يا بنى عبد المطلب أصحاب مطل(٣)، وإنى بكم لعارف، قال: فانتهره عمر - رضى الله عنه - فقال له رسول الله ﷺ: «يا عمر أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج؛ أن تأمرنى بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضى، انطلق يا عمر؛ أوفه حقه، أما إنه قد بقى من أجله ثلاث، فزده ثلاثين صاعًا لتزويرك(٤) عليه».

ى - والإحسان إلى الحيوان

الحيوان من نعم الله التى سخرها للإنسان، وهو جزء من معاش الإنسان، وقد أمر المسلم

---

(١) الملّ: الرماد الحار أو التراب.

(٢) جبذ: أى جذب وشد.

(٣) مطل: مماطلة وتسويف.

(٤) تزويرك عليه: ترويعك إياه.

أن يحسن إلى كل شيء، فالحيوان مستحق لهذا الإحسان، وهدى النبوة أن فى الإحسان إلى كل ذات كبد رطبة أجراً.

روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: قد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب؛ فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله: وإن لنا فى هذه البهائم لأجراً فقال: «فى كل كبد رطبة أجر».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما كلب يطيف بركيَّة[1] قد كاد يقتله العطش؛ إذ رأته بغىٌّ من بغايا بنى إسرائيل، فنزعت موقها[2] فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به».

المجال الثانى من مجالى الحديث عن الإحسان هو: منزلة الإحسان وجزاء المحسن عند الله

إذا كان الإحسان على مثل هذا القدر من الأهمية فى حياة المسلم، وإذا كان الإحسان قد أمر به الله تبارك وتعالى، فلابد أن تكون له منزلة رفيعة فى الإسلام، ولابد أن يكون جزاء المحسن أحسن جزاء، وهذا ما نحب أن نوضحه فى هذه السطور.

- أما منزلة الإحسان: فهى التى توضحها وتوضح قيمتها الآيات التالية:

– فالإحسان يوصل الإنسان إلى منزلة حب الله إياه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)**﴾ [البقرة: ١٩٥].

– والإحسان يكسب صاحبه معيَّة الله، وما فى هذه المعية من رعاية وحفظ ورضى؛ إثابة منه تعالى للمحسن، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم**

---

(١) الركيَّة: بئر لم تُطوْ أى تُبْن بالحجارة ونحوها وبناؤها يساعد على الهبوط فيها والصعود منها، فإذا لم تطو صعب الصعود والهبوط.

(٢) الموق: الخُفّ الغليظ يلبس فوق الخف الرقيق.

مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل : ١٢٨].

- والإحسان يقرب صاحبه من رحمة الله، ومن كان قريبا من رحمة الله فقد فاز، يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف : ٥٦].

- والإحسان يرفع عن صاحبه الحرج والإثم والتقصير، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ [التوبة : ٩١].

- والإحسان يجعل صاحبه محلاً لتبشير الله تعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى :

﴿ ... وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج : ٣٧]. أى بشر المحسنين بثواب عظيم.

- والإحسان يجعل صاحبه فى ركن ركين وعروة وثقى فيطمئن بذلك إلى نفسه وإلى عمله ويحمد الله تعالى ويسأله المزيد، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان : ٢٢].

● وأما جزاء الإحسان : فهو أحسن جزاء وأكرمه، وفى القرآن الكريم آيات عديدة توضح هذا الجزاء، نذكر منها ما يلى :

- قال الله تعالى : ﴿ ... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [التوبة : ١٢٠].

والمعنى أن كل ما يبذله المسلم من عمل فى سبيل الله فهو عمل صالح يدخل فى باب الإحسان ولا يضيع عند الله تعالى من أجره شيء.

- وقال جل شانه : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة : ٨٥]؛ أى كتب الله لهم ثوابا هو جنات تجرى الأنهار تحت أشجارها وقصورها، وهم ماكثون فيها دائما، وذلك الجزاء الذى نالوه هو جزاء كل محسن مثلهم.

- وقال جل وعلا : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا

مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) ﴾ [الرحمن: ٤٦ - ٦٠]. أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى الثواب، قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسيرها «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»: «هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة»؟!

وبعد: فهذه هى المفردة الثالثة من مفردات الإسلام وهى الإحسان نرجو أن نكون قد وفيناها حقها من الشرح والإيضاح.

د - العدل

وهو رابعة مفردات الدين، وتأتى مع الإحسان فى قَرَن، أى مقرونة به فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ (٩٠) ﴾ [النحل: ٩٠].

- والعدل هو: الإنصاف، وهو أن يعطى للآخر ما له وأن يأخذ منه ما عليه، فإن قبل منه أقل مما عليه، وأعطاه أكثر مما له فهو الإحسان.

والعدل: من معانيه الجزاء، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ (١٢٣) ﴾ [البقرة: ١٢٣].

- والعدل والعدالة: مصدران للفعل عَدَل. أى استقام.

والعدل: يقتضى معنى المساواة، ويستعمل فيما يدرك بالبصيرة مثل الأحكام.

والعدل: هو التقسيط على سواء، قال الراغب الأصيهانى - فى المفردات - وعلى هذا روى: «بالعدل قامت السموات والأرض»، تنبيها أنه لو كان ركن من الأركان الأربعة فى العالم زائداً على الآخر أو ناقصاً عنه على مقتضى الحكمة لم يكن العالم منتظما».

- والعدل ضربان:

مطلق يقتضى العقل حسنه.

وعدل يعرف كونه عدلا بالشرع؛ كالقصاص وأُروُش الجنايات.

- والعدل هو: المساواة فى المكافأة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر(١).

وهذا التعريف للعدل هو التعريف العام، وهناك تعريفات تخص مصطلحات خاصة عند بعض العلماء، نذكر منها ما يلى:

- عند الأخلاقيين:

العدل: هو التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط.

والعدالة: الاستقامة.

- وعند الشيعة: هو تنزيه الله تعالى عن فعل القبيح والإخلال بالواجب.
- وعند علماء النحو: خروج الاسم عن صيغته الأصلية إلى صيغة أخرى.
- وعند علماء الحديث: العدل الذى يروى الحديث هو: المسلم البالغ العاقل الذى سلم من أسباب الفسق وخوارم المروءة.
- وعند الفقهاء: اجتناب الكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر، وأن يكون صلاحه أكثر من فساده، وأن يستعمل الصدق ويجتنب الكذب ديانة ومروءة.

وقالوا إن مما يخل بالمروءة: سرقة لقمة، والتطفيف فى الوزن بحبة، والأكل فى الطريق، والبول فى الطريق، وفعل ما لا يليق به من غير ضرورة تحمله عليه.

- والعدل أو العدالة -بوصفه جزءا من الدين عموما، ومن الدين الإسلامى على وجه الخصوص- يقوم على دعائم وركائز جاءت بها شريعة الإسلام، موافقة لمقتضيات العقل السليم، ومحققة لحاجات الإنسان فى كل زمان ومكان، وهذا ما نحب أن نوضحه فى السطور التالية:

أولا:

العدل الذى جاءت به الشريعة الإسلامية موافق لمقتضيات العقل.

وبيان ذلك فيما يلى:

أن العقل قد اقتضى أن يكون للإنسان حقوق طبيعية تحتاج إليها فطرة الإنسان بغض

(١) الراغب الأصبهانى: المفردات فى غريب القرآن: ٣٢٥ ط الحلبى القاهرة: ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م.

النظر عن الشرائع السماوية.

● وهذه الحقوق الطبيعية هي:

١ – حق الإنسان فى الحياة، فليس لأحد أن يسلبه هذه الحياة، وقد ترتب على ذلك أن على الإنسان أن يدافع عن نفسه عند وقوع العدوان عليها، فلو قتل من يحاول قتله لما أُدين.

– ومعنى ذلك أنه ليس للإنسان أن يقتل نفسه أو يبتر عضواً من أعضائه، أو أن يعطل وظيفة من وظائفه.

● وهذه الحقوق الطبيعية هى ما جاءت به الشريعة الإسلامية.

– فقد حرّم الله قتل النَّفس، بل جعل قتل نفس واحدة كقتل الناس جميعا، فقال الله تعالى: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (٣٢) ﴾ [المائدة: ٣٢].

– وحرّم الله على الإنسان أن يقتل نفسه فقال عز وجل: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) ﴾ [النساء: ٢٩].

– ونهى الله تعالى عن بتر الأعضاء وتعطيل وظائفها، فقد روى البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، وليس لنا شيء[١]، فقلنا ألا نستخصى؟ فنهانا عن ذلك».

٢ – وحقه فى التمتع بحرياته جميعا، حرية العقيدة وحرية العمل والكسب والتعبير... إلخ.

● وقد كفلت الشريعة الإسلامية هذه الحريات جميعا[٢]، وعلى رأسها حرية العقيدة، كما فى قوله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (٢٥٦) ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وجعلت الشريعة الإسلامية الشورى أصلا من أصولها فأمرت بها النبى ﷺ ليأتمر بها كل مسلم إلى يوم القيامة.

---

(١) أى ليس معنا زوجات ولا نملك شيئا نتزوج به.

(٢) ناقشنا هذه الحريات فيما سبق من هذا الكتاب فى: الهدف الرابع: حرية التفكير، وفى تدريب العقل على حرية التفكير فى الفصل الثانى.

٣ – وحقه فى استغلال الأرض وفى ملكها وفى العلم والبحث[١]. . . .

● وقد جاءت الشريعة بهذه الحقوق كلها وأقرتها ومنعت من أن يعتدى أحد عليها، فقد روى الترمذى بسنده عن سعيد بن زيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحيا أرضا ميتة فهى له، وليس لعرق ظالم حق».

٤ – وحقه فى المساواة فى الحقوق والواجبات

أى لا يمتاز أحد فى المجتمع على أحد لجنس أو لون أو إمارة أو جاه أو مال، لأن الإنسان فطر على المساواة، ولأن العقل الصحيح السليم يقتضى المساواة أى العدالة أو العدل.

● وقد قامت الشريعة الإسلامية على قاعدة ثابتة فى هذا المجال تضمنها قوله تبارك وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (١٣)﴾** [الحجرات: ١٣]، وهذا التعارف يجب أن يكون بين الناس جميعا مسلمين وغير مسلمين مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وقبائلهم، لأنهم جميعا من أصل واحد . . ذكر وأنثى – وهما آدم وحواء عليهما السلام.

● أما بين المؤمنين فإن المساواة تبلغ بينهم درجة الأخوة، قال الله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . . (١٠)﴾** [الحجرات: ١٠][٢].

وقد قرر الإسلام أن ليس لعربى فضل على غيره إلا بالتقوى، فقد روى أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال له: «انظر فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى».

وروى الترمذى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا بنى عبد المطلب، إنى لا أملك لكم من الله شيئًا . .».

فهل هناك مساواة أعمق من تلك المساواة، وهل هناك عدل أو عدالة تكفل مثل هذه المساواة فى ظل أى نظام سابق أو لاحق؟.

---

(١) سنتحدث فى تفصيل دعوة الإسلام إلى العلم فى الفصل الرابع من هذا الكتاب إذا أذن الله تعالى.

(٢) وانظر لنا فى تفصيل ذلك كتاب: «فقه الأخوة فى الإسلام». نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م.

وبعد فهذه السطور عن العدل بوصفه جزءا من الدين أرجو أن أكون قد وفقت فيها في توضيح مكانة العدل في الإسلام، والله ولي التوفيق.

هـ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١)

وهو من مفردات الدين الإسلامي وبه مع الإيمان بالله اعتبرت الأمة المسلمة خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** (١١٠)﴾ [آل عمران: ١١٠].

● ولهذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حدٌّ أعلى لا يمكن للإنسان المسلم أن يفعل أكثر منه، وله حدٌّ أدنى لا يمكن للمسلم أن ينزل دونه.

- فالحد الأعلى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أن يأمر بكل معروف كل أحد، وينهى عن كل منكر كل أحد، كما يتضح ذلك عن قول الله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** (٧١)﴾ [التوبة: ٧١]، فهذه الآية تؤكد عموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كل مؤمن ومؤمنة.

- والحد الأدنى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تقوم به طائفة من المؤمنين، وذلك يفهم من قوله تعالى: ﴿ ... **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (١٠٤)﴾ [آل عمران: ١٠٤].

● والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة من علامات التمكين لدين الله في الأرض، وصفة لازمة له، قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** .... (٤١)﴾ [الحج: ٤١].

والأمر بالمعروف هو جلب المصالح،

والنهي عن المنكر هو درء المفاسد.

● وقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة مؤكدة وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

---

(١) للتوسع: انظر للمؤلف: فقه الدعوة إلى الله: ١/ ١٣٣ - ١٥٣ ط دار الوفاء القاهرة ط ثالثة: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

على كل مسلم ومسلمة ما داما قادرين على ذلك.

– روى الترمذى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم».

– وروى أبو داود بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿**لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم**﴾ إلى قوله: ﴿**فاسقون**﴾ ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم».

– وروى الإمام أحمد بسنده عن عدىّ بن عميره الكندى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه، فإذا فعلوا ذلك، عذّب الله الخاصة والعامة».

– وروى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

– وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إياكم والجلوس فى الطرقات» فقالوا يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بُدّ نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».

– وروى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

● ويرى الإمام النووى – فى شرحه لصحيح مسلم – أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين فى الأحوال التالية:

أ – على من يرى المنكر من زوجته وأولاده،

ب – وعلى من يرى الإخلال بواجب شرعى،

جـ – وعلى من يرى منكرا لا يراه سواه وهو قادر على إزالته.

د – وعلى والى الحسبة فتلك وظيفته.

● ويرى الإمام ابن تيمية رضى الله عنه أنّ حكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيه تفصيلات على النحو التالى:

أ – أنه واجب فى الواجب فعله، أو الواجب تركه، ومندوب فى المندوب فعله أو تركه.

ب – وأن الأمر بالواجب واجب، وبالنافلة نافلة. وأما النهى عن المنكر فكله واجب.

جـ – وأن مقصود النهى عن المنكر أربع درجات:

١ – أن يزول ويخلفه ضده،

٢ – أن يقلّ وإن لم يزل جملة،

٣ – أو يخلفه ما هو مثله،

٤ – أو يخلفه ما هو شرّ منه.

والأولان: مشروعان:

والثالث: موضع اجتهاد،

والرابع محرّم.

● وعند التأمل فى تلك الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى ذكرنا، نستطيع أن نخلص إلى الحقائق التالية – فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

أ – أن عامة المسلمين مطالبون بأن يأمر كل واحد منهم بالمعروف وينهى عن المنكر، فى حدود قدرته.

ب – وأن جماعة من المسلمين لابد أن تتحدد وتتحيز، وتمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذلك هو الحد الأدنى.

جـ – وأن الأمر المعروف والنهى عن المنكر صفة من صفات المؤمنين الذين عقد الله تعالى معهم صفقة بيع، يقاتلون فى سبيل الله، ولهم الجنة.

د – وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يحتاج إلى قوة ومنعة، لأطر بعض الناس على الحق أطرا.

هـ – وأن التخلى عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ يوجب على الذين تخلوا عذاب الله، سواء أكانوا من عامة المسلمين أم من خاصتهم.

و – وأن حياة الناس وأمنهم ورضاءهم، لا يتحقق إلا بممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى صورتهما العامة بمعنى: أمر كل أحد بكل معروف، ونهى كل أحد عن كل منكر.

والذى أكد ذلك صيغة الجمع فى الآيات وفى الأحاديث.

● ولقد فهم ذلك سلفنا الصالحون رضوان الله عليهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى نهاية القرن الثالثة الهجرى، فملأوا الأرض عدلا وسلاما وأمنا ورخاء، فكانوا بذلك جديرين بما وصفهم به رسول الله ﷺ من أنهم خير القرون، وذلك فى الحديث النبوى الشريف الذى رواه البخارى بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أُمتى قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدرى، أَذَكَر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة – ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السِّمن».

● ونحن نقرر هنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جزء من الدين الإسلامى ومفردة من مفرداته، ولكن شيخنا الإمام الغزالى أبا حامد، يرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أكبر من ذلك بكثير، فهو يقول:

«الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين، وهو المهمة التى ابتعث الله لها النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وهلك العباد»(1).

---

(1) الإمام الغزالى: موسوعته: إحياء علوم الدين: ٢/ ٢٦٩ ط الحلبى بمصر ١٣٥٢ هـ – ١٩٣٢م، التى أخذت من الطبعة الأميرية المطبوعة سنة ١٢٨٩ هـ – ١٨٧٢ م.

و – والدعوة إلى الله

وهذه الدعوة إلى الله جزء من الدين الإسلامى، ومفردة من مفردات الإسلام الدين الخاتم الذى أكمله الله وأتمه ورضيه للبشرية كلها دينا.

● والدعوة إلى الله واجب شرعى على كل مسلم ومسلمة يملكان القدرة على ذلك.

ولقد أكَّدت غير مرة(١): أن المسلمين إذا كانوا اليوم فى فرقة وشتات، وتخلف وضياع، وضعف وخذلان، بحيث طمع فيهم الأعداء، فما أوصلهم إلى هذا الوضع إلا أنهم لم يفقهوا دعوة الإسلام، فقعدوا عن واجبها، وأهملوا فى عمل هو من صميم ما كلفوا به؛ إذ قد أوجب الله الدعوة إليه على رسوله، وعلى كل مَن اتبع الرسول ﷺ إلى يوم الدين، كل بحسب ما يستطيع من علم وقدرة.

وما أُعفى من هذا الواجب أحد من المسلمين إلا أن يكون صاحب عذر مقبول، جاء هذا فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (١٠٨)﴾ [**يوسف**: ١٠٨].

● والبصيرة فى هذه الآية تقدر بقدرها:

– فهى لدى العالم بأصول الدين وفروعه؛ علم وتعليم، قد يصل إلى حدّ الإفتاء والاجتهاد.

– وهى لدى غيره من الناس قد تهبط، فتصل إلى حد أن من علم من أمور الدين أمراً، مهما كان يسيرا، وكان منه على بصيرة، دعا غيره إليه، فمن كان على علم بالطهارة أو الأذان أو الصلاة أو غيرها؛ فقد وجب عليه أن يدعو غيره من الناس إليها، وإن لم يفعل فهو من المقصرين.

هكذا كان يفهم أسلافنا الدعوة إلى الله، ويفقهون مفرداتها ويعرفون واجبهم نحوها.

وبهذا الفهم وهذا الالتزام نقلوا إلى الإنسانية كلها أعظم حضارة عرفها تاريخ البشرية،

---

(١) وانظر فى هذا المعنى للمؤلف:

أ – فقه الدعوة إلى الله ط دار الوفاء بمصر ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م.

ب – فقه الدعوة الفردية ط دار الوفاء بمصر ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.

جـ – فقه المسئولية فى الإسلام ط دار التوزيع والنشر بمصر ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.

د – المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله ط دار الوفاء بمصر ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

وعرفوا الناس بمنهج الإسلام فى الحياة ونظامه، فقامت عليه أفضل حياة إنسانية للناس فترات غير قصيرة من الزمان .

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا وضيعوا . . ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا وأضلوا قال قائلهم . . مبررا لهذا التقصير وذاك الانحسار :

إن الدعوة إلى الله واجب المتخصصين فى علوم الإسلام وحدهم، ممعنين بذلك فى ضلال مبين، حيث تناسوا أو تجاهلوا ما أنزل الله على رسوله فى قوله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى . .** ﴾ فدفعوا لذلك الفهم أبهظ الأثمان، من الضعف والذل والهوان، وسقطت القوة من أيديهم لأن الحق سقط من عقولهم فأضحوا على النحو الذى وصلوا إليه اليوم أكثر من أربعين أمة، وكان الأصل فيهم أن يكونوا أمة واحدة، وأصبحوا أعجز من أن يمارسوا حياتهم الدنيا إلا بالديون!!! وصلوا إلى ذلك، فى حين أن أحد أسلافهم ممن فهموا واجب الدعوة إلى الله فعاش عزا وسيادة وغنى، وجّه كلامه يوما إلى سحابة فى السماء قائلا لها : «أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك» .

● وإنما كانت الدعوة إلى الله واجبا – على ذلك النحو الذى ذكرنا – لأسباب كثيرة نذكر منها :

١ – إرشاد عقول الناس إلى معرفة الله تبارك وتعالى، وعبادته وفق ما شرع لهم، وأن يعيشوا حياتهم وفق منهجه سبحانه وتعالى، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧)** ﴾ [**الذاريات** : ٥٦، ٥٧] .

٢ – وتعليم الناس من أنباء الغيب ما هم فى حاجة إليه، حتى تصفو نفوسهم وتستريح قلوبهم، فيقبلوا على عبادة الله وطاعته وهم يعلمون أن هناك حياة أخرى وحسابا وجنة ونارا وملائكة ينقلون الوحى إلى الأنبياء، وكتبا أنزلها الله على رسله، وأنهم من أجل ذلك لم يخلقوا عبثا، قال الله تعالى : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)** ﴾ [**المؤمنون** : ١١٥] .

٣ – وتوضيح ما حرم الله على عباده وما أحل لهم، مما يؤدى الأخذ به إلى صالح معاش الناس ومعادهم، لأنه سبحانه وتعالى لم يحرم عليهم إلا ما يضرهم، ولم يحل لهم إلا ما ينفعهم، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . . . (٣٣)** ﴾ [**الأعراف** : ٣٣] .

٤ - وتوجيه الناس بل مطالبتهم بأن يعيشوا حياتهم متعاونين على البر والتقوى والتآخى فى الإسلام والتحاب فى الله تعالى، لأن ذلك هو الذى يضمن لهم حياة إنسانية كريمة.. قال الله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ.... (٢)** ﴾ [**المائدة**: ٢]. وقال جل شأنه: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... (١٠)** ﴾ [**الحجرات**: ١٠].

٥ - وتهذيب نفوس الناس وأخلاقهم وتوجيهها نحو الفضائل والقيم الرفيعة التى جاء بها الإسلام، ودعوتهم إلى ضبط نزغاتهم وشهواتهم وأهوائهم بضابط ما شرع الله مما أحل وحرم، ليعيشوا حياة إنسانية كريمة تحقق لهم رضاء الله تعالى فى الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)** ﴾ [**الأنعام**: ١٥١، ١٥٢].

٦ - وتوضيح ما اختلفت فيه عقول الناس، وما تتضارب فيهم أهواؤهم وشهواتهم، ومصالحهم، وما يفصل بينهم فى هذه القضايا مثل دين الإسلام وما جاء فيه من كتاب وسنة، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)** ﴾ [**النحل**: ٦٤].

٧ - ودعوة الناس إلى الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والجهاد فى سبيل الله - كما هو معروف[١] - هو ذروة سنام الإسلام، وهو الركن الذى ما تركه المسلمون إلا ذلوا، قال الله تعالى: ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)** ﴾ [**التوبة**: ٤١].

- من الذى يدعو الناس إلى هذه الأصول التى لا تستقيم لهم حياة دنيوية وأخروية إلا بها؟.

---

(١) سنوضح هذا فى المفردة التالية، وانظر لنا للتوسع: ركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به. ط دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

هل غير الدعاة إلى الله يستطيعون القيام بذلك؟.

وهل بغير الدعوة إلى الله تتضح هذه الأمور؟.

وهل يدعى بعض الناس بعد هذا أن الدعوة إلى الله واجب علماء الإسلام وحدهم؟ إذن كيف انتشر الإسلام فى العالم؟ وكيف ذاعت مبادئه وقيمه فى أقل من نصف قرن من يوم ظهوره لتعم ما يقرب من نصف الأرض المعمورة التى كان يمكن الوصول إليها؟ أكان ذلك بغير الدعوة إلى الله؟ الدعوة إلى الله التى مارسها كل من اتبع الرسول ﷺ.

ز - والجهاد فى سبيل الله تعالى

هذا الجهاد الذى جعله الإسلام فريضة من فرائضه بل قمة فرائضه وذروتها، مشروط بأن يكون فى سبيل الله، وذلك أنبل شرط عرفته البشرية فى ماضيها وفى حاضرها ومستقبلها، وذلك أن الناس يقاتلون أو يحاربون فى سبيل أعراض دنيوية ومكاسب مادية، وأطماع تحرك الناس إلى ذلك.

- وإلى يوم الناس هذا - وأهل الحضارات المختلفة يزعمون أنهم أهل سلام وتعاون دولى يتمثل فى هيئة الأمم المتحدة أو فيما أطلق عليه مؤخرا[1] النظام العالمى الجديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية - وهم يكذبون فى تلك الدعاوى، إذ تحركهم إلى الحروب مصالحهم المادية وحدها، وسجلاتهم عند التدبر فيها تشهد على ذلك وتفضح نواياهم، وحسبهم بعدا عن العدالة والروح الإنسانية ما قرره كبارهم من امتياز لهم على سائر البشر فيما يعرف بحق «الفيتو» الاعتراض على أى قرار لا يعجبهم أو يتعارض مع مصالحهم مهما حقق من مصلحة لشعوب أخرى غير تلك الدول الكبيرة[2].

- أما الحرب والجهاد فى الإسلام فهدفها إحقاق الحق ورفع الظلم عن المظلومين، والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا هو إحقاق هذا الحق.

- وهذا الجهاد لا يفارقه العدل ولا الصفات الفاضلة ولا الأخلاق النبيلة مهما تكن الظروف والأحوال، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** (٨) ﴾ [المائدة: ٨].

---

(١) فى عام ١٩٩١م بعد عدوان العراق على الكويت.

(٢) هذه الدول كما هو معروف هى: أمريكا وإنجلترا وفرنسا وروسيا والصين.

– وهذا الجهاد فى سبيل الله، فريضة على المسلمين إلى يوم القيامة لا تتوقف ما دام فى المسلمين حياة، قال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة: ٢١٦].

– والجهاد فى سبيل الله يستهدف أعداء الله أعداء الحق والخير والهدى والإنسانية، وهم فى الوقت نفسه أعداء المسلمين، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .... (٦٠) ﴾ [الأنفال: ٦٠].

– والجهاد فى سبيل الله عبادة لله تعالى كالصلاة والصيام والزكاة عليها ثواب أداء العبادة، وعقاب تركها، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... (٧٨) ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

– وثواب الله تعالى للمجاهدين هو أعظم ثواب وهو الجنة، إذ ليس وراء الجنة مطلب لأى مؤمن بالله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة: ١١١].

● والجهاد فى سبيل الله يشمل الجهاد بالنفس كما قدمنا، والجهاد بالمال، والجهاد باللسان، وبكل وسيلة شرعها الإسلام من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا، قال الله تعالى: ﴿ ... وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة: ٤١].

● وفى الجهاد فى سبيل الله وردت أحاديث نبوية كثيرة نذكر منها ما يلى:

– روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد؟ قال: «إنكم لا تستطيعون» فردوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه» فقال فى الثالثة: «مثل المجاهد فى سبيل الله مثل الصائم القائم الذى لا يفتر من صلاة وصيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله».

– وروى الترمذى بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «.. ألا أخبركم برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد».

– وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل أمة سياحة، وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله، وإن لكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتى الرباط فى نحور العدو».

– وروى الإمام أحمد بسنده عن معاذ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قاتل فى سبيل الله من رجل مسلم فواق ناقة؛ فقد وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل فى نفسه صادقا، ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد، ومن جرح جرحا فى سبيل الله، أو نكب نكبة، فإنها تجىء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك، ومن جرح به جراح فى سبيل الله، كان عليه طابع الشهداء».

– وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله، والذى نفسى بيده، لوددت أنى أقتل فى سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل».

– وروى البخارى بسنده عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

– وروى البخارى بسنده عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا فى سبيل الله بخير فقد غزا».

– وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس فاقمت فى هذا الشعب، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا فى سبيل، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة، وجبت له الجنة».

● وليس لمسلم أن يمضى عمره لا يشارك فى الجهاد أو يتمنى أن يشارك فيه إذا لم يستطع

المشاركة، لأن الجهاد - كما - قلنا عبادة تعد من ذروة العبادات فى الإسلام.

وقد جاءت أحاديث نبوية شريفة تحذر من ترك الجهاد عملا، أو عدم تمنى المشاركة فيه نذكر منها ما يلى:

- روى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق».

- وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة[1]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلا، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

- وأخرج ابن عدىّ - فى الكامل - بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الزموا الجهاد تصحوا وتستغنوا».

- وللجهاد فى سبيل الله أخلاقيات وآداب يجب أن تراعى، قد ورد حديث نبوى شريف اشتمل على أكثر هذه الأخلاقيات فى الجهاد فى سبيل الله.

- وروى مسلم بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال

- اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله.
- اغزوا ولا تغلوا[2] ولا تغدروا، ولا تمثلوا[3]، ولا تقتلوا وليدا.
- وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيَّتهُنَّ ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم:
- ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.
- ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما

---

(١) العينة: أن يبيع الشيء قبل أن يستوفيه، أو أن يبيع الصكوك، أو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل ثم يشتريها منه بأقل من الثمن عاجلا، وهذا كله منهى عنه.

(٢) تغلوا: تسرقوا.

(٣) تمثلوا: أى تشوهوا جثث الموتى من أعدائكم.

للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.

● فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين.

● فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكفَّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

● وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم ان تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

● وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا».

وبعـد:

فهذه المفردات السبعة التى ذكرت آنفا وهى الإيمان، والإسلام، والإحسان، والعدل، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله، والجهاد فى سبيل الله، هى مفهوم كلمة الدين وهى التفصيل الصحيح لدين الإسلام الخاتم الذى جاء به محمد ﷺ.

وتلك هى النقطة الأولى من هذا الفصل الثالث من الكتاب ونسأل الله العون فى باقيه.

٢ - بين الدين والعقل

وضح لنا فيما سلف مفهوم الدين عموما، ومفهوم الدين الإسلامى على وجه الخصوص.

ونود أن نوضح الآن أن هذا الدين الإسلامى أقام حضارة تميزت عن سائر الحضارات بأنها قامت على هذا الدين بفروعه التى ذكرنا، فشكل هذا الدين لُبَّها، وحدد أبعادها، وأوضح أهدافها فى هذه الحياة، وبذلك أصبحت متميزة متفردة بين الحضارات.

- وليس صحيحاً ما يدعيه بعض كتاب الغرب من مستشرقين وسواهم، ومن بعض الكتاب المسلمين الذين فتنوا بالغرب وكتابه، من أن الحضارة الإسلامية قد صيغت على شكل آخر من الحضارة اليونانية أو الرومية، أو أية حضارة قديمة سبقت الحضارة الإسلامية فى الوجود.

- وليس هذا بصحيح بأية حال؛ لأن الحضارة الإسلامية تقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وليس شىء من ذلك فى أى حضارة يونانية أورومية أو غيرهما.

- وليس ذلك بصحيح على أية حال كذلك لأن لُبّ الحضارة الإسلامية وجوهرها ومنبعها هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولم تكن تلك الحضارات على شىء من ذلك لأن القرآن الكريم لم يكن قد أنزل، ولا النبى ﷺ قد بعث.

- غير أن الإنصاف يقتضينا أن نقول: إن علوم المسلمين وآدابهم وفنونهم وصناعاتهم وبدائعهم وكثيرا من ألوان حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قد تأثرت بعلوم غيرهم وآدابهم وفنونهم، كما أثرت هى فيهم.

غير أن ذلك التأثر والتأثير جاء فى مظاهر الحضارة وقشرتها التى يراها المشاهد، أما الجوهر واللباب أو روح الحضارة الإسلامية نفسها، فكانت متميزة متفردة لم تتأثر بسواها، فضلا عن أن تحاكيها أو تكون صورة منها، كما يزعمون.

- فلقد تفردت الحضارة الإسلامية بأن جوهرها ولبها هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وبهما تميزت بأنها حضارة الإيمان بالله الواحد الأحد، وحضارة اتباع كل ما جاء به محمد ﷺ من منهج ونظام فى مختلف شعب الحياة، بحيث أصبح هذا المنهج عصمة

لهذه الحضارة من كل زيغ أو قصور، فضلا عن الضلال والضياع للإنسان في متاهات الحضارات الأخرى.

● هذا الإيمان الذى كان الطابع العام والسمة الغالبة للحضارة الإسلامية له خصائص نحب أن نذكر ببعضها فيما يلي:

- هذا الطابع الديني الإسلامي ميز الحضارة الإسلامية بالتصور الصحيح للحياة الدنيا نفسها فوزنها بميزانها الصحيح الذى أشار إليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

● فلم تتصور الحياة الدنيا على أنها هدف وغاية يلهث الناس وراءها ويعيشون من أجلها، ويستمتعون بكل ما فيها مما يصلح لإنسانيتهم وتكريم الله تعالى لهم، وإنما يقبلون على كل مُتْعَة فيها، دون أن يحكموا عقولهم فيشبهون الحيوان في أن حرموا أنفسهم من العقل، وإنما كان التصور الصحيح للحياة الدنيا أنها دار عمل واختبار ووسيلة لحياة أخرى أبدية دائمة.

ولم يهوّن هذا التصور من شأن الحياة الدنيا فيهملها، ويزهد في طيباتها أو يعزف عنها، أو يدعى أنه تقذر بما فيها؛ كما فعلت بعض الحضارات في الإقبال على متع الحياة الدنيا أو الإعراض عنها، وإنما وزنتها بميزانها الصحيح، الذى عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)** ﴾ [**الأعراف**: ٣١]، فهو تناول لمتع الحياة من غير إسراف. وفي قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾ [**الأعراف**: ٣٢، ٣٣].

- هذا الدين بتصوره الصحيح للحياة، جعل الحياة الدنيا وسيلة وسببا للحياة الآخرة، ونبع هذا التصور من القرآن الكريم، وكان في صالح الإنسان في معاشه ومعاده، نفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)** ﴾ [**الكهف**: ٤٥، ٤٦].

فالحياة الدنيا نضرة حلوة مثمرة ولكنها فانية موقوتة، كالزرع الذى تنبته الأرض بعد أن ينزل عليها الماء، ثم لا يلبث طويلا فيصبح يابسا مهشماً تذروه الرياح، وكذلك شأن ما فى الدنيا من مال وبنين ما هو إلا زينة موقوتة فانية.

أما الأعمال الصالحة من صنوف البر والخير فهى الباقية التى يجد الإنسان ثوابها عند الله تعالى، فهى الأنفع للإنسان فى دنياه، حيث حققت سعادة الإحساس بنفع الآخرين وسعادة ممارسة أعمال الخير والبر، فإن لذلك طعما لا يتذوقه إلا أهل الطاعة والالتزام بمنهج الله تعالى.

- والعاقل من الناس هو الذى يقبل على ما ينفعه، بل يبادر إلى عمل ما ينفعه، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا قليل».

● ونقصد بهذه النقطة من هذا الفصل توضيح موضوعين هما:

أ - لا تناقض بين الأديان التى جاءت من عند الله وبين العقل.

ب - ولا تناقض بين الإسلام والعقل.

أ - لا تناقض بين الأديان كلها والعقل

كل دين جاء من عند الله وظل صحيا لم يدخله تحريف ولا تبديل، لا يمكن أن يتناقض مع العقل، لأن الذى أنزل هذا هو الذى خلق ذاك وعرف ما يصلحه، تلك قضية لا ينازع فيها منصف، ولا ينكر حقيقتها إلا غافل أو مضلل.

● فقد يتصور بعض الغافلين محمد يسيئون الظن بالأديان جميعها لإلحادهم وفساد عقائدهم أن بين الأديان والعقل تناقضا موهمين أنفسهم وهمين:

الأول: أن الأديان خداع يمارسه رجال الدين للوصول من خلاله إلى أغراضهم الدنيوية.

والآخر: أنهم مفتونون بالعقل يرونه فوق كل اعتبار وفوق كل شيء وفوق كل نظام.

وهذا التصور فيه خطأ بل إمعان فى الخطأ وسوء التفكير، فمن المسلم به لدى العقلاء المنصفين المحايدين أن الأديان السماوية كلها من عند الله بدليل هؤلاء الرسل الذى أنزلت عليهم تلك الكتب ودعوتهم أقوامهم وحوارهم معهم وجدالهم، وبدليل أن بعض الناس قد آمن بهم، وبعض الناس قد كفر، وبدليل وجود هذه الكتب ورؤية الناس لها واستماعهم لما جاء فيها.

وكل تلك الأدلة على وجود الكتب السماوية حجج قاطعة عملية غير قابلة للإنكار إلا لمن كان معانداً ومكابراً.

وما دامت هذه الكتب من عند الله فمن المحال أن ينزلها الله للناس لتتحدَّى عقولهم أو تعطلها أو تتناقص معها، لأنه سبحانه هو الذى خلق الإنسان ومنحه نعمة العقل وكرمه بها وجعلها مناط التكليف، وليس من مصلحة الإنسان الذى كرمه ربه أن ينزل عليه كتاباً يتناقص مع عقله.

وكل دين من الأديان التى جاءت من عند الله من لدن نوح عليه السلام وإلى الخاتم محمد ﷺ إنما اعتمدت على العقل فى قضاياه كلها:

- العقيدة،
- والعبادة،

- والخلق،
- والتعامل مع الناس.

● فالعقل السليم المنصف البعيد عن تأثيرات المضللين، يستطيع إذا تأمل وتدبر ونظر فى نفس الإنسان وفيما حوله من مخلوقات أن يهتدى إلى عقيدة التوحيد، وأن هذا العالم لا يمكن أن يدبر أمره إلا إله واحد، إن العقل السوى ينادى من غير أن يخاطبه وحى بذلك، ينادى قائلا: إن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، ويقيم العقل الصحيح على ذلك الأدلة والبراهين، من قبل أن ينزل عليه كتاب.

- فإذا جاء الكتاب بذلك فهل يتناقض معه؟ اهتدى العقل إلى التوحيد وجاءه النبى ليقول له اعبد الله وحده، مالك من إله غيره، كما حكى القرآن الكريم على لسان عدد من الأنياء هم: نوح وهود وصالح وشعيب، كلهم قال: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**(١) (٥٩) ﴾ [**الأعراف**: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

● والعقل يهتدى إذا كان منصفا أن توحيد الله تعالى يقتضى عبادته بل يقتضى عبادة وفق ما جاء على لسان رسوله، والعبادة أقوال وأعمال، وصمت وترك، فإذا نظر العقل وتأمل فيما حوله فقد عبد الله بهذا التفكر، وإذا قال يا رب فقد عبد الله بهذا النداء، وإذا عمل الخير لنفسه وللناس فقد عبد الله.

- فإذا جاء الرسول عليه السلام ليقول له إن الله أمرك أن تعبده صامتا وذاكراً وعاملاً للخير وتاركا للشر، يقال: إن هذا يناقض العقل؟.

● والعقل هو الذى ينتقى الخلق الفاضل ويميزه عن الخلق الراذل فيتحلى بهذا لأنه أليق بإنسانيته ويتخلى عن ذاك لأنه لا يليق به، فيهتدى بنفسه - إذا تجرد من تأثير المضللين - إلى أن الصدق والعفة والشجاعة والأمانة أخلاق فاضلة، ويهتدى بنفسه إلى أن الكذب والجبن والخيانة رذائل.

- فإذا جاءه الرسول عليه السلام بتمجيد هذه الفضائل ونحوها ودعاه إلى التمسك بها، وجاءه بتقبيح هذه الرذائل ونحوها ودعاه إلى التخلى عنها، يقال إن الدين يتناقض مع العقل؟

---

(١) نوح: فى الآية: ٥٩، وهود فى الآية: ٦٥، وصالح فى الآية: ٧٣، وشعيب فى الآية: ٨٥.

● والعقل البعيد عن التأثر بالمضللين هو الذى يستطيع أن يعرف أسلوب التعامل مع الناس، فيعاملهم بما يجب أن يعاملوه به، فى بيعه وشرائه وتجارته وقرضه وديونه، وزرعه وحصاده، وكل ما يحتاج إليه فى حياته، يهتدى إلى ذلك كله بفطرته من منطق الحقوق والواجبات والتعامل بالمثل وتفضيل الإنصاف ورفع الظلم.

– فإذا جاءه الرسول عليه السلام بكتاب يقر هذا، ويدعو إليه ويجعله نظاما للتعامل مع الناس، يقال: إن ذلك مناقض للعقل.

● والأديان كلها من عند الله، وبخاصة الأديان التى أخبرنا عنها كتاب الله أو سنة رسوله الخاتم ﷺ.

– وعلامة أنها من عند الله ألا يكون فيها تناقض مع العقل أو اصطدام معه لأن ذلك صدام مع الحياة نفسها التى مَنّ الله بها على الإنسان!!!

– وعلامة أنها من عند الله ألا تتناقض بعضها مع بعض لأن مصدرها واحد وهو الله تعالى، فما وجد بين بعضها وبعض من تناقض فمرده إلى دخول التحريف والتبديل.

– ومن أقوى علامات وحدة الأديان وإجماعها على أن يعبد الله وحده لا شريك له، قول الله تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)** ﴾

[**الأنعام**: ٨٣ – ٨٩].

– فوحدة الأديان فى هذه الآيات نفسهم من كلمات: ﴿ **كلا هدينا** ﴾ أى هديناهم إلى دين الحق. ﴿ **وفضلنا على العالمين** ﴾ أى فضلناهم بما حملوا إلى الناس من دين الحق، ﴿ **وهديناهم إلى صراط مستقيم** ﴾ والصراط المستقيم هو دين الحق، ﴿ **آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة** ﴾ هى دين الحق.

فدين الحق مع كل نبى ورسول، وتلك هى وحدة الأديان التى جاءت من عند الله تبارك وتعالى.

- ومن علامات وحدة الأديان التى جاءت من عند الله أن الرسل جميعا عليهم الصلاة والسلام، جاءوا بالتبشير والإنذار، كما تقرر ذلك الآيات الكريمة: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)**﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

وروى البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

● وما ضلَّت عقول أقوام من أهل الكتاب عن هذه الحقائق إلا لأن كتبهم قد دخلها التحريف والتبديل، وحركت بعضهم إلى ذلك الأهواء وأعراض الحياة الدنيا.

ولو شئنا أن نلتمس أمثلة من التحريف الذى دخل على هذه الكتب لوجدنا شواهد عديدة، ولضاق بنا مجال هذه النقطة من الكتاب.

ولكن سوف نشير إلى بعض هذه التحريفات، محكمين فى ذلك العقل، محتجين باستحالة التضارب بين الأديان، واستحالة أن يحل الله الفواحش فى دين ويحرمها فى دين آخر؛ لأن الأخلاق ثوابت فى كل دين، فمن المحال أن يحل دين الزنا أو الكذب أو الخيانة مثلا، فكلما وجدنا نصا فى كتاب من تلك الكتب يبيح ما حرم الله، قطعنا بأنه دخله تحريف، وأنه على تلك الصورة ليس من عند الله.

● ومن أمثلة ذلك ما نذكره فيما يلى:

- جاء فى سفر التكوين من العهد القديم «التوراة» التى فى أيديهم اليوم ما يلى:

«وابتدأ نوح يكون فلاحًا، وغرس كرما، وشرب من الخمر فسكر، وتعرى داخل خبائه،

فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء، وسترا عورة أبيهما ووجههما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما.

فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال: ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته، وقال: مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدا لهم، ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام، وليكن كنعان عبدا لهم(١)».

– فكيف يشرب نوح الخمر؟ وهى محرمة لخبثها، وكيف يشربها حتى يسكر؟ وما هذا اللعن لحام أبى كنعان؟ وما تلك العبودية وهل هى جزاء عادل لمن رأى عورة أبيه السكران؟.

أليس فى ذلك تحريف وتبديل عما أنزل الله؟.

– وجاء فى سفر التكوين عن نبى الله لوط عليه السلام ما يلى:

«وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر، فسكن فى المغارة هو وابنتاه.

وقالت البكر(٢) للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقى أبانا خمرا ونضطجعُ معه، فنحيى من أبينا نسلا.

فسقتا أبا هما خمرا فى تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت، مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها.

وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى، نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلى فاضطجعى معه، فنحيى من أبينا نسلا.

فسقتا أبا هما خمرا فى تلك الليلة أيضا، وقامت الصغيرة، واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها.

فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه: موآب، وهو أبو الموآبيين

---

(١) الإصحاح التاسع: من ٢٠ – ٢٧. ط ١٩٦٢م – القاهرة.
(٢) البكر هنا تعنى الأكبر سنًا.

إلى اليوم. والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه: بن عمى وهو أبو بنى عمون إلى اليوم[1]».

– فكيف تتفق ابنتاه على أن تسقياه خمرا؟ وكيف تبيحان لنفسيهما مضاجعة أبيهما النبى؟ أيمكن أن يكون هذا من عند الله الذى حرم الخمر والزنا؟.

● وأمثال هذه القصص فى التوراة كثير، وكلها تصف الرسل عليهم السلام بما لا يليق وما لا يجوز!!!

وبعض هذه القصص تصف الله تبارك وتعالى بما لا يجوز فى حقه، لأنها تصفه بصفات البشر، وكل ذلك يؤكد أن هذه الكتب دخلها التحريف بما اشتملت عليه من هذا الفحش الذى لا يمكن أن يصدر عن الله تعالى، لا يمكن أن يقبله العقل.

● فقد اشتمل العهد القديم على صفات لا تليق بأنبياء الله تعالى؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب وداود وغيرهم[2].

(١) الإصحاح التاسع عشر: ٣٠ – ٣٨. المرجع السابق.

(٢) وردت هذه الصفات التى لا تليق بالله تعالى فى الإصحاحات الخامس والعشرين، والسابع والعشرين من سفر التكوين، وفى الإصحاح الحادى عشر فى كتاب صمويل.

ب - ولا تناقض بين دين الإسلام والعقل

هذا الدين الإسلامى الخاتم، يعبر عنه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أصدق تعبير وأدقه، فهما مصدراه الرئيسان، وما وراء الكتاب والسنة فى التعبير عن الإسلام هو فروع وتفصيل واجتهاد فى فهم هذين المصدرين.

وقد قلنا آنفا إن الإسلام والعقل لا يتناقضان لأن الإسلام من عند الله، والعقل خلْقه ونعمة منه على الإنسان، ولا يمكن أن يتناقض هذا مع ذلك.

وسوف نفصل القول فى أن القرآن الكريم والسنة النبوية لا يتناقضان مع العقل بحال.

أما هنا فنحب أن نؤكد أن فروع الكتاب والسنة من قياس واجتهاد ومصالح مرسلة وسد للذرائع لا يمكن كذلك أن تتناقض مع العقل، لأنها جميعا نشاط عقلى وتفكير، يستهدى صاحبه فيه بالنظر والتأمل والتدبر، ومن الصعب والعسير أن تكون هذه الفروع وهى من نتاج العقل متناقضة مع العقل.

موافقة الإسلام للعقل فى كبريات القضايا

- وكل ما جاء فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية المطهرة يقبله العقل، ولا يختلف معه فى شيء، فضلا عن أن يتناقض معه، وقد جاء فى الكتاب والسنة ما يوافق العقل فى القضايا الكبرى فى عالم الإنسان وهى قضايا:

١ - الألوهية،

٢ - والنبوة،

٣ - والإنسان،

٤ - والشيطان،

٥ - واليوم الآخر.

مما سنوضحه ونبين مدى اتفاقه مع العقل، وعدم وقوع تناقض بينه وبين العقل، فى الصفحات التالية والله المستعان.

أولا: قضية الألوهية:

العقيدة فى الله تبارك وتعالى هى رأس العقائد الدينية كلها، وإذا صحت العقيدة فى الله تبارك وتعالى عند قوم صح لهم من العقل المستنير المستقيم ما به تستنير حياتهم فى الدنيا والآخرة.

- ومنذ أزمان سحيقة البعد يتناظر أصحاب العقول فى صفات الله وأفعاله، مع أصحاب الأديان، ولم يصل فريق منهم إلى القول الفصل فى هذه القضية حتى جاء هذا الدين الخاتم على يد محمد ﷺ.

- جاء الإسلام بأسمى عقيدة فى الإله الواحد الأحد، بحيث صحح بها فكرة الفلسفة النظرية، كما صحح فكرة العقائد الدينية التى سبقت ظهور الإسلام، فكشف بهذا التصحيح عن النقص الذى كان سائدا عند هؤلاء وأولئك، فكان بذلك من أقوى الأدلة فى حكم العقل على أنه من عند الله.

- فليس أرسطو وتنزيهه لصفات الله وقوله فى الإله إنه كائن أزلى أبدى، مطلق الكمال لا أول له ولا آخر، بصحيح لأن تكملة مذهبه تفسد أساسه حيث قال إن الإله بهذه الصفات لا عمل له ولا إرادة!!

- وليس أفلاطون على صواب فى إنكاره صفة الوحدانية، على الرغم من إثباته صفة الأحدية للإله، حيث يقول: إن الواحد غير الأحد، لأن الواحد قد يدخل فى عداد الاثنين والثلاثة، ولا يكون الأحد إلا مفردا بغير تكرار!!!

كما ينفى عن الإله صفة الوجود تنزيها له عن الصفة التى يقابلها العدم وتشترك فيها الموجودات!!!

- لقد أشار القرآن الكريم بما ذكر من صفات لله تعالى إلى ردود على كثير من هذه الآراء فى الآلهة التى نادى بها الفلاسفة وعلى كثير من الآراء التى نادى بها أصحاب التأويل فى الأديان الكتابية وغير الكتابية.

- كما أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة، بل إلى أصحاب النحل والأهواء، مما يوضح أن البشرية بحاجة إلى القول الفصل فى ذات الله تعالى وصفاته.

- أشار إلى الخلاف بين أصحاب الأديان، فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾ [الحج: ١٧].

وفى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وفى الآية إشارة إلى الدهريين وما قالوا به، إذ نسبوا الموت والحياة لا إلى الله تعالى بل إلى الدهر.

● فالإسلام أوضح ما لله تعالى من ذات وصفات وأفعال، فصحح فى هذه العقيدة الضمائر كما صحح العقول، فى تقرير ما ينبغى لله تعالى من كمال بميزان الإيمان وبميزان العقل.

ومعنى ذلك أن عقل الإنسان وفكره من وسائل الوصول إلى معرفة الله تعالى فى الإسلام.

● والآيات الكريمة التالية توضح ما لله تعالى من ذات وصفات وأفعال، قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) ﴾ [آل عمران: ٢].

وقال جل شأنه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (٨٨) ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس: ٦١].

وخلاصة ما جاء به الإسلام فى قضية الألوهية: أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات.

أفى هذا تناقض مع العقل؟

ثانيا : قضية النبوة :

وهى القضية التالية لقضية الألوهية، لأن الأنبياء والمرسلين هم الذين يبلغون عن الله تعالى ما أوحاه إليهم وما كلفهم به.

وكما اضطربت البشرية فى تصور الله تعالى ومعرفته، كذلك فعلت وهى تتحدث عن النبوة.

● فقد كانت فكرة النبوة مليئة بالشوائب، بل الخرافات والبعد عن الحق، لَدَى أتباع الديانات الوثنية والديانات الكتابية على السواء، فاختلطت لديهم النبوة بما ليس منها بحال مثل :

- السحر،
- والكهانة،
- والجنون المقدس، أو الجذب،
- والخرافة،
- والغرائب والأعاجيب،
- والرؤى والأحلام،
- والتنجيم أو طوالع الأفلاك.

● فنبوءة السحر تعنى أن النبى عندهم مُوكَّل بالأرواح الخبيثة يسخرها لمعرفة المجهول حينا، أو للسيطرة على الأحداث والأشياء حينا آخر، والسحر له من المظاهر ما يخدع الناس فيرون فى السحر نبوة، ويحسبون الساحر نبيا.

● ونبوءة الكهانة تعنى لديهم أن النبى مُوكَّل بالأرباب التى تلبى دعوات النبى وتستجيب لصلواته وكلماته المنمقة لتفتح المغاليق إلى المجهول فى منام النبى وأحيانا فى يقظته، وترشده وتوجهه بالعلامات والأحلام، كلما أكثر الصلوات والعزائم.

● ونبوءة الجذب أو الجنون المقدس تعنى لديهم أن النبى هو مَنْ ينطلق لسانه بالعبارات المبهمة دون أن يعنيها، وربما دون أن يعيها، وغالبا ما كان لهذا النبى المنجذب تابع يفسر رموزه وإشاراته، وما يهتدى به من كلمات، فيتكلم هذا التابع بالنيابة عن النبى.

● ونبوءة الخرافة والغرائب والرؤى والتنجيم يقرب بعضها من بعض، وهى لديهم تعنى أن النبى هو الرائى أو الناظر أو رجل الله الذى يستقرئ النجوم ويستنبئ الوهم والخرافة، وتقاس نبوته أو تختبر بصدق اطلاعه على المغيبات، ومدى قدرته على استنباء النجوم والبروج والأفلاك.

● ولبنى إسرائيل -على وجه الخصوص- فى النبوة والأنبياء فهم لا يختلف كثيرا عن فهم الوثنيين من أرباب الديانات، فهم يربطون بين النبوة وصناعة التنجيم، أو صناعة الفراسة المنذرة بالكوارث المتوقعة، والنبى عندهم يحل محل العرّاف والساحر ومن ينمق الرُّقية ينقل بها كلمات الآلهة(١).

● فلما جاء الإسلام بالنبوة جاء بها مبرأة من السحر والكهانة والجنون المقدس وغير ذلك مما ذكرنا، نبوة يعلن فيها محمد ﷺ تفنيده للسحر والكهانة، حتى ينهى عن كلام ينمق على نحو ما كان ينمق الكهان، ويزرى بالجنون المقدس أو الجذب، ويدعو إلى استعمال العقل فى قبول الهداية بالنظر والتأمل والتبصر، فجاءت نبوة مصححة لما كان عليه الناس من فكرة عن النبوة.

● ولأن النبوة فيما مضى كانت مرتبطة عند الوثنيين وأهل الكتاب بالغيبيات، وقدرة النبى على معرفة الغيب، فقد جاءت آيات القرآن الكريم تسند الغيب وعلمه لله تبارك وتعالى وحده، ويعلن النبى ﷺ أنه لا يعلم الغيب.

– قال الله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)** ﴾

[الأعراف: ١٨٨].

– وقال جل شأنه: ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)** ﴾ **[الأنعام: ٥٠]**.

---

(١) ورد ما يدل على هذا الفهم للنبوة عند بنى إسرائيل فى العهد القديم اكثر من مرة فى اكثر من سفر، وانظر على سبيل المثال:
– سفر التثنية، الإصحاح الثامن عشر من ١٥ – ٢١.
– سفر صموئيل كله.
– سفر الملوك الأول كله.

- وقال عز وجل: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) ﴾ [يونس: ٢٠].

- ولقد كان رسول الله ﷺ تحدث من أجله المعجزات فيصدقها الناس أو لا يصدقونها، وهى معجزات من خوارق ما اعتاده الناس وهى كثيرة، ولكن الرسول ﷺ رفض من المؤمنين أن يصدقوا بأمر خارق للعادة حدث يوم مات ولده إبراهيم عليه السلام إذ انكسفت الشمس فقال بعض الناس إنها انكسفت لموت إبراهيم واعتبروها إحدى معجزاته ﷺ، فأبى رسول الله ﷺ أن يوافقهم على ذلك -وكان غيره ممن يدعون النبوة يرون فى مثل هذا الحادث فرصة- فنفى ﷺ أن تكون الشمس قد كسفت لموت ولده إبراهيم عليه السلام.

فقد روى الإمام مالك والإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى بأسانيدهم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا، وصلوا وتصدقوا...».

إن النبى ﷺ بهذه الكلمات يعلن أن الخوارق والمعجزات ليست بإمكان أحد، إلا أن يأذن له الله، وأن هذه الخوارق والمعجزات لا تنفع أحداً لا ينتفع بعقله ولا يتفكر فيما يسمع.

- تلك قضية النبوة كما جاءت فى الإسلام مبرأة من كل عيب لحق بها فى ماضى البشرية بين أهل الأديان وغيرهم.

ثالثًا: قضية الإنسان

وتلك ثالث قضية من القضايا الكبرى التى شغلت الإنسانية طويلا، فتخبط فيها الفلاسفة وأهل الأديان، حتى جاء الإسلام فأعطى الصورة الصحيحة الصادقة عن الإنسان.

- فالفلاسفة نظروا إلى مزايا الإنسان العقلية فقالوا الإنسان حيوان ناطق، كأنهم لم يروا فى الإنسان إلا النطق الذى ميزه على الحيوان، والنطق قدرة عقلية، وتجاهلوا أن الإنسان جسم ومطالب لهذا الجسم، ونسوا أنه روح وأن لهذه الروح مطالب!!!

- وعلماء الاجتماع، والباحثون فى العلاقات الاجتماعية للإنسان قالوا: الإنسان حيوان اجتماعى أو مدنى بالطبع، وكأنهم غفلوا عن سائر خصائص الإنسان من روح وعقل وجسد، فلم يولوها من الأهمية ما يكشف عن حقيقة هذا الإنسان، وإنما بدا لهم أنه حيوان اجتماعى أو مدنى فحسب!!!

● وبعض أهل الأديان السابقة على الإسلام قالوا: إن الإنسان روح علوى هبط من السماء إلى الأرض، يشيرون بذلك إلى قصة الخطيئة التى وقع فيها آدم حين أكل من الشجرة بغواية الشيطان فاهبط إلى الأرض، متجاهلين طبيعة الإنسان وأنه لا يمكن أن يتغير من طبيعة علوية فى السماء إلى طبيعة دون تلك الطبيعة وأخسّ منها بسبب تلك الخطيئة!!!

● وبعض علماء الأحياء قالوا: إن الإنسان حيوان ترقى حتى وصل إلى ما هو عليه، فهو متطور عن مرحلة كان عليها من قبل، متجاهلين كثيرا من الخصائص والحقائق التى تتصل بالإنسان!!! وهؤلاء يجعلون تعريفهم للإنسان بأنه حيوان راقٍ، إنما يقصدون الردّ على أولئك الذين قالوا: إن الإنسان روح علوى -أى ملك- سقط من السماء إلى الأرض.

● فلما جاء الإسلام عرف الإنسان التعريف الصحيح ووزنه ووزن أفعاله بالميزان الصحيح، وتضافرت آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ على تعريف الإنسان بأنه مخلوق مكلف حمل الأمانة، وهو بهذه الأمانة والالتزام بتكاليفها يستطيع أن يرتفع إلى أعلى، وبعدم الالتزام بها يمكن أن يهبط إلى أسفل السافلين، وأن ذلك هو الميزان الصحيح الذى يوزن به الإنسان.

● وقرر الإنسان أن هذا التكليف يقوم على دعامتين:

الأولى: حرية التفكير والاختيار.

والأخرى: التبعة والمسئولية عن كل ما يفعل.

● فهذه الأمانة -وهى التكاليف الشرعية- نص عليها قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ** ..... (٧٢)﴾ [الأحزاب: ٧٢].

- كلف الله الإنسان بتكاليف الشرع -وهى معروفة- وأعطاه الحرية فى أن يفكر وينظر ويتأمل ليؤمن عن بينة أو يكفر عن بينة، فقال الله تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** .... (٢٩)﴾ [الكهف: ٢٩].

- وأعطى للإنسان هذه الحرية فى الاختيار فى الوقت الذى علمه أنه مسئول عن نفسه أمام الله وأمام نفسه وأمام غيره، سواء فى حال إيمانه أو حال كفره، فقال الله تعالى: ﴿**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** (١٤)﴾ [القيامة: ١٤].

- ولا يمكن أن يحمل إنسان وزر إنسان آخر، قال الله تعالى: ﴿ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [فاطر: ١٨]، وقال جل شأنه: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء: ١٥].

- وهذا الإنسان المكلف المسئول مطلوب منه أن يتعلم وفيه قابلية العلم، لأن الله منحه هذا العقل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال جل شأنه: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق: ٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: ٣، ٤].

وهذا العلم الذى استعد له الإنسان وكان بعقله قادرا عليه هو فى الحقيقة العقل وهو مناط التكليف، وهو مآل التبعة وتحمل المسئولية.

- هذه هى صورة الإنسان كما جاء بها الإسلام، وهذا هو الميزان الصحيح لأعمال الإنسان وهو تحمل التبعة مع حرية واختيار.

رابعا: قضية الشيطان

عرف الإنسان الخير والشر، وعرف أن الشر يضره، وأن هناك ارتباطا بين الشر والضرر وبين جرى الإنسان وراء شهواته، لأن مخالفة الشهوات خير فى كثير من الأحيان، ولذلك كان راضيا عن كبحه لشهواته لعلمه بأن ذلك يجعله على نهج الصلاح.

- وقد بدأ الإنسان -منذ أقدم العصور- يخطو فى طريق معرفة الخير والشر، فلا يفهم إلا الضرر فى جسده وفى مطالب جسده من طعام وشراب وراحة وأمن- ولكنه لا يفهم الشر ولا يدريه، وكان يرى أن الأرواح الضارة تلاحقه بالأذى والإساءة ما لم يتوسل إلى مرضاتها بوسائل الشفاعة والضراعة أو بتقديم القرابين.

- ثم أدرك بعد ردح طويل من الزمان التمييز بين الضرر الذى يجوز والضرر الذى لا يجوز، وهداه إلى ذلك ارتباطه بالعهود والمواثيق بين عشرائه وحلفائه وأربابه، فالضرر الذى يلحق بهذه العهود والمواثيق لا يجوز، وما كان من الضرر غير جائز فهو شر، ثم أدرك التمييز بين الخير والشر.

- ثم كانت عقيدة الهنود وهى قائمة على أن المادة كلها شر أصيل ولا خلاص منه إلا

بالخلاص من الجسد، وكان الشر عندهم مرادفا للهدم والفساد يتولاه الإله فى صورة من صوره الثلاث:

صورة الخالق، وصورة الحافظ، وصورة الهادم بيديه ما بناه وما حفظه فى صورتيه الأُخْرَيين.

- ثم كانت عقيدة المجوس من أهل فارس، وخلاصتها أن الشر كله من عند إله الظلام، وأن الخير من عند إله النور، وأن صراعا يدور بين هذين الإلهين تكون الغلبة فيه لإله النور.

- ثم كانت عقيدة فراعنة مصر القديمة، وهى أن الإله «سيد» شرير مع أعدائه ومخالفيه، وربما كان منه الخير لأتباعه ومؤيديه، ولم يكن خلاص الروح عندهم منفصلا عن خلاص الجسد، ولا العالم الآخر عندهم مخلوقا على مثال أرفع من مثال الحياة فى وادى النيل.

- وفى الديانة العبرية لم تتميز عندهم قوة الخير عن قوة الشر بفاصل حاسم، فكان الشر عندهم أحيانا يكون من عمل الشيطان وأحيانا من عمل الحيّة.

وكانوا ينسبون العمل الواحد مرة إلى معبودهم «يهوا» ومرة إلى الشيطان، فجاء فى كتاب صموئيل الثانى أن الرب غضب على إسرائيل فأهاج عليهم الملك داود وأمره بإحصائهم وإحصاء يهوذا معهم. والشيطان عندهم يستعين بالأرواح الشريرة التى على شاكلته.

- وفى المسيحية حدث انفصال بين الصفات الإلهية والصفات الشيطانية، وأصبح للإله عمل وللشيطان عمل.

- وسمى الشيطان فى الأناجيل باسم: رئيس هذا العالم الذى له مملكة الدنيا، فى حين لله ملكوت السموات.

- ولولا هذا الشيطان عندهم ما وقعت الخطيئة ولا سقط الجنس البشرى، ولا وجبت كفارة الفداء.

- هذه لمحات سريعة عن قضية الشيطان فى تاريخ البشرية الوثنية والمتدينة، قبل ظهور الإسلام.

- وعندما جاء الإسلام حسم أبعاد هذه القضية، فقرر فيها الحقائق التالية:

– أن الشيطان هو قوة الشر دون أدنى شك فى ذلك.

- وأنه لا سلطان له على ضمير الإنسان ومعتقده، ما لم يستسلم الإنسان للشيطان برغبة منه، أو بسبب ضعفه عن مقاومة وسوسته وهمزه.

- وأنه لا يستطيع أن يضر أحدا بسحره،

- وأنه لا يستطيع أن يطلع على الغيب أو ينفذ إلى أسرار العالم المغيب عنه.

- وأن الإنسان الذى اتبع الشيطان فيما وسوس به أخطأ فى حق نفسه إذ ظلمها باتباع الشيطان.

بكل ذلك وردت آيات قرآنية كريمة نذكر منها ما يلى:

١ - قال الله تعالى مخاطبا ذلك الشيطان: ﴿ **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)** ﴾ [الحجر: ٤١، ٤٢].

٢ - وقال جل شأنه مما سجل اعتراف الشيطان نفسه بأنه لا سلطان له على عباد الله: ﴿ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .... (٢٢)** ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٣ - وقال عز وجل: ﴿ **وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ... (١٠٢)** ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وهذه الآية الكريمة تنفى ضرر الشياطين بالناس عن طريق السحر.

● هكذا فصل الإسلام فى قضية الشيطان أو قوى الشر بما لم يعد فى حاجة إلى مزيد.

خامسا: قضية اليوم الآخر

هذه القضية من كبريات القضايا التى يترتب عليها عند التأمل فيها والتدبر فى عواقبها، ومصير الإنسان فى اليوم الآخر، يترتب على ذلك أن يفيق عقل الإنسان من غفلته أو غفوته أو ضلاله فيؤمن مشتريا اليوم الآخر بأى ثمن، لأن هذا اليوم الآخر هو الحياة الدائمة.

● وقضية اليوم الآخر تعنى بعث الناس بعد موتهم وحسابهم وإثابتهم أو عقابهم فى تلك الحياة الأخرى الأبدية.

وقد اعترف بهذه الحياة الأخرى -قبل الأديان- بعض الفلاسفة ومنهم: «أفلاطون» قديما، و «عما نويل كانت» فى العصر الحديث.

– أما أفلاطون ففى مذهبه أن النفس الإنسانية جوهر بسيط غير قابل للتجزئة ولا الانحلال، وهى قوام الحياة، وما هو حياة لا يمكن أن يستحيل إلى « لا حياة » أى عدم.

غير أن النفس تتلبس بالجسم –المادة– فى تدرج نحو الترقى والتطهير، ثم تخلص من المادة طورا بعد طور – لتعود إلى الحرية والصفاء كما كانت قبل أن تتلبس بالجسم.

– وأما « كانت » فيرى أن بقاء النفس مرتبط بموقفه من: « القانون الأخلاقى » الذى تدين به فطرة الإنسان، وهذا القانون الأخلاقى يدل على إرادة إلهية فوق إرادة الآحاد والجماعات، إذ الإنسان مفطور على أن يفهم الواجب، وأن يفهم أن هذا الواجب هو العمل الذى يصلح لأن يقتدى به. وأن هذا الواجب ينبغى أن يطلب من جميع الناس.

ذاك هو القانون الأخلاقى عند « كانت » وليس من المعقول أن يغرس هذا القانون فى النفس، ثم يشقى من يدين به، ويسعد من يطرحه وينبذه!!!

فالحكمة التى غرست هذا القانون فى الطباع خليقة بأن ترد الأمر إلى نصابه فى حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، لأن الجزاء العادل على الالتزام بهذا القانون الأخلاقى أو نبذه لا يتم فى هذه الحياة الدنيا.

● ولقد رأى غيرهما من الفلاسفة قديمًا وحديثا مثل رأيهما، مما يوضح أن النظر فى مسألة الحياة بعد الموت –اليوم الآخر– ليس بالضرورة أن تكون مسألة اعتقاد وإيمان فحسب، وإنما هى مسألة بحث ونظر وتفكير.

● فالعقل إذن لا يخرج قضية اليوم الآخر من دائرة بحثه، وقد استطاع أن يستدل على أن اليوم الآخر حقيقة لا ينكرها العقلاء.

● وقد جعل الإسلام الحياة الآخرة وما فيها حقيقة اعتقادية لا حقيقة عقلية، وهى بهذا الوصف لابد أن تمتزج بتصور المؤمنين بها، والسبب فى ذلك أن هذه الحقيقة الاعتقادية يخاطب بها العارف والجاهل، والذكى والغبى، وكبير النفس ووضيعها، ومن يطلب الكمال، ومن لا يعرف إلى الكمال طريقا؛ ولهذا كان توضيح هذه الحقيقة الاعتقادية بالمحسوسات فى كثير من الأحوال.

● ومن أجل هذا كان لابد من أن يروض فكره كل من ينظر أو يلتمس فى القرآن شيئا عن الحياة الأخرى. فالقرآن الكريم يفرض عقيدة البعث واليوم الآخر فرضا، إذ يجعلها جزءا من

الإيمان؛ فلا إيمان إلا بها، كما يجعل الإيمان بالثواب والعقاب والنعيم والعذاب أصلا من الأصول الدينية التى لا يكون إيمان إلا بها، على أن يكون النعيم فى الجنة والعذاب فى النار أو جهنم، وهذا أيضا مما يجب الإيمان به.

● ومن أجل هذا جاء وصف الجنة والنار فى القرآن الكريم بأوصاف يفهمها كل مخاطب من هؤلاء المخاطبين المتفاوتين فى عقولهم وأفهامهم، ومن تلك الأوصاف المحسة فى وصف الجنة قول الله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦)** ﴾

[**الواقعة**: ١١ – ٢٦].

وجاء فى وصف النار بأوصاف محسَّة قوله تعالى: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣)** ﴾ [**الفرقان**: ١١ – ١٣].

● غير أن هذه الأوصاف المحسوسة ليست تعنى أنها هكذا كما نعهد من أوصافنا فى الحياة الدنيا، وإنما هى جنة ونار موصوفة بأوصاف غير التى نعهدها فى حياتنا الدنيا، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)** ﴾ [**السجدة**: ١٧].

● على أن كثيرا من الناس قد أنكروا الحياة الآخرة إنكاراً، وقد حكى القرآن الكريم إنكارهم هذا فى قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٠)** ﴾ [**السجدة**: ١٠].

● وقال جل شأنه فيهم أيضا: ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)** ﴾ [**الإسراء**: ٤٩].

وغير ذلك من الآيات الكريمة[1].

---

(١) الآية: ٣ من سورة ق، والآية ٧٨ من سورة: يس.

● وللقرآن الكريم أسلوب فى الاستدلال على إمكان البعث، يمكن أن نشير إلى خطواته فيما يلى:

أولا: يدعو الناس إلى أن يشاهدوا ما فى الآفاق وما فى أنفسهم من آيات الله، لتعمل عقولهم وتنشط ألوان تفكيرهم، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** (٥٣) ﴾ [**فصلت**: ٥٣].

ثانيا: دعوتهم إلى الفكر والتأمل فيما هو أكثر بداهة وجلاء من موضوع البعث، لينشط العقل ويقيس أمراً بأمر فيهتدى، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** (٢) ﴾ [**الرعد**: ٢].

فمن تأمل وفكر فى خلق السموات ورفعها بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر على هذا النحو، يجد فى ذلك ما يقنعه بإمكان البعث.

وكل تلك المخلوقات فى عالم بعيد عنا، ومع ذلك طالبنا بالتأمل فيه، لنهتدى إلى أن البعث ممكن.

ثالثا: دعوة الناس إلى التفكير والتدبر فيما هو قريب منهم وهو الأرض وما فيها من آيات تدل على قدرته سبحانه وتعالى عسى أن يهديهم إلى إمكان البعث، يفهم ذلك من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٣٩) ﴾

[**فصلت**: ٣٩].

رابعا: دعوتنا إلى التفكير فيما وضع سبحانه فى أنفسنا من آيات وآثار تدل على قدرته ورحمته، لنستدل بها على إمكان البعث، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ** (٣٧) **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ** (٣٨) **فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ** (٣٩) **أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ** (٤٠) ﴾ [**القيامة**: ٣٧ - ٤٠].

خامسا: يعرض علينا دليلا قاطعا يتوجه إلى عقولنا مباشرة، فحواه أن إخراج الأشياء من

العدم إلى عالم الوجود أصعب من إعادتها مرة أخرى بعد افتراقها وانتشار أجزائها، ومن قدر على الأصعب كان أقدر على الأسهل، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)** ﴾ [العنكبوت: ١٩].

- ولابد للإنسان من الإيمان باليوم الآخر، لأن ذلك الإيمان هو الذى يرغب العقل فى أعمال الخير والصلاح، ويرهبه من العقوبة اليقينية على أعمال الشر والفساد، وكل من هذا وذاك لا يحتاج إلى سلطة تلزم به، بقدر ما يحتاج إلى ضمير يقظ يحببه فى الفضائل ويجنبه الرذائل والمنكرات، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ (٢٢٣)** ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فطالبهم بالتقوى لأنهم سوف يبعثون ويحاسبون أمام الله ويجازون على الخير خيرا وعلى الشر بمثله.

وبعد فهذه كبريات القضايا التى فكرت فيها عقول السابقين جاء فيها الإسلام بما لا يمكن أن يرفضه عقل عاقل من الناس، فهل يقال بعد ذلك: إن الإسلام يتناقض مع العقل؟

٣ - الاجتهاد فى الدين، والعقل

هذه هى النقطة الثالثة من هذا الفصل من الكتاب «بين الدين والعقل» وهى آخر نقطة فى هذا الفصل، سوف نؤكد فيها أن الدين الإسلامى يتيح للعقل أكبر قدر من الحرية فى الفكر والتدبر والنظر؛ لندحض به دعوى من يدّعون أن الإسلام يحجر على العقل وعلى حريته فى الفكر والتدبر والنظر، ندحضها من جانب؛ للرد على هؤلاء الزاعمين الذين يفترون على الإسلام الكذب، ومن جانب آخر نقول: كيف يحجر على العقل من يسمح له بالتفكير والاجتهاد؛ فى أمور الدين نفسها؟

● إن من أقوى الأدلة على احترام العقل واحترام حريته فى الإسلام، أن جاء التشريع فيه على هذا النحو الذى يتيح للعقل أن يجتهد فى كثير من الأحكام التى اهتدى إليها بنفسه لتصبح من الأحكام الشرعية التى يلتزم بها الناس، وهى لم ينزل فيها قرآن كريم ولا ذكرتها أحاديث نبوية شريفة!!!

أفبعد هذا يصح أن يقال: إن الإسلام حجر على حرية العقل؟

● إن من بين مسائل الاجتهاد التى أتاحها الإسلام للعقل حقه فى أن يفسر آيات القرآن الكريم، ويرى فيها من المعانى والدلالات ما لا يراه مفكر آخر تدبر فى آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة!!!

وكل ما هو مطلوب من هذا الذى يجتهد فى تفسير النصوص الإسلامية أن يكون أهلاً لهذا الاجتهاد، أى مستوفيا لشروطه فى هذا المجال، وهى شروط أقل من شروط المجتهد بصفة عامة.

● إن من يجتهد فى تفسير النصوص الإسلامية عليه أن يكون عالما بقواعد اللغة العربية -لغة هذه النصوص- كعلوم النحو والصرف وفقه اللغة، وعلوم البلاغة العربية من معانى وبيان وبديع، وأن يكون ملما بعلوم القرآن الكريم، وعلوم السنة النبوية المطهرة، فمن كان على هذا القدر من العلم كان له أن يجتهد فى تفسير تلك النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة.

– وليس تفسير هذه النصوص محظورا على أحد ما دام يملك هذه القدرات التى تحدثنا عنها آنفا.

– وليس تفسير هذه النصوص سراً يتناقله كابر عن كابر، أو جيل عن جيل، أو إمام أو نائب عن إمام.

– وليس تفسير هذه النصوص كهنوتا يختص به بعض الكهان، لأنه لا كهانة فى الإسلام.

- إن الدين الذى أعطى للعقل الحق فى أن يجتهد فى تفسير نصوصه دين يقوم على حرية التفكير، واحترام العقل الذى يفكر.
- على أن الإسلام لم يكتف بإعطاء العقل هذا الحق وحده، وإنما فتح الباب أمامه على مصراعيه ليجتهد فى كل أمر من الأمور التى لم يرد فيها نص من الكتاب والسنة، وهذه النقطة هى ما نحاول توضيحه فى هذه الصفحات، والله المستعان.
- وحديثنا فيها يشتمل على نقطتين:

إحداهما: معنى الاجتهاد فى الدين،

والأخرى: عمل العقل فى هذا الاجتهاد.

ونسأل الله التوفيق

أ - معنى الاجتهاد فى الدين

الاجتهاد عموما هو: بذل ما فى الوسع فى أمر من الأمور، وهو عمل عقلى يقوم على التفكير والتدبر والنظر.

- وكل مسلم مطالب بأن يفكر ويتدبر وينظر فى مجالات ثلاث:

- فى نفسه وفيما يحيط به من الناس والأشياء،

- وفى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة،

- وفى سِيرَ الأولين.

- أما الاجتهاد فى الدين فمعناه بذل الجهد فى استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- وهذا الاجتهاد فى الدين عمل عقلى يقوم على التفكير والتدبر والنظر، وهو عمل مطلوب من كل مسلم من أهل العلم والقدرة على ممارسة هذا الاجتهاد، ليزداد اقتناعا بالحق الذى جاء به الإسلام ويصفى إيمانه من التقليد وشوائبه؛ لأن التقليد مرفوض فى أمور الدين. وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك آنفاً.

- غير أن لهذا التقليد دعاته، وهم أصناف منهم:

- الراغبون فى استغلال الناس أو استغفالهم،

- والباطنية والإسماعيلية القائلون بالإيمان بإمام مستور تجب مبايعته جهراً، أو سراً إذا اقتضت «التَّقِيِّة» إخفاء أمره إلى حين.

- وهؤلاء القائلون بالتقليد، يدعون إلى تعطيل العقل، ولهم فى ذلك مقوله شائعة هى: أن نصوص القرآن الكريم لها ظاهر وباطن، وأن علم الباطن من هذه النصوص لا يعرفه إلا الإمام الملهم، وأن على الناس أن يقلدوا هذا الإمام ويأخذوا عنه؛ لأنهم لا يستطيعون فهم هذا الباطن للنصوص ولا يقدرون على التفكير فيه، فضلا عن معرفته والعمل به!

- ومن الواضح أن القائلين بذلك على خطأ كبير؛ لأكثر من سبب، ومن هذه الأسباب فى خطئهم:

– أن القرآن الكريم ليس فيه باطن يخفى على قوم ويظهر لغيرهم، فقد خاطب الله به الناس جميعا ولم يخص به عالما أو إماما، ويسَّره الله تعالى للذكر على كل من ينظر فيه.

– وأن هؤلاء الداعين إلى التقليد يعطلون العقل ويعوقون التفكير، والتفكير وظيفة أساسية للعقل، ليس من حق أحد أن يحرمه منها.

– وأنهم يتناقضون مع ما تدعو إليه الآية الكريمة: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** (٢٤) ﴾ [محمد: ٢٤].

● وقد تصدى للرد على دعاة التقليد ودعاة الباطن، علماء أجلاء كثيرون من الغيورين على الحق منهم:

– داود بن سليمان الظاهرى (٢٠١ – ٢٧٠هـ).

– وعلى بن أحمد بن حزم الأندلسى (٣٨٤ – ٤٥٦هـ).

● ومن كلمات ابن حزم فى الرد عليهم قوله مخاطباً لهم: «واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه، وجهر لاسر تحته، كله برهان لا مشاحة فيه.

واتهموا (١) كل من يدعو إلى أن يتبع بلا برهان، وكل من ادعى للديانة سراً وباطنا؛ فهى دعاوى، ومخارق(٢).

واعلموا أن رسول الله ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر أو الأسود أو رعاة الغنم، ولا كان عنده عليه الصلاة والسلام سر ولا رمز، ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه، ولو كتم شيئا لما بلغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر.

فإياكم وكل قول لم يبن سبيله ولا وضح دليله، ولا تعوجوا عما مضى عليه نبيكم ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم»(٣).

● وإذا كانت مصادر التشريع الإسلامى هى الكتاب والسنة والإجماع، فمن المسلم به أن

---

(١) أى اتهموه فى عقله.

(٢) حماقات وأخطاء.

(٣) ابن حزم: الإحكام فى أصول الأحكام: الباب السادس والثلاثون: فى إبطال التقليد، ط دار الحديث – القاهرة ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م.

الإجماع يقوم على الاجتهاد الذى يقوم به أولوا الأمر وأهل الذكر.

والاجتهاد يشتمل على:

القياس،

والاستحسان،

والمصالح المرسلة، أى المصالح المطلقة التى لا تتقيد بحكم خاص ينطبق عليها فى جميع الأحوال وجميع الأزمنة، ولكنها من العوارض التى تخضع لاعتبارات الزمان والمكان.

● وهذا الاجتهاد قائم على الفهم لتلك المصادر، لتؤخذ منها النظرية، ويعرف منها التطبيق، وهذا الفهم واجب - كما قلنا ذلك آنفا.

فالاجتهاد مطلوب من كل مسلم على قدر استطاعته؛ لأن التفكير فى نصوص الدين وأموره كلها أصل من الأصول التى لم يختلف عليها الفقهاء، كما أن رفض التقليد أصل إلا فى حالات نادرة الحدوث.

● وأود أن انبه هنا إلى أن القائلين بأن باب الاجتهاد - أى إعمال العقل - قد سُدَّ، يخطئون خطأ جسيماً فى حق دينهم أولا؛ لأنهم يقولون بما يخالف الدين، فنحن قد قدمنا من النصوص القرآنية ما يوجب التفكير والتدبر والتأمل والنظر والسير فى الأرض ومعرفة أخبار الأولين لأخذ العبرة، وتعطيل الاجتهاد أو سد بابه تعطيل لهذا الواجب الشرعى.

ويخطئون ثانيا فى حق المسلمين؛ إذ يحولون بينهم وبين واجب أوجبه الله تعالى عليهم، وهذا إثم ومعصية، كما يحرمون المسلمين بهذا التعطيل للعقل من أن يفيدوا من المتغيرات والمستجدات التى تحيط بحياتهم، والتعامل مع هذه المستجدات لابد أن يجلب للمسلمين مصلحة أو يدفع عنهم ضرراً، ما دام هذا التعامل لا يصطدم مع قاعدة شرعية.

ويخطئون فى حق أنفسهم بأن يوردوها موارد مخالفة شرع الله، وبالتالى معصيته سبحانه والوقوع تحت طائلة عقابه.

● ومهما احتج هؤلاء القائلون بسد باب الاجتهاد - أى المعطلون للعقل والتفكير - بأن شروط المجتهد لا تتوفر اليوم فى أحد، فإنهم يرتكبون بذلك خطأ جديداً هو سوء الظن بعلماء المسلمين وتضييق ما وسع الله على الناس.

● ومهما احتجوا فى سد باب الاجتهاد بأن الأول لم يترك للآخر شيئا، وأن على الآخر أن

يقلد الأول، فقد أخطاوا كذلك فى حق الحق ذاته؛ لأن الأول اجتهد فيما يحيط به، ولا ينفع ما اجتهد فيه لمن يجئ بعده، فالناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وبالتالى ترك الأول للآخر – على وجه الحقيقة – أن يجتهد فى كل ما يحيط به ويتغير بتغير الزمان والمكان.

● ومهما احتج من يقولون بأن للنص القرآنى ظاهراً وباطناً، وأن هذا الباطن لا يعلمه إلا الإمام، فسدوا بذلك باب الاجتهاد، فهم مخطئون أشد الخطأ؛ لأن القرآن –كما أوضحنا – ليس له باطن وراء الظاهر، وإنما هو كله ظاهر ميسر لمن قرأه وتدبره.

● ومهما قالوا بوجوب تقليد الإمام وهو الذى يجتهد للناس، فهم على خطأ عظيم؛ لأن كلمة العلماء أجمعت على حرمة هذا التقليد، ونذكر هنا كلمة أخرى لابن حزم الأندلسى يقول فيها: «لا يحل لأحد أن يقلد أحدا، لا حيًا ولا ميتًا، وكل أحد له الاجتهاد حسب طاقته.

فمن سأل عن دينه فإنما يريد معرفة ما ألزمه الله عز وجل فى هذا الدين، ففرض عليه إن كان أجهل أهل البرية أن يسأل عن أعلم أهل موضعه..

ومن ادعى وجوب تقليد العامى للمفتى، فقد ادعى الباطل، وقال قولاً لم يأت به قط قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا قياس، وما كان هكذا فهو باطل لأنه قول بلا دليل»(١).

وبعد: فهذا هو معنى الاجتهاد فى الدين، وتلك هى الظروف والملابسات المحيطة به، والذى خلصنا إليه من عرض الآراء المتعددة فيه، هو: أن الاجتهاد بالمعنى الذى ذكرنا واجب فى أمور الدين؛ حتى لا يدخل الناس فى حرج التضييق عليهم أو إثم تقليد سواهم فى الدين.

● وهذا يؤيد ما نقول من أن دين الإسلام يعطى للعقل حرية فى أن يفكر، ويتدبر وينظر ويتأمل؛ لأن هذا حقه وتلك فطرته التى فطره الله عليها.

وهدفنا أن نؤكد أن الإسلام قد ضمن للعقل حرية التفكير، وبالتالى فلم يتناقض معه فى شيء، وهذا دعم لصلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، مهما كانت المتغيرات.

---

(١) ابن حزم الأندلسى: الإحكام فى أصول الأحكام: الباب السادس والثلاثون، مرجع سابق.

ب - عمل العقل فى هذا الاجتهاد

أوضحنا أن الاجتهاد فى أمور الدين مطلب شرعى كلما تغير الزمان أو المكان أو حدثت المستجدات، وأوضحنا كذلك أن الاجتهاد عمل عقلى واجب على المسلمين القادرين.

● ونوضح هنا بعض الحقائق التى تتصل بموقف الإسلام من العقل، فيما يلى:

- أن الإسلام يخاطب العقل، ويرى أن النظر العقلى هو طريق الإنسان إلى معرفة الحقيقة، قال تعالى: ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)** ﴾ [الروم: ٥٠].

- وأن الإسلام يرى أن التفكير هو الباب الطبيعى الذى يوصل الإنسان إلى الهداية والإيمان، كما نفهم ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم .... (٤٦)** ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهذه العظة الواحدة أو الخصلة الواحدة هى: قيامكم وتشميركم فى طلب الحق بالتفكير الصادق الصحيح، اثنين اثنين أو واحداً واحدا؛ لأن الاجتماع الكبير يشوش الفكر، أو بمعنى: أن ينفرد كل منكم بتفكيره، أو يثنى على رأيه بمشاورة طرف آخر.

- وأن الإسلام أوجب على المسلم التفكير فى أمور الدنيا والآخرة، والتفكير فى أمور الدنيا لجلب مصلحة أو دفع مفسدة، والتفكير فى أمور الآخرة ليتعزز الإيمان، ويعبد الله على الرجاء لرحمته والخوف من عقابه، يفهم ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (٢٢٠)** ﴾ [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]. أى يوضح لكم من الآيات والدلائل فتتفكرون فى أمر الدنيا والآخرة، وتعلمون أنه لابد من ترجيح الآخرة على الدنيا.

- وأن الإسلام يعلم الناس أن الوصول إلى الإيمان إنما يكون بالتفكير والتأمل والتدبر، ليؤمن المؤمن عن بينة واقتناع، ولا يؤمن بتقليد الآباء والأجداد، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)** ﴾ [الزخرف: ٢٣].

- وأن الإسلام عندما كلَّف الإنسان وألزمه بامتثال ما أمره الله به، واجتناب ما نهاه عنه، إنما نظر إلى أن الإنسان هو المخلوق الوحيد المكلف من بين مخلوقات التى نعرفها.

وإنما كُلِّف الإنسان؛ لأن الله تعالى خلقه ومنحه العقل، فإن عطل هذا العقل لسبب من الأسباب سقط التكليف.

● وأن لهذا العقل ميزات وخصائص من أهمها:

- أنه يعقل صاحبه عن كل ما يخالف أمر الله ونهيه.
- وأنه أداة الفهم والتصور والفكر والتدبر والبحث والنظر.
- وأنه قادر -إذا كان صحيحاً- على التفرقة بين الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل.
- وأنه يستطيع أن يتذكر الماضى، ليأخذ منه عبرة فى الحاضر وضوءاً ينير له طريق المستقبل.
- وأنه يستطيع أن ينفذ ببصيرته إلى ما لا تستطيعه الأبصار، كل ذلك مما أوضحناه فى الفصل الأول من هذا الكتاب.

ونحاول هنا أن نذكر بعمل العقل لنوضح أثر هذه العمل فى الاجتهاد الذى هو حق لكل مسلم، بل واجب عليه فى كثير من الأحيان.

عمل العقل فى الاجتهاد

سبق أن قلنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إن عمل العقل هو: الفهم، والتصور، والإدراك للوازع الأخلاقى، والإدراك لسائر الأمور المحيطة بالإنسان، والتأمل فى المدركات، والرشد أو الهدى والصلاح.

● ولقد كثرت فى القرآن الكريم الآيات التى تطلب من الإنسان أن يعقل[١] وأن يتفكر[٢] وأن يبصر[٣] وأن يتدبر[٤] وأن يتذكر[٥].

وكثير من هذه الآيات صُدِّر باستفهام منفى «أفلا تتفكرون..»؟! وهذا يعنى دعوتهم إلى التفكر أو أمر بالتفكر والتبصر والتدبر.

● فالعقل هو الذى يعقل ويتفكر ويتبصر ويتذكر، وهو بهذه الأعمال موصول وصلاً وثيقاً بالأدلة والبراهين التى يقوم عليها التكليف، وهذه الأعمال التى يمارسها العقل هى التى تسوغ للإنسان أن يأتمر بأمر الله، وأن ينتهى عما نهاه عنه؛ إذ العقل يفكر ويتدبر وينظر ويتأمل فينساق وراءه الإيمان ويصفو من الشوائب ويعمق ويزداد رسوخا، إذ يحبب إليه العقل العمل الصالح وفعل الخيرات، وهذا يزيد الإيمان ثبوتاً، والعقل هو الذى يباعد بين الإنسان وبين المعاصى، فيباعد ذلك بين المؤمن ونقص الإيمان.

● وما دام التكليف مرتبطاً بوجوب الطاعة، والطاعة لا قيمة لها ما لم تكن معها حرية إرادة واختيار، وحرية الإرادة والاختيار هى من صميم عمل العقل، فإن العقل هو الذى يهيئ لصاحبه أن يرضى الله تبارك وتعالى بطاعته.

● والاجتهاد فى الدين – كما أوضحنا – عمل عقلى مطلوب دعا إليه الإسلام، غير أن هذا

---

(١) ذلك فى الآيات: ٤٤، ٧٦ من البقرة، ٦٥ من آل عمران، ٣٢ من الأنعام، ١٦٩ من الأعراف، ١٦ من يونس، ٥١ من هود، ١٠٩ من يوسف، ١٠، ٦٧ من الأنبياء، ٨٠ من المؤمنون، ٦٠ من القصص، ١٣٨ من الصافات.

(٢) وذلك فى الآيات: ٥٠ من الأنعام، ١٧٦ من الأعراف، ٤٤ من النحل، ٢١ من الحشر، ٢٤ من يونس، ٢ من الرعد، ١١، ٦٩ من النحل، ٢١ من الروم، ٤٢ من الزمر، ١٣ من الجاثية.

(٣) وذلك فى الآية: ٢٧ من السجدة.

(٤) وذلك فى الآيتين: ٨٢ من النساء، ٢٤ من محمد.

(٥) وذلك فى الآيات: ٣ من يونس، ٢٤، ٣٠ من هود، ١٧ من النحل، ٨٥ من المؤمنون، ٢٣ من الجاثية.

الاجتهاد فى الدين قد يدخل فى دائرة الواجب، وهذا قد يبدو لبعض الناس غريبا، لكن لا غرابة فى ذلك ولا مبرر للعجب أو الدهشة، فإن بعض الأمور الضرورية يجب فيها الاجتهاد، وذلك ما نحب أن نوضحه فيما يلى، والله الموفق.

الاجتهاد فى الدين واجب فى الضرورات

أوجب الإسلام على الإمام -إمام المسلمين أو رئيسهم- وعلى أهل العلم والمقدرة أن يجتهدوا فى تعرف مصالح المسلمين، وعلى ضرورات الحياة، وأن يجتهدوا فى معرفة أحسن الأساليب التى تجلب للمسلمين المصالح وتدفع عنهم المضار، كلما جد جديد أو حدثت إضافة فى مجال من مجالات الحياة. ذلك واجب على هؤلاء، وإلا فاتت مصالح المسلمين، وهجمت عليهم المضار، فكان الإمام مسئولا عن فقد المصلحة وتحقق المضرة.

- غير أن القاعدة المعمول بها فى الاجتهاد دائما هى: «لا اجتهاد مع النص»، فإن وجد النص لجأ إليه العلماء وحمدوا الله على الأخذ بما فيه، فإن لم يوجد نص اجتهدوا وخرجوا من هذا الاجتهاد بإجماع على أن كذا فيه مصلحة للمسلمين، وأن كذا فيه مضرة لهم.

- وإنما قلنا الإمام أو الرئيس؛ لأن تقدير المصلحة وتحديد الاضطرار فى تطبيق الشرع موكول إلى الإمام أو من ينيبه، وإلى أهل العلم والذكر من المسلمين، على هذا أجمع علماء الأمة فى كل عصر، ولا يشذ عن ذلك إلا متنطع، أو مضلِّل أو مضلَّل.

- والآيات القرآنية الكريمة التى توجب الاجتهاد فى الضرورات، والتى توضح الضرورات وأنواعها كثيرة نذكر منها ما يلى:

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)** ﴾ [الأنعام: ١١٨، ١١٩].

أى للمؤمن أن يأكل من كل ذبيحة ذكر اسم الله عليها وهى تذبح، وليس له أن يلتفت إلى المشركين الضالين الذين يحرمون بعض الأنعام، وليس لدى أى مؤمن دليل على امتناعه من الأكل مما ذكر اسم الله عليه؛ ما دام فى غير حالة الاضطرار - كالميتة والدم - وليعلموا وليكونوا على حذر من أناس يبعدون عن الحق بمحض أهوائهم من علم لديهم.

● وقال جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾ [البقرة: ١٧٢، ١٧٣].

والمعنى: أن الله تعالى أباح للناس كل حلال خلقه لهم فى هذه الحياة ما دام طيبا، أى غير نجس ولا خبيث، ولا هو من قبيل المحرمات كالميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل - أى ذبح - به لغير الله.

ويستثنى من ذلك المحرم، ما يضطر المسلم إلى أكله مكرهاً أو خشية ضرر من الجوع، فإن له أكله ويكون عندئذ من الحلال.

● وقال عز وجل: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾ [المائدة: ٣].

والمعنى: أن الله تعالى - رحمة بالمسلمين - حرم عليهم أكل لحم الميتة، وأكل الدم السائل، وأكل لحم الخنزير، وأكل ما ذبح فذكر عند ذبحه اسم لغير الله تعالى، وأكل ما مات مخنوقا، أو الذى ضرب حتى مات، أو سقط من علو فمات، وما مات بسبب نطح غيره له، وما مات بسبب أكل حيوان مفترس منه - ولكن ما أدركتموه من هذه الحيوانات وفيه حياة فذكيتموه فهو حلال لكم بهذه التذكية - وهى الذبح وذكر اسم الله عليه -.

وقد حرم الله تعالى عليكم ما ذبح قربة لصنم، فلا تأكلوا منه كما حرم الله تعالى عليكم أن تطلبوا معرفة ما فى الغيب بوساطة القرعة والأقداح.

● وإن تناول أى شيء مما حرم الله عليكم ذنب عظيم وخروج عن طاعة الله تبارك وتعالى.

● ويستثنى من ذلك من ألجأته الضرورة إلى تناول شيء مما ذكر، فإن الله تعالى يسامحه ويغفر له.

● وهذه الثلاثة الآيات الكريمة توجب على المسلم أن يجتهد فى حالة الاضطرار، وأن يحكم عقله، وأن يفكر ويتدبر قبل أن يقدم على شيء حرمه الله تعالى. وترك الاجتهاد فى هذه

الأحوال غير جائز.

والاجتهاد -كما قلنا غير مرة- عمل من أعمال العقل.

● وللاجتهاد في الدين -أي إعمال العقل والتفكير في مسائل التشريع- مواضع معروفة في كتب الفقه الإسلامي، وكتب أصول هذا الفقه.

وتكاد تنحصر هذه المواضع في أبواب معروفة هي:

- القياس،
- والاستحسان،
- والاستصلاح[1].

وذلك أن الواقعة التي تحدث للمسلمين، وتعرض لحياتهم ويحتاجون فيها إلى أن يعملوا العقل. هذه الواقعة نوعان:

الأول:

أن تكون واقعة جاء فيها حكم دلَّ عليه نصٌّ من القرآن الكريم أو السنة النبوية، أو انعقد عليه إجماع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور.

وعندئذ يجب اتباع هذا الحكم، ولا مجال في مثل هذه الواقعة لأي اجتهاد.

والآخر:

واقعة لم يجئ فيها حكم يدل عليه نص من الكتاب أو السنة أو الإجماع، ولكن يظهر للمجتهد أن هذه الواقعة تشبه واقعة أخرى جاء فيها حكم دل عليه نص من الكتاب أو السنة أو الإجماع، في العلة التي بني عليها حكم النص أو الإجماع.

وعندئذ يكون للمجتهد أن يسوي بين الواقعتين في الحكم لتساويهما في العلة التي بني عليها الحكم، وهذه التسوية هي ما يسمى في علم أصول الفقه «قياسا».

- وهذا القياس هو أول طريق الاجتهاد بالرأي؛ لأن المجتهد يستنبط علة حكم النص باجتهاده برأيه، ويتحقق من وجودها في الواقعة المسكوت عنها باجتهاده برأيه.

---

(١) بعض العلماء يدخل فيها: باب الإجماع؛ إذ هو يقوم على الاجتهاد.

- فإن كان اتباع القياس الظاهر فى واقعة ما يفوت مصلحة للمسلمين أو يؤدى إلى مفسدة فيهم، فإن للمجتهد أن يعدل عن هذا الحكم إلى حكم آخر يحقق المصلحة أو يدفع المفسدة، وهذا هو: «الاستحسان».

- وإذا كانت الواقعة ليس فيها حكم بنص ولا بإجماع أو قياس، ولا تعارض فيها دليلان، وظهر للمجتهد أن هذه الواقعة فيها أمر مناسب لتشريع حكم يحقق مصلحة مطلقة بأن يجلب مصلحة أو يدفع مضرة، فاجتهد المجتهد فى تشريع الحكم لتحقيق هذه المصلحة أو دفع هذه المضرة فهذا هو: «الاستصلاح».

● ويمكن تلخيص ذلك كما يرى علماء أصول الفقه فيما يلى:

- القياس:

واقعة ليس فيها حكم بنص من الكتاب أو السنة أو الإجماع؛ الحقت بواقعة فيها حكم بنص من الكتاب أو السنة أو الإجماع.

- والاستحسان:

واقعة تعارض فى حكمها دليلان، فعدل المجتهد عن حكم أظهر الدليلين لسند استند إليه فى هذا العدول.

- والاستصلاح:

واقعة لم يسبق أن حدث فيها حكم بنصّ من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس، أو تعارض فيها دليلان فعدل عن أظهرهما، فشرع فيها المجتهد الحكم لتحقيق مصلحة معينة أو دفع ضرر معين.

● وقد استند الفقهاء فى هذا الاجتهاد، إلى اجتهاد الصحابة رضى الله عنهم بإذن من النبى ﷺ، كما حدث فى وصيته ﷺ إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن.

- فقد روى أبو داود بسنده عن أُناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ؛ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟

قال: أقضى بكتاب الله.

قال -ﷺ-: «فإن لم تجد فى كتاب الله؟».

قال: فبسنة رسول الله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: «فإن لم تجد فى سنة رسول الله - ﷺ -؟

قال: اجتهد رأيى ولا آلو،

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله».

- وروى أحمد بسنده عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: جاء رسول الله ﷺ خصمان يختصمان، فقال لعمرو: «اقض بينهما يا عمرو».

فقال - عمرو -: أنت أولى بذلك منى يا رسول الله.

قال: «وإن كان».

قال -عمرو-: فإذا قضيت بينهما فما لى؟

قال رسول الله ﷺ: «إن أنت قضيت بينهما فأصبت القضاء فلك عشر حسنات، وإن أنت اجتهدت فأخطأت فلك حسنة».

- والأمثلة على اجتهاد الصحابة - رضوان الله عليهم - فى الدين كثيرة، فى كل ما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة نبوية.

وفى اجتهادات عمر بن الخطاب رضى الله عنه مجال واسع لمن أراد أن يعرف ذلك(١).

وسوف نذكر من اجتهاداتهم رضى الله عنهم طرفا فى هذا المجال:

- أعفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من عقوبة القطع من أجل السرقة؛ وذلك فى عام المجاعة.

- واسقط عمر سهم المؤلفة قلوبهم،

- وفرض الخراج،

- وأحدث من العقوبات والمكافآت ما لم يكن معمولا به قبل.

- وكذلك فعل عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما فى خلافتيهما.

---

(١) يلتمس ذلك في كتب التراث عن عمر رضى الله عنه وفي الكتب الحديثة عنه مثل: الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل، وسيرة عمر بن الخطاب للطنطاوى، وعبقرية عمر للعقاد، وغيرها.

● ومن اجتهادات علماء المسلمين بعد عصر الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، اجتهادات دعمت أسس التشريع اجتهدوا فيها بعد أن بحثوا لها عن ضوابط من الكتاب والسنة. وهى مجموعة كبيرة قيمة من هذه الاجتهادات يمكن أن يطلق عليها: قوانين، أو: حكم جامعة أو: قواعد، ومن ذلك ما شاع فى كتب أصول الفقه مثل قولهم:

– اليسر مفضل على الحظر فى أوامر الشرع ونواهيه.

أى أنه كلما أمكن السماح فهو أفضل من الحجر والتقييد، وقد استندوا فى ذلك الحكم إلى قول الله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** (١٨٥) ﴾ [البقرة: ١٨٥] وإلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: ما خُير رسول الله – ﷺ – بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه».

– وقولهم: ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن[١].

– وقولهم: المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً،

– وقولهم: الضرورات تبيح المحظورات.

– وقولهم: اختيار أخف الضررين مصلحة.

– وقولهم: درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

وكل قانون أو حكمة أو قاعدة من هذه القواعد: اجتهاد فى الدين، استند فيه العلماء إلى فحوى الشريعة ومقاصدها مستنيرين بضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

● وهل تكون هذه الاجتهادات إلا من عمل العقل الذى أعطى حرية التفكير والتأمل والنظر؟

● وأعود فى نهاية هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب – فصل «بين الدين والعقل» – لأؤكد أن الدين الإسلامى لا يتعارض فى شىء مما جاء به مع العقل، بل أؤكد أن الدين الإسلامى رعى العقل وأحسن تربيته وتوجيهه، وأولاه من الاحترام والتقدير مالم يحظ به العقل فى أى دين آخر أو نظام.

---

(١) تنسب هذه الكلمة إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فيما رواه الإمام احمد بسنده عنه، مسند أحمد: ١/ ٣٧٩، ط مؤسسة قرطبة، القاهرة، دون تاريخ.

الفصل الرابع

العقل والعلم فى الإسلام

ويتنـــاول

١ - بين العقل والعلم.

٢ - أهمية العلم.

٣ - حرية العقل وحرية العلم.

٤ - نصوص من الكتاب والسنة فى وجوب التعلم والعلم والتعليم:

أ - نصوص فى وجوب التعلم.

ب - نصوص فى وجوب العلم.

جـ - نصوص فى وجوب التعليم.

العقل والعلم فى الإسلام

لا نبالغ فى شىء - بعد ما قدمنا فى هذا الكتب - إذا قلنا: إن الإسلام لا يصح من المسلم إلا إذا ارتكز على ركيزتين أساسيتين هما:

- العقل، وقد تحدثنا عنه فى الفصول السابقة.

- والعلم، وهو ما نتحدث عنه فى هذا الفصل الأخير من الكتاب، سائلين الله تعالى العون والسداد.

والعلم الذى يرتكز عليه الإسلام - بعد ارتكازه على العقل - هو علم له صفات تميزه أهمها ثلاثة:

- الصفة الأولى:

أنه علم عملى، أى أنه ليس مجرد نظريات علمية، أو علماً بحتاً فحسب، ولكنه علم مقرون بالعمل، أو علم ينتج عملاً، ولا يقبل فى الإسلام علم بلا عمل؛ لأن العمل هو هدف العلم، والعلم وسيلة للعمل، وقديماً قال أسلافنا: إن العلم بغير عمل لا يكون، والعمل بغير علم جنون.

- والصفة الثانية:

أنه علم وظيفى أى له وظيفة يؤديها، وليس علماً لذاته أى لمجرد العلم، ووظيفة العلم الذى دعا إليه الإسلام ذات ثلاث شعب:

إحداها:

العلم الذى يوظف لتوجيه صاحبه لطاعة الله تبارك وتعالى، وطاعة الله تعالى هى امتثال ما أمر به سبحانه أو ما أمر به الرسول ﷺ.

والثانية:

العلم الذى يُوظف لتوجيه صاحبه إلى الامتناع عن معصية الله تبارك وتعالى، أى اجتناب كل ما نهى عنه سبحانه وتعالى، أو نهى عنه رسوله محمد ﷺ.

والثالثة:

العلم الذى يوظف للاستفادة مما خلق الله لنا وسخر من كل ما فى السموات والأرض والبحار والأجواء لخدمة الإنسان وتكريم حياته على هذه الأرض، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وهذا النور هو الإيمان والعقل والقرآن والعلم.

وكما تفهم هذه الوظيفة الأخيرة للعلم من قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ...** ﴾ [الملك: ١٥]، قال ابن كثير فى تفسيره: «أى فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات»، وأقول: وكل ذلك يحتاج إلى علم ييسره، علم موظف لخدمة الإنسان ومصالحه فى هذه الأرض.

- ولسنا بحاجة – ونحن فى مقدمة هذا الفصل – إلى أن نؤكد عناية الإسلام بالعلم، فذلك ما نعقد له هذا الفصل كله، وإنما نذكر هنا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ....** ﴾ [المجادلة: ١١].

- وقد بينا فيما سلف من هذا الكتاب مدى حفاوة الإسلام بالعقل، ودعوته كل مسلم إلى التفكير وإعمال العقل والتدبر والسير فى الأرض.

ونوضح هنا أن هذه الدعوة إلى التفكير والتدبر والنظر وإعمال العقل هى دعوة إلى العلم، لأن من البديهى أن العقل هو وسيلة العلم وآلته، فلا انفكاك لواحد منهما عن الآخر، فالعقل حين يعمل ويؤدى وظائفه – التى تحدثنا عنها آنفاً – يحصل العلم، فلا علم بغير عقل، والعقل كما قلنا – آنفاً – هو القوة المتهيئة لقبول العلم، كما أن العلم الذى يستفيده الإنسان بهذه القوة يقال له عقل.

– ويفهم هذا من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١].

قال المفسرون: مثل الذين كفروا فى اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم، كمثل الراعى إذا

تكلم مع البهائم التى يرعاها، فكما أن الكلام مع البهائم عبث عديم الفائدة، فكذا تقليدهم لآبائهم عبث عديم الفائدة، وإنما عليهم أن يستعملوا عقولهم لكى يحصلوا على العلم والهداية، ولكن هؤلاء لم يستعملوا عقولهم، فلم يعلموا ولم يهتدوا فكانوا كالذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء...

- والعلم - كما هو معروف ومقرر - إدراك لحقائق الأشياء، ولا إدراك بغير عقل كما هو معروف أيضاً، فالعقل والعلم قرينان فى كل حال.

- والأوامر والنواهى والتوجيهات الواردة فى القرآن الكريم معللة دائماً بما يعرف عند العلماء: بحكمة التشريع، وشأن هذه الحكمة بل قصاراها أن تقنع العقل بما جاء فيها من: جلب مصلحة أو دفع مضرة.

- والآيات القرآنية الكريمة المعللة، مما تضمن أمراً أو نهياً، كثيرة، نذكر منها أنموذجاً واحداً، ليهتدى إلى مثله من أراد من الناس، وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)** ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

فالحكمة فى تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام مصرح بها فى الآية الكريمة، وتعليل هذا التحريم موجه إلى العقل ليفكر فيه ويتدبر، ما وسعه التفكير والتدبر، فيزداد إيماناً ويقيناً.

- وتتبين الصلة الوثيقة بين العلم والعقل، فى الآيات الكريمة التى ساقت قصصاً عن الأولين، ثم طالبت العقل بأن يأخذ من هذه القصص علماً بأنباء الأولين ومصائرهم، وعبرة من هذه المصائر يتعظ بها، ويهتدى إلى الطريق القويم، وذلك واضح فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)** ﴾ [يوسف: ١١١].

فقد صرحت هذه الآية الكريمة بأن فى قصص الأولين عبرة لأصحاب العقول، أما غيرهم ممن عطلوا عقولهم فلا.

- كما تتبين هذه الصلة بين العلم والعقل، عند التأمل والتدبر فى الآيات القرآنية الكريمة

التى تطلب من الإنسان أن يوازن بين الخير والشر، أو بين الحق والباطل، فإن المطالبة بهذه الموازنة تعنى أن يعمل العقل، ليصل إلى العلم، أى لا علم بلا عقل - كما قررنا آنفاً.

- وإذا وصل العقل بهذه الموازنة ونحوها إلى العلم بشىء أو تفضيل شىء على شىء تبين الارتباط الوثيق بين العلم والعقل فى الإسلام.

ويفهم ذلك من عدد قليل من الآيات القرآنية الكريمة نذكر منها على سبيل الشاهد والمثال ما يلى:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)** ﴾ [فاطر: ١٢].

إن هذه الموازنة بين البحرين نتيجتها الإيمان بالله تعالى بعد إعمال العقل والتفكر فى هذا الخلق العظيم للخالق الحكيم.

- وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)** ﴾ [هود: ٢٤].

والمعنى أن المؤمن بصير سميع فى نور يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة؛ حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون. والكافر أعمى أصم فى ظلمات يمشى لا خروج له منها، بل هو تائه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم؛ أى إلى جهنم.

- وقوله جل شأنه: ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)** ﴾ [الأنعام: ٥٠].

أى هل يستوى من اتبع الحق وهُدى إليه، ومن ضل عنه فلم يهتد إليه؟ والذى يهدى إلى الحق أو يضل عنه هو العقل.

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩)** ﴾ [الزمر: ٩].

أى إنما يعلم الفرق بين المؤمن والكافر من له عقل من الناس.

- وقوله جل وعلا: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد: ١٩].

أى لا يستوى من يؤمن بأن ما أُنزل على محمد ﷺ هو الحق، ومن لا يؤمن بذلك فيكون كالأعمى؛ لأنه إنما يتعظ بذلك أصحاب العقول السليمة.

فهذه كلها موازنات تدعو إلى إعمال العقل لكى يصل إلى العلم، وهكذا نجد بين العقل والعلم ارتباطاً وثيقاً دلت عليه آيات القرآن الكريم، بل إنها علاقة تلازم كما جاء ذلك فى بعض آيات القرآن الكريم التى سقناها آنفاً.

وفى باقى نقاط هذا الفصل سوف نوضح مدى هذه العلاقة بين العقل والعلم فى الإسلام، والله المستعان.

١ - بين العقل والعلم

العلم فى تعريفه الخالى من المصطلحات والرموز التى قد تستعصى على فهم كثير من الناس هو - كما يبدو لى - بعد استيعاب عدد غير قليل من التعريفات -: «اليقين المبنى على التجربة والمشاهدة الحسية»، وإنما آثرت هذا التعريف المبسط للعلم حتى لا أكرر ما قال العلماء فى تعريف العلم وهو قولهم: «العلم هو مجموعة المعارف المتكاملة والمبادئ والكليات العامة المتعلقة بحقيقة ظاهرة معينة، ويقوم هذا العلم على الملاحظة والتجربة».

وحتى لا أكرر ما قاله الأقدمون من الحكماء والعلماء والباحثين من المسلمين[١]، أكتفى بتعريف متميز للشوكانى فى كتابه: «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول»، حيث قال: «العلم صفة ينكشف بها المطلوب انكشافاً تاماً».

- وأما العلم بمعنى اليقين المبنى على المشاهدة والتجربة؛ فهو سبب من أسباب الإيمان بالخالق المدبر سبحانه وتعالى؛ لأنه مهما أنكر المنكرون وجود الخالق سبحانه وتعالى فإن العقل العلمى يهتدى إلى وجود الخالق ويحشد لذلك الأدلة والبراهين، وتلك الأدلة والبراهين ما هى إلا علم جاء نتيجة بحث وتفكر وتأمل ونظر.

- والعلم عندما يتصل بالكون وما فيه، وكان يصحب ذلك تفكر وتدبر بل واستخدام للتجربة والمعمل، فإنه بهذا الوصف أكبر معين على الوصول إلى الإيمان؛ وذلك أن الشرك والإلحاد غالباً ما يكون أبعد عن العلماء المهتمين بالكون وما فيه، وبخاصة إذا كانوا من علماء لفلك والفيزياء، ولعل أولئك العلماء وأمثالهم هم المقصودون بقول الله تعالى: ﴿**إنمايخشى الله من عبده العلماء**﴾، وبخاصة إذا كان هؤلاء العلماء مسلمين أو منصفين؛

---

(١) من تلك التعريفات قولهم: العلم علمان: علم حُمِل، وعلم استعمل، فما حمل منه ضر، وما استعمل نفع.
وقولهم: العلم مادة العقل وسراج البدن ونور القلب وعماد الروح.
وقولهم: العلم قائد والعقل سائق والنفس ذود - أى عدد من الإبل - فإذا كان قائد بلا سائق هلكت الماشية، وإن كان سائق بلا قائد أخذت يميناً وشمالاً، وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرهاً.
وقال الشافعى: العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان.
وقال أبو يوسف القاضى صاحب أبى حنيفة: ثلاثة لا يسلمون من ثلاثة: من طلب الدين بالفلسفة لم يسلم من الزندقة، ومن طلب المال بالكيمياء لم يسلم من الفقر، ومن طلب غرائب الأحاديث لم يسلم من الكذب.

وذلك أن صدر هذه الآية الكريمة جاء فيه إشارات إلى علم المياه وعلم النبات وعلم طبقات الأرض وعلوم الحيوان وعلوم الإنسان، وكل هذه العلوم إنما ثبتت بالتجارب المعملية، ولنتدبر هذه الآية كاملة، قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)** ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

● وأود هنا أن أنقل ما كتبه بعض العلماء المسلمين فى التعليق على هاتين الآيتين:

قالوا فى التعليق على الآية الأولى: «ليس الإعجاز العلمى فى هذه الآية الكريمة هو التنويه فقط بما للجبال من ألوان مختلفة ترجع إلى اختلاف المواد التى تتألف منها صخورها، من حديد يجعل اللون السائد أحمر، أو منجنيز أو فحم يجعله أسود، أو نحاس يجعله أخضر.. وغير ذلك.

ولكن الإعجاز هو الربط بين إخراج ثمرات مختلفات الألوان يروى شجرها ماء واحد، وخلق جبال حمر وبيض وسود يرجع أصلها إلى مادة واحدة متجانسة التركيب، أصل معينها من باطن الأرض، ويسميها علماء «الجيولوجيا» «بالصهارة والمجاجما»، وهذه الصهارة الواحدة عندما تنبثق فى أماكن مختلفة من الأرض وعلى أعماق مختلفة من السطح يعترى تركيبها الاختلاف فتتصلب آخر الأمر فى كتل أو جبال مختلفات المادة والألوان.

وهكذا فسنة الله واحدة لأن الأصل واحد، والفروع مختلفة متباينة، وفى هذا متاع وفائدة لبنى الإنسان.

وقالوا فى التعليق على الآية الثانية: «بعد استعراض تباين الثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام.

وقد يشار إلى أن وراء هذا التباين فى تلك الأحوال جميعها وحدة فى الأصل؛ فالثمرات من ماء واحد، والجبال من صهارة واحدة، وكذلك اختلاف الألوان والناس والدواب والأنعام لا يظهر فى النطف التى تنشأ منها، ولو فحصت بالمجاهر القوية فإنها فى مظاهرها لا تشير إلى شيء مما تكنه من أوجه الاختلاف، وإنما هى دقائق وأسرار تحتويها فى داخلها (جيناتها أو موزياتها)، وربما كان هذا إشارة أيضاً إلى الخصائص الوراثية الكافية فى جراثيم النبات

والحيوان والإنسان تحافظ على فطرتها ولا تتغير حقيقتها بالبيئة أو الغذاء.

وأحق الناس بخشية الله هم العلماء الذين عرفوا أسرار اختلاف هذه الموجودات»[1].

● إن هذا العلم يهدى إلى الإيمان بالله تعالى، ويستطيع العالم بالتأمل والتدبر أن يهتدى إلى كثير من صفاته سبحانه وتعالى، وكلما أنعم النظر وأطال التأمل وخاض التجارب العلمية فى مواد الطبيعة وفى القوانين التى بنى عليها نظام الكون، كلما ازداد إيماناً ويقيناً بالله تبارك وتعالى وبالمنهج الذى اختاره للبشرية كلها نظاماً للحياة.

● ولقد اهتدى إلى ذلك بعد هذه التجارب بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين، فهذا إسحق نيوتن صاحب نظرية الجاذبية وغيرها من النظريات، يقول بعد تأمل طويل: «إن خالق هذا الكون على علم تام بعلم الميكانيكا»!! ولو أكثر التدقيق والبحث العلمى لقال: إن خالق هذا الكون على علم تام بكل شئ، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)** ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

● وإن علماء الطبيعة الذين ألحدوا فى إله الكنيسة لن يستطيعوا أن يلحدوا فى إله الطبيعة، لأنهم فى بحوثهم ودراساتهم ومعاملهم وتجاربهم سوف يجدون أنّ الله تبارك وتعالى له سر فى كل ظاهرة يدرسونها، ولكن هذا السر قد ينكشف لهم بعضه فيطيرون فرحاً وانتشاءً.

● وإنما كان الإلحاد فى إله الكنيسة لأنه إله يختلف عن إله الطبيعة، مختلف باختلاف الزمان والمكان، بل مختلف باختلاف المتعبدين، وليس كذلك إلاله كما يحس به علماء الطبيعة.

ولنوضح بعض أوصاف إله الكنيسة كما وصفته بعض الكتب السماوية التى حرفت، وكما وصفه بعض من يسمون أنفسهم رجال الدين:

– إله الكنيسة بشر يتشكل فى جسم البشر يأكل ويشرب ويمشى على الأرض.

– وإله الكنيسة باطش جبار محب للدماء عند بعض الأديان.

– وهو يحب تعذيب الناس وإفناء أجسادهم عند بعض الأديان.

---

(١) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية: المنتخب فى تفسير القرآن الكريم: ص ٦٤٧، ٦٤٨، الطبعة الثانية عشرة: ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م – القاهرة – وزارة الأوقاف.

– وهو مركب من ناسوت ولاهوت بل أقانيم ثلاثة عند بعضهم.

– وهو إله خاص بأقوام بأعيانهم دون سواهم عند بعض هذه الأديان.

– وهو إله ظهر فى زمن معين عند بعض الأديان.

وهذا كله مما يجعل الإلحاد فيه أوبه عملاً مقبولاً عند كثير من العلماء، وبخاصة من يشتغلون منهم بقضايا الكون والحياة والأحياء، لأن الله الحق هو كما وصفته الكتب السماوية قبل أن تحرف، وكما وصفه القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال الله تعالى: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)** ﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤].

● وإذا كانت الأديان التى سبقت ظهور الإسلام قد ادعت أن الدين قلبى وجدانى لا أثر للعقل ولا للفكر فيه، فإن الدين الإسلامى يقوم على التفكير، ويستند إلى الحجج العقلية، ويقرر أنه عقل ووجدان، ولا يقبل من متدين به أن يأخذ دينه عن طريق تقليد غيره.

إن الدين الإسلامى ينادى على الناس بقول الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** .... ﴾ [سبأ: ٤٦].

● ومن مقررات الإسلام وحقائقه المؤكدة فى هذا المجال ما نسرده فيما يلى:

– إن العقل هو وسيلة العلم وآلته، وأنه مناط التكليف الشرعى، وأن هذا العقل هو: «صفة غريزية يلزمها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات، وهو الحواس الظاهرة والباطنة، وهذا هو معنى ما قيل فى العقل من أنه قوة للنفس نتمكن بها من إدراك الحقائق»[(١)].

– وأن العلم طريق لسعادة الإنسان فى أخراه ودنياه، فلا سعادة فى الآخرة إلا بإرضاء الله تعالى فى الدنيا، أى بطاعته سبحانه فيما أمر به وفيما نهى عنه؛ ولا يكون ذلك إلا بالعلم، علم الدين وما اشتمل عليه القرآن والسنة من أمر ونهى، ولا سعادة فى الدنيا إلا بتأمين احتياجات الحياة الدنيوية من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومركب، واستعداد

---

(١) هذا التعريف للإمام فخر الدين الرازى فى كتابه: «التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب». مرجع سابق.

لرد عدو، وإعداد لنشر الدعوة إلى الله، وممارسة للجهاد فى سبيل الله، وكل ذلك وسيلته العلم، وبغير علم لا يكون شئ منه.

– وهذا العلم لا قيمة له عند المؤمن إلا أن يصحبه عمل، وتترجم عنه ممارسة، كما لا قيمة لهذا العلم مالم يؤد إلى تزكية النفس ومنعها عن راذل الأخلاق، وكل ذلك إنما يكون بالالتزام بالمنهج والنظام الذى جاء به محمد ﷺ من عند ربه.

– وهذا العلم فرض على كل مسلم ومسلمة، كما يفهم ذلك مما رواه ابن ماجه بسنده عن أنس – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وروى ابن عبد البر بسنده عن أنس – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم».

فما هو العلم الذى يجب طلبه على كل مسلم؟

● إن للعلماء فى ذلك آراء ومذاهب وتعريفات لابد من ذكر شىء منها حتى تتضح صورة هذا العلم، ومن هذه الآراء ما يلى:

– قال علماء التفسير والحديث:

إن العلم هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يتوصل إلى سائر العلوم، وعلى ذلك الرأى جمهور المحققين من السلف والخلف رحمهم الله دون خلاف بينهم حول ذلك.

– وقال الفقهاء:

إن العلم هو العلم بالحلال والحرام، وهو ما يسمى بعلم الفقه، وهذا الرأى داخل فى رأى المفسرين وعلماء الحديث ومندرج تحته، لأن الحرام والحلال يعرفان من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

– وقال علماء الكلام «التوحيد» أو «أصول الدين»:

هو العلم الذى يدرك به التوحيد الذى هو أساس الشريعة، ويسمى «علم الكلام»[1]، وهذا الرأى داخل فى رأى المفسرين والمحدثين أيضاً، لأن مسائل التوحيد مبينة فى القرآن

---

(١) إنما سمى بعلم الكلام، والكلام صفة من صفات الله تعالى؛ لأن العلماء اختلفوا حول تلك الصفة اختلافاً كبيراً أدى إلى تنازع وخصام، وأدى إلى حبس الإمام أحمد بن حنبل عندما خالف الخليفة المأمون العباس فيما يقول فى قدم كلام الله تعالى.

الكريم والسنة النبوية كذلك.

– وقال علماء التصوف:

هو علم القلب ومعرفة الخواطر، لأن النية التى هى شرط الأعمال لا تصلح إلا بها، وهذا العلم عندهم شعبة من السنة النبوية المطهرة، لأن العالم بالسنة النبوية عالم على الوجه الأتم الأكمل.

– وقال بعض العلماء:

هو العلم الذى يشتمل عليه قول النبى ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأحمد بأسانيدهم عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»، لأن ذلك هو العلم الذى فرض على عامة المسلمين، فضلا عن خاصتهم والعلماء منهم.

- كل هذه الآراء لأولئك العلماء فى العلم الذى هو فرض عين.
- وأما العلم الذى هو فرض كفاية فهو فروع كثيرة من العلم ربما لا تنحصر بسهولة إذ هى كل علم يحتاج إليه الإنسان لتكون حياته أكرم وأحسن وأوفق لتكريم الله تعالى له.

وقد ذكروا من هذه العلوم ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

– علم الطب: من أجل صحة الأبدان.

– وعلم الحساب: من أجل المواريث والوصايا وما لابد منه للإنسان فى معاشه من محاسبات فى تعامله مع غيره.

– وعلم الفلاحة.

– وعلم الصناعة.

– وعلم السياسة.

وكل علم يحتاج إليه الإنسان فى حياته الدنيا.

- والقسم الثالث – أى بعد قسم فرض العين وفرض الكفاية – علم مباح أى ليس بفرض عين ولا فرض كفاية، وذكروا لذلك أنواعاً من العلم نذكر منها ما يلى:

– العلم بالأشعار التى لا سخف فيها.

– والعلم بتواريخ الأخبار، وما يجرى مجراها.

● وهناك علوم مذمومة مثل:

– علم السحر والطلسمات.

– وعلم التنجيم[1] ونحوها.

● وأعود فأؤكد أن هذه العلوم كلها لا يمكن الحصول عليها إلا عن طريق العقل، وأن العقل يدركها ويحصلها عن طريق الحواس.

● إذن كل العلوم طريق الحصول عليها هو العقل باستثناء علم واحد يعرف بالعلم: «اللَّدُنِّى»، وهو العلم الذى يتعلمه العبد من ربه سبحانه وتعالى من غير وساطة ملك أو نبى، وإنما يكون ذلك التعلم بالمشاهدة أو المشافهة، كما كان ذلك للخضر – عليه السلام – الذى قال الله تعالى فى شأنه: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)** ﴾ [**الكهف**: ٦٥].

وبعد: فهذا عن العلم فى إيجاز شديد[2].

● وأما العقل[3]: فنرجو أن نذكر بأنه هو البصيرة – كما قلنا فيما مضى من الكتاب.

وقد قال العلماء: إن للإنسان بصراً وبصيرة، ثم فسروا وفصلوا فقالوا:

– البصر: هو العين الظاهرة المدركة للأضواء والألوان.

– والبصيرة: هى القوة العاقلة، هى تقتضى ظهور المدرك.

● وقد أفاض العلماء فى الحديث عن البصر والبصيرة، وتحديد الفروق بينهما، أى بين العين والعقل، مما نحب أن نذكر منه طرفاً، لأنه يدعم حديثنا عن العلم والعقل، فنقول:

– تحدث عن ذلك الإمام الغزالى أبو حامد فى كتابه: «مشكاة الأنوار» فعد فروقاً سبعة بين البصر والبصيرة[4].

---

(١) أما علم الفلك فمباح وليس بمذموم لأنه غير علم التنجيم.

(٢) سنعود إلى تفصيل القول عن العلم فى النقاط التالية من هذا الفصل من الكتاب بإذن الله تعالى وعونه.

(٣) تحدثنا عنه بالتفصيل فى الفصل الثانى من هذا الكتاب.

(٤) هذه الفروق التى ذكرها الإمام الغزالى واردة فى الفروق التى ذكرها الإمام فخر الدين الرازى، فلم نجد داعياً لذكرها مرتين.

– وتوسع الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه : « التفسير الكبير » أو مفاتيح الغيب، فجعلها عشرين فرقا[1].

ونحن نذكر هنا من هذه الفروق ما نراه أنسب لما نحن فيه من كلام والله المستعان :

١ – أن القوة الباصرة « العين » : لا تدرك نفسها ولا تدرك إدراكها ولا تدرك آلتها.

● وأما القوة العاقلة « العقل » فإنها تدرك نفسها وتدرك إدراكها وتدرك آلتها.

وهذا معناه أن نور العقل أكمل من نور البصر.

٢ – وأن القوة الباصرة لا تدرك سوى الحاضر المشاهد، أما الماضى والمستقبل فإنها تعجز عن إدراكه، فهى تدرك الجزئيات لا الكليات.

● وأما القوة العاقلة فتدرك الكليات، والماهية الكلية، وإدراك الكليات أشرف لأنه إدراك ممتنع التغير، أما إدراك الجزئيات فواجب التغيير دائما.

٣ – وأن الإدراك بالعين هو إدراك حسى من شأنه ألا يتسع للأمور الكثيرة، لأن البصر إذا توالت عليه ألوان كثيرة عجز عن تمييزها، فأدرك لوناً كأنه حاصل من اختلاط تلك الألوان، وكذلك شأن السمع والشم والذوق واللمس، أى سائر الحواس.

● أما الإدراك العقلى فإنه يتسع لكل الأمور مهما كثرت، لأن كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب الجديد أسهل.

ومعنى ذلك أن الإدراك العقلى أعمق وأشرف.

٤ – وأن القوى الحسية جميعاً تضعف فى الغالب بعد بلوغ سن الأربعين وتضعف عند كثرة الأفكار التى تجعل النفس تستولى على البدن، مما يسرع بخراب البدن.

● وأما القوة العقلية فإنها تقوى بعد الأربعين، وتقوى عند كثرة الأفكار الموجبة لخراب البدن.

٥ – وأن قوة البصر تدرك القريب، ولا تدرك البعيد.

● أما قوة البصيرة « العقل » فإنها تدرك القريب والبعيد على السواء، وهذا فضل تميز وشرف لها.

---

(١) انظر تفسيره الذى أشرنا إليه فى شرح قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ سورة النور، جزء ٢٣ من صفحة ١٧٦.

٦ ـ وأن القوة الحسية تدرك الأشياء من ظاهرها، ولا تستطيع إدراك باطنها، فهل على سبيل المثال تدرك ظاهر الإنسان فقط.

● وأما قوة العقل فإنها تدرك الإنسان ظاهره وباطنه، وربما كان باطن الإنسان أهم من ظاهره.

٧ ـ وأن القوة الباصرة لا تستطيع إدراك غير المتناهي، إذ لا تستطيع الاستنتاج.

● وأما القوة العاقلة فتقوى على ذلك، إذ يمكنها أن تتخذ من المعارف الحاضرة وسيلة إلى استنتاج المجهولات، وتستطيع أن تجعل هذه النتائج مقدمات فى نتائج أخرى، وهكذا...

٨ ـ وأن القوة الحسية محتاجة دائماً إلى وجود المحسوس لكى تدركه.

● وأما القوة العاقلة فهى فى غنى عن وجود المحسوس، فهى تدركه وإن كان غير موجود.

٩ ـ وأن القوة الباصرة تعجز عن الإدراك لأى شيء عندما يحجب بحجاب المكان والزمان.

● أما القوة العاقلة فلا يعجزها ذلك الحجاب، إذ هى تستطيع إدراك ما وراء المكان وما وراء الزمان.

● وقد سجل القرآن فى بعض آياته الكريمة الفرق بين البصر والبصيرة «العقل» وذلك فى قوله تعالى عن البصر، نذكر بعضه فيما يلى:

ـ قال الله تبارك وتعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)**﴾ [**الملك**: ٣، ٤].

ـ وقال جل شانه: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)**﴾ [**طه**: ١٢٤ ـ ١٢٦].

ـ وقال عز وجل: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)**﴾ [الجاثية: ٢٣].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها مثلها فى الدلالة على البصر «العين».

● وأما الآيات الكريمة الدالة على البصيرة، فهى كثيرة نذكر منها ما ييسر الله تعالى به فيما يلى:

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرة هنا هى الوعى والإدراك والتحقق.

– وقال عز شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، والبصائر هنا هى العبر التى تدرك بالعقول والأفهام.

– وقال جل وعلا: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

● فالبصيرة فى الآية الأولى: «... أدعو إلى الله على بصيرة ....» تعنى التثبت من الأمر، وهو عمل عقلى.

● والبصائر فى الآية الثانية: «... هذا بصائر من ربكم ...» جمع بصيرة والمقصود الحجج والبراهين التى تبصرهم بوجوه الحق.

● والبصيرة فى الآية الثالثة «بل الإنسان على نفسه بصيرة»، هى الحجة الواضحة الملزمة بالفعل أو الترك.

وهذه كلها أعمال عقلية لا حسية.

وبعد: فإنما قصدنا بهذا العنوان: بين العقل والعلم أن نوضح عدداً من الحقائق نسردها فيما يلى:

أولا: أن بين العقل والعلم ارتباط وثيق، كارتباط السبب بالمسبب، إذ لولا العقل لما كان علم، لأن العقل هو الوسيلة والآلة للحصول على العلم.

ثانياً: أن دين الإسلام قدر العقل حق قدره[١] وحث على العلم وأعلى من شأن العلماء[٢]، وما ذلك إلا لمكانة العلم فى حياة الإنسان، وحاجة الناس إليه.

ثالثاً: وأن أهل العلم فى كل فرع من فروعه أجدر أن يؤمنوا بالله تعالى حق الإيمان إذا كانوا متجردين فى علمهم من الهوى، وكانت عقولهم سليمة وتفكيرهم

---

(١) ناقشنا ذلك فى الفصل الثانى من هذا الكتاب بتوسع وتفصيل، وأشرنا إلى ذلك بإيجاز فى الفصلين الأول والثالث.

(٢) سنوضح ذلك فى النقطتين الثانية والثالثة من هذا الفصل الأخير من الكتاب.

صحيحاً.

رابعاً: أن العقل المنحرف أو المُضَلِلّ أو المضلَّل، إنما يأتى بما يضر صاحبه ويضر سواه، وصاحبه بائس كأنه يعيش بلا عقل أو بعقل معطل.

وأن العلم الذى لا يتجرد صاحبه عن الهوى يردى صاحبه ويتسبب للناس فى أضرار جمة، ولا يستحق هذا العلم تسميته بأنه علم.

خامساً: أن بين العقل والعلم فى الإسلام وئامًا لا تعارضًا ولا تناقضًا كما يزعم بعض الكارهين للإسلام والمسلمين، وكيف يكون تناقض بين السبب والمسبب أى بين العقل والعلم؟

٢- أهمية التعلُّم والعلم والتعليم

لا حصول على العلم دون تعلم، فالتعلم أساس فى الحصول على العلم، ولا حياة كريمة للإنسان دون علم، ولا قيمة للعلم مالم ينشر فى الناس عن طريق التعليم.

فهذه الثلاثية: تعلم وعلم وتعليم متماسكة متكاملة لا يمكن أن يستغنى عن أى شيء منها، ولا يمكن لأحدها أن يغنى عن الآخر.

● وليس أجدى على العقل من أن يعمل فى مجال العلم والبحث ليتوصل من وراء ذلك إلى الكشف والابتكار، وتهيئة الأسباب للحصول على سعادة الدنيا والآخرة.

● وللتعلم والعلم والتعليم أهمية قصوى فى الإسلام، فإذا قلنا: إن الإسلام دين العلم ما جاوزنا الصواب فى شيء، ولو قلنا: إن العلماء أرفع قدراً فى المجتمع من غيرهم ما عدونا الصواب.

- أما أن الإسلام دين العلم، فلأن أول آية نزلت من القرآن الكريم على الرسول الخاتم ﷺ هى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)** ﴾ [العلق: ١-٥].

- وكلمة اقرأ فى دلالتها المباشرة تعنى فك ما ترمز إليه الحروف وضم بعضها إلى بعض لمعرفة المعنى الذى تتضمنه تلك الحروف.

وفى هذا علم للإنسان بما لم يكن من قبل هذه القراءة، وقد جاء الكلام بصيغة الأمر فى القراءة.

وكلمة قرآن مصدر للفعل: قرأ، وقد خص اسم القرآن بالكتاب الذى أنزل على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

وقال بعض العلماء:

إنما سمى قرآناً من بين سائر الكتب التى جاءت من عند الله تعالى، لأنه جامع لثمرة كل هذه الكتب، بل لأنه جامع لثمرة العلوم كلها، وثمرة هذه العلوم شيئان:

- ما يؤدى إلى معرفة الله تعالى والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر...

– وما يؤدى إلى جلب مصالح الدنيا ودفع مضارها.

فإذا لم تكن ثمرة العلوم تحقق ذلك فليست بعلوم أو هى علوم مذمومة كما سبق أن قلنا.

– وإنما جمع القرآن الكريم ثمرة هذه العلوم – على ذلك النحو الذى ذكرنا – لأن الله تعالى أراد لآخر كتبه أن يكون الأكمل والأتم، والذى يضمن للعامل بما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

تأكد هذا الشمول وذلك الكمال والتمام فى قول الله تبارك وتعالى فى وصف القرآن الكريم:

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (٥٢) ﴾ [**الأعراف**: ٥٢].

والمعنى: لقد آتيناهم بياناً للحق قرآناً بيناه وفصلناه، وجعلناه مشتملاً على علم كثير؛ إذ فيه أدلة التوحيد، وفيه آيات الله فى الكون، وفيه شرع الله ومنهجه ونظامه، فهو مفصل على علم بالناس، وأن من اتبعه نجا وعاش سعيداً فى دنياه وأخراه.

– وقال عز وجل: ﴿ ... **وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا** (١٢) ﴾ [**الإسراء**: ١٢].

والمعنى: ولتعلموا باختلاف الليل والنهارعدد السنين وحساب الأشهر والأيام، كل هذا يفهم من الكتاب الذى أنزل عليكم، لأننا بينا فيه كل شىء لكم بياناً مفصلاً لتقوم عليكم الحجة بعد تمام النعمة.

– وقال عز وجل: ﴿ ... **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** (٣٨) ﴾ [**الأنعام**: ٣٨].

والمعنى: ما فرطنا فى الكتاب المحفوظ عندنا شيئاً إلا أثبتناه، وما تركنا – فى هذا القرآن من خير إلا دللنا عليه وأمرنا به، وما تركنا من شر إلا دللنا عليه ونهينا عنه.

– وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ... **وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** (٨٩) ﴾ [**النحل**: ٨٩].

والمعنى: وجئنا بك شهيداً على هؤلاء الذين كذبوك، وعليهم أن يعتبروا من الآن أنا قد

أنزلنا القرآن فيه بيان كل شئ من الحق، وفيه الهداية، وفيه الرحمة والبشرى بالنعيم.

● وكلمة «اقرأ» لها إيحاءات ودلالات أكثر من معناها المباشر الذى أوضحناه آنفاً؛ ومن هذه الإيحاءات والإشارات ما نذكره فيما يلي:

– توحى بوجوب قراءة ما يحيط بالإنسان من موجودات، والتأمل فيها، وإعمال الفكر، والتدبر لأخذ العظة والعبرة.

وهذه الموجودات فى مقدمتها الإنسان أكرم خلق الله على الله، والمكلف الوحيد من بين مخلوقاته، لما منحه الله تعالى من عقل لم يمنحه مخلوقا سواه من مخلوقاته.

والقرآن الكريم يطالب الإنسان بأن ينظر إلى مخلوقات الله تعالى فى الأرض التى يعيش عليها، وأن ينظر فى نفسه، ينظر فى ذلك كله ويفكر ويتأمل ويتدبر، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)** ﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢٢].

– وتوحى كلمة «اقرأ» بالاستزادة من العلم وطلب تلك الاستزادة باستمرار، لأن العلم معين لا ينضب، والإنسان فى حاجة مستمرة إليه ليواجه متطلباته فى الحياة، ويستشف ذلك المعنى من قول الله تعالى: ﴿ **... وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)** ﴾ [طه: ١١٤].

وذلك أن الاستزادة من العلم تعنى الاستزادة من التفكير العلمى فيما يستحدث من متغيرات وأحداث تقتضى مواجهتها بالعلم، وتعنى أخذ الاستدلالات من هذه المتغيرات استناداً إلى العقل، للعمل على الاستفادة منها.

وبذلك يتأكد لكل ذى عقل أنه لا تعارض أبداً بين العقل والشرع لأن الله تعالى أنزل على رسول الخاتم ﷺ شرعاً يقبله العقل ويقره مادام هذا العقل يفكر وفق منهج صحيح فى التفكير دون تعصب أو إيثار للهوى.

– وتوحى كلمة «اقرأ» – وهى خطاب للنبى ﷺ، وبعد ذلك هى خطاب لكل مؤمن إلى يوم القيامة – توحى بأن دين الإسلام – الذى هو آخر الأديان وخاتمها – مرتكز على العلم إلى جوار الوحى، أى أن العقل الذى يدرك العلم أساس فى هذا الدين الخاتم، ويستحيل أن يتعارض مع الشرع.

● إن الدين الذى تكون أول كلمة من كتابه: «اقرأ» وتكون هذه القراءة مقيدة بأن تكون

باسم الله الذى خلق الإنسان وعلمه بالقلم، ما لم يكن يعلم، هذا الدين لابد أن يقيم للعلم والعقل – الذى هو أداة العلم ووسيلته – أكبر وزن بين كل الأمور التى لها وزن فى حياة الإنسان.

- والعلم لا يأتى عفواً أو دون طلب، وإنما تسبقه عملية طلب وتعلم، فإذا جاء العلم بعد التعلم، فليس من المصلحة حبسه فى الصدور أو فى العقول، وإنما نشره هو الأصل وهو الأساس، لتتسع دائرة المتعلمين، فيزداد العلم عمقاً وتنوعاً، لتتم حلقات الثقافة أو مظاهر الحضارة والعمران.

- لذلك كان لزاماً علىّ أن أتحدث عن كل حلقة من هذه الحلقات الثلاث: التعلُّم، والعلم، والتعليم، حديثاً يكشف عن أبعادها التى نحب أن نوضحها، والله المستعان.

أولا : فقه التعلم

وإنما قلنا : فقه التعلم، ليتضح أن التعلم فى الإسلام مطلب شرعى له فقهه، وليس تجملاً أو عملاً كمالياً من شاء فعله ومن شاء تركه، والتعلم هو طلب العلم.

التعلم واجب أوجبته على المسلمين آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية المطهرة.

– قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)** ﴾ [التوبة : ١٢٢].

● قال المفسرون ومنهم القرطبى رحمهم الله :

«هذه الآية أصل فى وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافة والنبى ﷺ مقيم لا ينفر فيتركوه وحده، فلولا نفر – بعد ما علموا أن النفير لا يسع جميعهم – من كل فرقة منهم طائفة وتبقى بقيتهم مع النبى ﷺ ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموهم.

وفى هذا إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)** ﴾ [النحل : ٤٣](١).

● وقال بعض المفسرين :

هذه الآية فى الجهاد، وأنه ليس فرضًا على الأعيان، وأنه فرض على الكفاية، إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد، وليقم فريق يتفقهون فى الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع.

● والتعلُّم هو طلب العلم.

وهو ينقسم إلى قسمين – كما قال بذلك كثير من العلماء – :

– فرض على الأعيان :

وذلك كالصلاة والزكاة والصيام فهى فرض على كل مسلم عيناً، وفى هذا المعنى جاء

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ٤ /٣١٣٣ ط الشعب – القاهرة دون تاريخ.

الحديث الشريف الذى رواه ابن ماجه بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

- وفرض على الكفاية:

وذلك مثل تحصين الحصون وإقامة الحدود، والفصل بين الخصوم، ونحو ذلك؛ إذ لا يصح أن يتعلمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سواهم، وتنقص معايشهم، فتعين بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين، وذلك بحسب ما يسره الله لعباده وقسمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته.

● والتعلم - أى طلب العلم - فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة، لا يوازيها عمل.

- فقد روى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر».

- وروى الحاكم بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاء مسجدى هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه، فهو فى منزلة المجاهد فى سبيل الله، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره» ورواه ابن ماجه بسنده عن أبى هريرة أيضاً.

- وروى البخارى بسنده عن محجن بن الأدرع - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خير دينكم أيسره، وخير العبادة الفقه».

ورواه الإمام أحمد بسنده عن محجن أيضاً.

والفقه الذى هو خير من العبادة هو التعلم أو طلب العلم.

- وروى ابن عبد البر - فى كتابه: جامع بيان العلم وفضله - بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «العلم خير من العبادة، وملاك الدين الورع»، والعلم فى هذا الحديث الشريف يقصد به: طلب العلم.

– وروى ابن عبد البر – فى جامع بيان العلم وفضله – بسنده عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه، وما عُبِدَ الله بشيء أفضل من فقه فى الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد».

– وروى ابن عبد البر أيضاً بسنده عن أبى أمامة الباهلى – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبل أن يرفع، ثم جمع بين إصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام، ثم قال: إن العالم والمتعلم شريكان فى الأجر، ولا خير فى سائر الناس بعد».

– وروى ابن عبد البر بسنده عن خالد بن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك».

– وروى ابن عبد البر أيضاً بسنده – فى كتابه السابق ذكره – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – وعن أبى ذر – رضى الله عنه – قالا: باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوع.

وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إذا جاء الموت طالب العلم، وهو على تلك الحال، مات وهو شهيد».

– وروى ابن عبد البر بسنده عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من غدا فى طلب العلم صلّت عليه الملائكة، وبورك له فى معيشته، ولم ينقص من رزقه، وكان عليه مباركاً».

– وروى ابن عبد البر بسنده عن عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءه أجله وهو يطلب علماً ليحيى به الإسلام لم تفضله النبيون إلا بدرجة».

– وروى الدارمى بسنده عن الحسن – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام، فبينه وبين النبيين درجة واحدة فى الجنة».

● وفى التعلم – أى طلب العلم – محاذير يجب أن تتقى، حتى يكون طلب العلم خالصاً لله تعالى.

ومن هذه المحاذير ما نبه عليه رسول الله ﷺ؛ فقد روى الدارمى بسنده عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب العلم ليباهى به العلماء، أو ليمارى به السفهاء، أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه أدخله الله جهنم».

– وروى ابن عبد البر بسنده عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «العلماء أمناء الرسول على عباد الله مالم يخالطوا السلطان – يعنى فى الظلم – فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم».

– وروى ابن عبد البر بسنده عن أبى الدرداء – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله فى بعض الكتب – أو أوحى إلى بعض الأنبياء – قل للذين يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مُسُوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب، وألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، إياى يخادعون، وبى يستهزئون، لأُتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيرانا».

– وروى ابن عبد البر بسنده عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة – يعنى ريحها».

– وروى ابن عبد البر بسنده عن يزيد بن أبى حبيب – رضى الله عنه – قال: سئل رسول الله ﷺ عن الشهوة الخفية فقال: «هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه».

● وطلب العلم – أى التعلم – صفة يجب أن تلازم الإنسان طول حياته، فلقد أثر قول حكيم نسبه بعضهم إلى النبى ﷺ(1) هو: «لايزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل».

– وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من مائة ركعة».

وفى رواية لابن حبان: «خير له من الدنيا وما فيها».

● ولعلمائنا رحمهم الله فى طلب العلم كلمات جديرة بالتسجيل فى هذا المجال الذى نحن فيه، ومن ذلك:

– قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: الناس أبناء ما يحسنون، وقدر كل امرئ ما يحسن، فتكلموا فى العلم تتبين أقداركم».

---

(1) ممن نسب ذلك إلى رسول الله ﷺ ابن عبد ربه، فى كتابه: العقد الفريد: ٢/٢٠٩، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٥٩هـ – ١٩٤٠م.

– وقال ابن المبارك رحمه الله: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة؟

– وقال عطاء: مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو.

– وقال الإمام الشافعي: طلب العلم أفضل من النافلة.

● ولأبى الدرداء الصحابى الجليل وهو حكيم فارس، روى عن النبى ﷺ: «عويمر – وهو اسم أبى الدرداء – حكيم أمتى» وروى عنه ﷺ: «نعم الناس عويمر» ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وهو أول قاض بها، مات بالشام سنة ٣٢هـ، وروى عنه أهل الحديث: ١٧٩ حديثاً نبوياً. ومن كلماته فى طلب العلم – التعلم –:

– لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة.

– العالم والمتعلم شريكان فى الخير وسائر الناس همج لا خير فيم.

– كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك.

– من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله.

● وقيل لأبى عمرو بن العلاء: هل يحسن بالشيخ أن يتعلم؟ قال: إن كان يحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم.

● وروى عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – من طرق، أنه كان يقول إذا رأى الشباب يطلبون العلم: مرحباً بينابيع الحكمة ومصابيح الظلم، خلقان الثياب، جدد القلوب، حبس البيوت، ريحان كل قبيلة[1].

● وعن الحسن البصرى فى قوله تعالى: «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة»، الحسنة فى الدنيا: العلم والعبادة، وفى الآخرة: الجنة.

---

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله: ١/٥٢ ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – دون تاريخ.

ثانيا : فقه العلم

ونعنى بالعلم هنا : تحصيله وامتلاكه بعد طلبه، واستيعاب مسائله بعد معرفتها بالسؤال عنها، والبحث والتحرى لمفرداتها.

● ونحب أن نرتب مسائل العلم وقضاياه - فى هذا الكتاب - نوعين من الترتيب، لما نراه من مناسبة ذلك لاهتمام الإسلام بالعلم، وهذا الترتيب من اختيارنا فهو أشبه بمصطلح نستعمله فى هذا الكتاب ولا مشاحة فى الاصطلاح كما قال الأسلاف رحمهم الله، مهما خالف هذا المصطلح ما تعارف عليه بعض العلماء.

● ويؤدى هذا الترتيب إلى أن نقسم العلم إلى قسمين: دينى ودنيوى.

الأول: العلم الدينى:

أى علم ما يصح به التدين، من الكتاب الكريم والسنة النبوية والسيرة المطهرة وفقه العبادات والمعاملات، مع التقيد بأخلاق الإسلام على كل حال، وفى أى زمان وأى مكان.

- ولهذا القسم فروع عديدة بعضها يتصل بالعقيدة وبعضها يتصل بالعبادة أو المعاملة، وبعضها يتصل بالأخلاق.

- وهذا القسم من العلم لا غنى عنه لأى مسلم، فهو واجب شرعاً، إذ لابد لصحة التدين من معرفته والعمل به، حتى إن العمل به هو الهدف، لأن ترك العمل بهذا النوع من العلم، لا قيمة لعلمه مهما حصّل منه شيئاً كثيراً، بل هو أقرب إلى المذمة والنفاق لأنه يعلم ولا يعمل.

- وليس التبحر فى هذا القسم من العلم واجباً على كل مسلم، وإنما هو واجب على فئة من المسلمين تتخصص فيه، لتحيى به الدين وتجدد أمره فى نفوس المسلمين.

- وليس هذا القسم من العلم «كهنوتا» يحتكره من تخصصوا فيه، لأنه: لا كهانة فى الإسلام، وإنما هو حق لكل من سأل عنه، لا يدخل فى دائرة الأسرار بحال؛ لأنه لا أسرار فى الإسلام، وإنما الإسلام محجة ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، مصداقاً لقوله ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن عرباض - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «تركتم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك، ومن يعش منكم

فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتى، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ . . . » .

والثاني : العلم الدنيوى :

وهو علم كل ما يحتاج إليه المسلم فى حياته الدنيا، والحياة الدنيا فى الإسلام لا تقل أهمية عن الحياة الأخرى إذ هى مزرعة لها وطريق إليها، ولا يحل لمسلم أن يضيع حياته الدنيا كما لا يحل له أن يضيع حياته الأخرى .

● ولا تستطيع الحياة الدنيا أن تكون مزرعة للآخرة إلا إذا ذخرت بالعمل الصالح الذى يرضى الله تبارك وتعالى، أى خضعت لقيم الدين ومعاييره والتزمت بما أحل الله وما حرم، وهذا وصل ما بين الدين والدنيا، نرجو أن يدركه الذين يقولون بفصل الدين عن الدنيا .

– والحياة الدنيا لا تكون مرضية لله تبارك وتعالى إلا إذا حافظت على تكريم الإنسان الذى كرمه خالقه سبحانه وتعالى، ولا تستطيع أن تكفل له هذا التكريم إلا إذا استهدت الدين وانصاعت لمبادئه ومنهجه ونظامه .

– ولهذا العلم الدنيوى فروع كثيرة ربما كانت غير قابلة للحصر تبعاً لما يستحدث من مستجدات تستلزم علوماً جديدة للتعامل معها، وهكذا . . .

– ومهما قسمها العلماء إلى علوم تتصل ببدن الإنسان وأخرى تتصل بعقله وثقافته، وثالثة تتصل بنظامه الاجتماعى، ورابعة بنظامه الاقتصادى، وخامسة بنظامه السياسى، وسادسة تتصل بالأرض وما فيها، وسابعة تتصل بالبحار، وثامنة تتصل بالأجواء، وتاسعة تتصل بتاريخ الإنسان، وعاشرة تتصل بالترفيه عن الإنسان، فإن هذه الأقسام غير متناهية . .(١) .

– ولكننا نستطيع أن نجمل هذه العلوم الدنيوية فى كلمات وجيزة هى : هى كل علم يمكن الإنسان من القدرة على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة، وإنما تكون الحياة الإنسانية كريمة إذا استطاع الإنسان فيها أن يمارس حريته، ويحمى نفسه وماله وولده ووطنه من كل ما

---

(١) وقد قسمت العلوم ورتبت ترتيباً تنازلياً، أى بدأت بالأعم كالتالى : – علم المنطق، وعلم الحساب، وعلم الهندسة، وعلم الحركة، وعلم الميكانيكا، وعلم الطبيعة، وعلم الفلك والجيولوجيا والكيمياء والبيولوجيا وعلم النفس، وعلم الاجتماع .

وتحت هذه العلوم أقسام لا تكاد تحصى اليوم من كثرة ما تفرعت، فعلم الاجتماع مثلاً تحته اليوم : أكثر من عشرين علماً، وعلم النفس : تحته أكثر من خمسة عشر علماً، وكذلك علم السياسة، وعلم التربية، وعلم اللغة، وهكذا . . .

يخافه على هذه الخصوصيات.

- وهذا العلم أو العلوم الدنيوية واجبة شرعاً، ولكنها من فروض الكفاية، التى يغنى فيها أن يقوم بها بعض الناس فتحقق الكفاية بهم، فيسقط هذا الواجب عن سائر الناس.

- وليس يجوز للمسلمين أن يتركوا البحث بل التبحر فى هذه العلوم لكى يحموا بها أنفسهم من التخلف والضياع وعدوان أعدائهم عليهم، إذ ليسوا يعفون من الوصول إلى التفوق العلمى فى كل مجال، لأن أعداءهم المتربصين بهم يتفوقون عليهم علمياً اليوم - مثلاً - وإنما أقول: لا يجوز للمسلمين أن يتخلفوا فى العلم عن عدوهم، لأن الله تعالى يقول: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

● والإعداد للأعداء يتناول كل إعداد، وهو فى مجموعه يعتمد على العلم، وإذا كانت الآية الكريمة واردة فى مجال الجهاد، فإن المتفق عليه بين علماء المسلمين أن العبرة فى آيات القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا هو معنى شمول القرآن الكريم وخلوده وقدرته على مواكبة الزمان والمكان وسائر المتغيرات، وهو المعنى الدقيق لكونه هدى للناس فى كل زمان ومكان.

وبعد:

● فإن العلم الدينى والعلم الدنيوى أوجبهما الله تعالى على سبيل فرض الكفاية غالباً وعلى سبيل فرض العين أحياناً، وذلك أن حياة الإنسان الكريمة اللائقة بتكريم الله تعالى للإنسان هدف رئيسى فى الإسلام، ولا استقرار لهذه الحياة ولا سبيل إلى الحصول عليها إلا بعلم الدين والدنيا معاً.

- وعلم الدين أو علومه عمدتها ومرجعيتها مقصورة على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما يمكن أن يجتهد فيه المسلم من تفسير لهذين المصدرين، أو تجتهد فيه جماعة من علماء المسلمين فيقرروه لجلب مصلحة أو دفع مضرة، لتنتظم حياتهم فى ظل إرضاء الله تعالى باتباع منهجه ونظامه.

- وعلم الدنيا أو علومها عمدتها البحث والتدقيق واتباع المنهج العلمى فى هذا البحث، ومجال هذه العلوم أوسع من كل تصور وأرحب من كل خيال.

– وعمل العقل فى هذه العلوم لا يقف عند حد معروف، إنما له أن يواصل البحث والكشف فى كل مجال يحتاج الإنسان إلى البحث فيه لتحقيق مصالحه، كى يعود على الإنسانية كلها بأقصى فائدة متاحة للتعامل مع الكون كله، أرضه ومائه وفضائه وسمائه، وكل ما يستطيع الإنسان أن يتوصل إليه من كشف واختراع.

وذلك أن العقل البشرى – من أكبر نعم الله على الإنسان – إنما خلقه الله تعالى وأنعم به على الناس ليعمل هذا العقل بل ليواصل العمل طالما كان على الأرض حياة.

– وإن إشارة قرآنية كريمة لتوحى إلينا بأن هذا العقل يجب أن يعمل باستمرار، وبأنه مهما عمل فى عصر من العصور، ومهما توصل إليه من مكتشفات ومخترعات فإنه ما أوتى من العلم إلا قليلاً – فى حدود ما يمكن أن يصل إليه – وأن عليه أن يواصل العمل دون كلل أو ملل مستزيداً من العلم، حتى يلائم بين عمل عقله واحتياجاته الإنسانية من أجل الحياة الكريمة التى خلقها الله تعالى له.

– وتلك الإشارة القرآنية هى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء: ٨٥].

والمعنى الذى أحس به فى هذه الآية الكريمة فى هذا المجال الذى أتحدث فيه عن عمل العقل هو: فلتعمل عقول الناس فى مجال العلم، ولتدركوا أيها الناس أن ما تهتدون إليه من علم ما هو إلا القليل من الكثير الذى هيأ الله عقولكم لأن تصل إليه، فواصلوا البحث ما حييتم، حتى يكثر هذا القليل الذى توصلتم إليه.

– بل إن توجيهاً قرآنيا كريماً بطلب المزيد من العلم، خوطب الرسول ﷺ بهذا التوجيه، حتى أصبح ذلك الطلب للمزيد من العلم شعاراً لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وذلك قول الله تبارك وتعالى مخاطباً النبى ﷺ وكل مسلم: ﴿ ... وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ [طه: ١١٤].

فإذا كان ذلك شعار رسول الله ﷺ، وقد مَنَّ الله تعالى عليه بصنوف العلم؛ فما بال المسلم الذى يجب عليه أن يتخذ من رسول الله ﷺ أسوة حسنة؟

– ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أى زدنى قدرة على تعلم العلم والكشف عن أبعاده وأسراره وهيئ لى أن أسخره لما يصلح لى معاشى ومعادى، وأن أهتدى إلى ما ينفعنى منه فى دينى

ودنياى.

- وأخبار ارتحال أسلافنا من أجل العلم وتحملهم فى سبيله المشقات كثيرة ومشوقة ومعلمة وهادية.

وما كان ذلك منهم إلا استجابة منهم لطلب الازدياد من العلم الذى وُجّه إليهم فى خطاب الرسول ﷺ.

بل إن حديثاً نبوياً شريفاً يحمل إلينا من الإيحاءات والإشارات ما يوضح لنا أهمية العلم وأهمية طلب الازدياد منه، والسعى إلى هذا الازدياد وبذل الجهد فيه.

وذلك الحديث الشريف هو ما رواه ابن عبد البر فى كتابه: جامع بيان العلم وفضله بسنده عن جابر – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من معادن التقوى، تعلُّمك – إلى ما قد علمت – علم ما لم تكن تعلم، والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه، وإنما يُزهّد الرجل فى علم ما لم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم» رواه الخطيب البغدادى.

- ومن دلالات هذا الحديث الشريف وإشاراته تأكيد عدد من الحقائق الهامة فى مجال العلم والازدياد منه، وتلك الحقائق هى – فى تصورنا – ما يلى:

– أن من تقوى الله عز وجل أن يتعلم الإنسان فى كل يوم جديداً يضيفه إلى ما يعلم، وأن يكون ذلك شأنه دائما.

– وأن قلة الازدياد من العلم تعد نقصاً فى العلم الذى حصله الإنسان، لأن عدم الإضافة إلى العلم تجعله يبدو كما لو كان ناقصاً، بل هو ناقص بالفعل.

– وأن قلة الانتفاع بالعلم هى التى تزهد الإنسان فى العلم الجديد، أى علم ما لم يكن الإنسان عالماً به من قبل.

– وأن المطلوب من المسلم أن يتعلم ويعلم ويضيف إلى علمه علماً، وأن ينتفع بعلمه ويعمل بما فيه، لأنه لا قيمة لعلم لا يؤدى إلى عمل.

- وقد يتهم بعض علماء الحديث هذا الحديث بالضعف لبعض العلل التى تعرض لمتنه أو سنده فيوصف من أجلها بأنه ضعيف، ولكن المعانى التى أشار إليها الحديث والقيم التى يدعو إليها ويحبب فيها، من طلب العلم والازدياد منه، تؤيدها أحاديث نبوية أخرى كثيرة ولاشك فى صحتها، ذكرنا كثيراً منها آنفاً، ونذكر بعضها الآن، ومن ذلك ما يلى:

– روى الترمذى وابن حبان فى صحيحيهما بسندهما عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يشبع المؤمن من خير يسمعه – أى علم – حتى يكون منتهاه الجنة».

– وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن معاوية – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» وفى رواية للطبرانى فى الكبير زاد: «ويلهمه رشده».

– وروى أبو نعيم فى كتابه: «حلية الأولياء» بسنده عن أنس – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك».

– وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن عائشة – رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علماً يقربنى إلى الله عز وجل، فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم».

● وما يفوتنا فى هذا المجال: «فقه العلم» أن نذكر ما أوصى به على ابن أبى طالب كُمَيْلاً فى العلم.

روى الشريف المرتضى فى كتابه: «نهج البلاغة» عن كُمَيل بن زياد النخعى قال كميل: أخذ بيدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب – رضى الله عنه – فأخرجنى إلى الجبانة فلم أصحر تنفس الصعداء، ثم قال:

«يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عنى ما أقول لك:

الناس ثلاثة:

– فعالم ربانى.

– ومتعلم على سبيل نجاة.

– وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

يا كميل: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله.

يا كميل: العلم دين يُدان به، به يكسب الإنسان الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

يا كميل: هلك خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم فى القلوب موجودة.

ها.. إنَّ ههنا لعلماً جماً - وأشار إلى صدره - لو أصبت له حملة، بل أصبت لقناً غير مأمون عليه مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق لا بصيرة له فى أحنائه، ينقدح الشك فى قلبه لأول عارض من شبهة، ألا لا ذا ولا ذاك، أو مفهوماً باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والإدخار، ليسا من دعاة الدين فى شئ، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه.

اللهم بلى.

لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً أو طائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا وأين أولئك، أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه، آه.. آه شوقاً إلى رؤيتهم، انصرف إذا شئت.

- وسئل ابن المبارك؛ من الناس؟

فقال العلماء:

قيل فمن الملوك؟

قال: الزهاد.

قيل: فمن السفلة؟

قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين.

قال الإمام أبو حامد الغزالى فى التعليق على كلمة ابن المبارك.

فلم يجعل غير العالم من الناس، لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه؛ فإن الجمل أقوى منه،

ولا بعظمه؛ فإن الفيل أعظم منه.

ولا بشجاعته؛ فإن السبع أشجع منه.

ولا بأكله؛ فإن الثور أوسع بطناً منه.

ولا ليجامع ؛ فإن أخسَّ العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا للعلم[1].

– وروى ابن عبد البر في كتابه: «جامع بيان العلم وفضله» – قال: قال قتادة: لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً».

– وقال ابن مسعود – رضى الله عنه –: «عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فوالذى نفسى بيده ليودن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء، أن يبعثهم الله علماء، لما يرون من كرامتهم، فإن أحداً لم يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم»[2].

– وقال لقمان لابنه: يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء»[3].

---

(١) الإمام الغزالى: إحياء علوم الدين: ١/٧ ط العثمانية المصرية، القاهرة: ١٣٥٢ هـ – ١٩٣٣م.
(٢) السابق: ١/٨.
(٣) السابق: ١/٨.

ثالثاً : فقه التعليم

ونعنى بالتعليم نشر العلم وإذاعته فى الناس، وهذا عمل طالب به الإسلام، حيث أوجبته آيات القرآن الكريم، وكلمات السنة النبوية المطهرة، ولا قيمة لعلم لا يتبعه تعليم.

● أما آيات القرآن الكريم الدالة على ذلك فمنها:

– قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ...**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فهذه الآية الكريمة توجب على من آتاه الله علماً – من أهل الكتب السماوية – أن يعلمه الناس ويذيعه فيهم، وأن يحذر كتمان شىء منه.

والمسلمون بصفة خاصة مطالبون فى تبيين العلم الذى آتاهم الله – وهو الكتاب والسنة – بأمرين:

أحدهما:

دعوة غير المسلمين للدخول فى الإسلام، بأن يشرحوا لهم الكتاب والسنة شرحاً يلائم عقولهم، ويناسب العصر الذى يعيشون فيه، ويدخل فى ذلك الشرح؛ بيان العقيدة والعبادة والمعاملة، ورد الشبهات ودفع المفتريات.

والآخر:

إرشاد المسلمين إلى الأخذ بما فى الكتاب والسنة وتطبيقه على أنفسهم فى تعاملهم مع الله ومع أنفسهم ومع الناس، حتى يخرجوا بذلك من تخبط العصر، وما يشيع فيه من ضلال وحيرة وقلق واضطراب وبعد عن الحق.

– هذا النوعان من التبيين وجبا على المسلمين بهذه الآية الكريمة.

– ثم وجب بهذه الآية الكريمة عدم كتمان العلم «ولا تكتمونه» وفى هذا المجال كلمة ممتازة لأبى هريرة – رضى الله عنه – توضح مدى فقهه لعدم كتمان شىء مما علمه الله من كتاب الله وسنة رسول ﷺ.

فقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: «إن الناس

يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثتُ حديثاً، ثم يتلو: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)** ﴾ [**البقرة**: ١٥٩، ١٦٠]، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ لشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون».

– وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)** ﴾ [**آل عمران**: ١٠٤].

وكلمة «منكم» في الآية ليست للتبعيض، وإنما هي لبيان الجنس كما يرى ذلك بعض العلماء بالتفسير، قالوا: ونظيرها في بيان الجنس قوله تعالى: ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ** ﴾ [**الحج**: ٣٠]، أي من جنس الأوثان لا من بعض الأوثان.

ولو كانت «منكم» للتبعيض لكان المعنى: أن الدعوة إلى الله وإلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكان ذلك كله واجباً على بعض المسلمين دون سائرهم، وهذا ليس صحيحاً، لدليلين:

أولهما:

أن الله تبارك وتعالى أوجب هذه الأعمال على الأمة كلها كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ.. (١١٠)** ﴾ [**آل عمران**: ١١٠].

والآخر:

أنه لا مكلف إلا وتجب عليه الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إما بيده أو بلسانه أو بقلبه، لما رواه مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

– وقال الله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... (١٢٥)** ﴾ [**النحل**: ١٢٥].

فهذه الدعوة إلى سبيل الله تعليم، وهى واجبة على كل مسلم بنص هذه الآية الكريمة.

ـ وقال جل شأنه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾ [فصلت: ٣٣].

فالدعوة إلى الله أحسن ما يقول الإنسان، والدعوة إلى الله تعليم للناس وتبصير لهم بهذا الدين العظيم الخاتم.

● وهذه الآيات الكريمة التى ذكرنا توجب التعليم على كل من علم شيئا من هذا الدين ولديه القدرة على نشره وإذاعته فى الناس.

● ووجوب التعليم جاء فى بعض هذه الآيات مصحوبا بتحريم الكتمان كما دلت على ذلك بعض هذه الآيات الكريمة مثل:

﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه.. ﴾.

و ﴿ .. وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾.

فالتعليم كالشهادة يحرم كتمانه ويأثم كاتمه، وقد قال الله تعالى فى الشهادة: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ.... (٢٨٣) ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ـ وفى تحريم كتمان التعليم روى أبو نعيم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه».

● وأما الأحاديث النبوية الدالة على وجوب التعليم فكثيرة حتى إن بعض العلماء أفرد العلم والتعليم بالتأليف[1]، ونحن نذكر من هذه الأحاديث الشريفة ما يلى:

ـ روى الطبرانى فى المعجم الكبير بسنده عن أبى رافع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه:

---

(١) من هؤلاء:

أ ـ ابن عبد البر فى كتابه: جامع بيان العلم وفضله ـ مرجع سابق.

ب ـ الزر نوجى فى كتابه: تعليم المتعلم طريق التعلم. ط الحلبى مصر ١٩٤٨م.

جـ ـ ابن جماعة فى كتابه: تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم. ط حيدر أباد ١٣٥٣ هـ.

«يا على، لأن يهدى الله على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس».

– وروى البخارى بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها:

نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

وكانت منها أجادب: أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا.

وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كَلأً، [فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فَعَلِم وعَلَّم،

ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَلَّم علما فله أجر ذلك ما عمل به عامل، لا ينقص من أجر العامل شيء».

– وروى أبو يعلى بسنده –فى مسنده– عن أنس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن أجود الأجواد؟.

قالوا: بلى يا رسول الله. قال الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدى رجل علم علما فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة واحدة، ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل» ورواه الطبرانى فى الكبير بسنده عن سلمان رضى الله عنه.

– وروى ابن عبد البر –فى جامع بيان العلم وفضله– بسنده عن الحسن رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من الصدقة أن يتعلم الرجل العلم، فيعمل به ثم يعلمه».

– وروى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلِّموا ويسروا ولا تعسروا...».

– وروى الديلمى –فى مسند الفردوس– بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من تعلم بابا من العلم ليُعَلِّم الناس، أعطى ثواب سبعين صديقا».

– وروى الإمام أحمد بسنده عن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له: «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها».

– وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ

لك مسلم تُعَلّمها إياه، تعدل عبادة سنة».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو مُعَلّما أو متعلما» ورواه الترمذى.

– وروى الترمذى بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه، حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير».

– وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، فرأى مجلسين.

أحدهما؛ يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه.

والثانى؛ يعلمون الناس، فقال: «أما هؤلاء فيسألون الله تعالى، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلمون الناس، وإنما بعثت معلما، ثم عدل إليهم وجلس معهم».

– وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَن تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا».

– وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له».

– وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها، ويُعلمها».

● وفى تراثنا الكثير والكثير مما يرفع من شأن التعليم ويجعله فضيلة من أعظم الفضائل، وحسبنا فى ذلك ما ذكرناه من آيات كريمة وأحاديث نبوية شريفة.

● ولقد حدَّد بعض العلماء للتعليم ومن يقوم به شرائط، وسموا للتعليم وظائف تدل على خطر التعليم وجليل أثره فى الناس وعظيم أجره عند الله تعالى.

● إن من يمارس تعليم غيره من الناس يجب أن تتوفر فيه صفات عديدة، نذكر منها ما يلى:

أولا :

طَهارة الخُلق والبُعدُ عن الرذائل .

وذلك أن من يعلم غيره يقرن تعليمه له بدعوته إلى العمل بما علم، لأنه ما عَلَّم إلا بعد أن عمل بما علم .

والعامل بالعلم زكى النفس كريم الأخلاق أبعد ما يكون عن الرذائل وإلا فقد تعليمه لغيره؛ القيمة الحقيقية للتعليم وهى العمل بما فى العلم .

ثانيا :

الإخلاص فى تعليم غيره

أى أنه يقصد بتعليمه لسواه وجه الله، ولا تطمح نفسه إلى كسب مادى أو تقرب من سلطان أو الحصول على جاه أو منصب، وذلك أن الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، والتعليم من أفضل الأعمال عند الله إذا خلصت فيه النية وقصد به وجه الله تبارك وتعالى .

وآية إخلاصه فى تعليمه أن يكون عاملا بما علم – كما قلنا آنفا –

ثالثا :

الاستمرار فى التَّعَلُّم .

أى أن الذى يعلم غيره، لابد أن يكون مستمرا فى التعلم حتى لا يصدأ قلبه، ولا ينضب علمه، ولا يتبلد فكره، وقد ذكرنا آنفا، أمر الله تعالى لنبيه ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾ .

وقد سئل ابن المبارك رحمه الله : إلى متى تتعلم ؟

فقال : لعل الكلمة التى أنتفع بها لم أسمعها بعد .

فعلى من يمارس التعليم أن يستمر فى تلقى العلم والاطلاع على كل جديد، وكل ما من شأنه أن يغذى قلبه وعقله، حتى يكون مؤهلا تأهيلا جيداً لتعليم غيره .

رابعًا :

أن يجعل المتعلم على يديه بمثابة ولده .

والولد من والده محل الحب والاشفاق والرغبة فى كل ما يصلحه، وهكذا ينبغى أن

يكون شعور من يُعلِّم نحو من يعلمهم، وقد كان النبى ﷺ، وهو الأسوة والقدوة، وقد صرح ﷺ بهذا، فيما رواه أحمد وأبو داود والنسائى بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم..».

خامسا :

أن يكظم غيظه وهو يعلم

ومعنى ذلك أن من يمارس التعليم يجب عليه أن يكون حليما واسع الصدر، يسمع كل سؤال ولا يضيق بسائل، وإنما يحاول أن يجيب عنه بما يدفع الشبهة ويريح السائل، وليس له أن يظهر غيظا من سائل أو موقف أو إلحاح أو إكثار من السؤال، لأن التعليم إنما يقوم على السؤال والمناقشة، وقد قال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكى فقلت: ما يبكيك؟ فقال: ليس أحد يسألنى عن شىء.

وبعـد :

فلعلى بالحديث عن فقه التعلم وفقه العلم، وفقه التعليم أكون قد وضحت أهمية التعلم والعلم والتعليم، فى هذا الفصل من الكتاب.

- ولست بحاجة لأن أؤكد أن هذه الثلاثة: التعلم والعلم والتعليم هى عمل للعقل، والعقل آلتها ووسيلتها، وأن الإسلام وهو يوجب التعلم والعلم والتعليم، يعطى للعقل حقه بل حقه من الفكر والتأمل والنظر والتدبر ليحصل هذا العلم وينشره من خلال التعليم.
- وهذا الحق الذى منحه الإسلام هو الحرية التى أتاحها له كما أتاحها للعلم، كما سنوضح ذلك فى النقطة الثالثة من هذا الفصل من هذا الكتاب، والله سبحانه هو الموفق.

٣ - حرية العقل وحرية العلم

نعنى بالحرية: الخلاص من الشوائب، والتخلص من أنواع التضييق التى تحولُ بين الإنسان وحقوقه الإنسانية التى جاء بها الإسلام وسوَّغها العقل، بل أوجدها تقديراً واحتراما له.

- وهذا الخلوص أو الخلاص من الشوائب والعوائق والتضييق، أصل أصيل جاء به الإسلام وقرره بل ألزم به - كما ألزم بالعبادات مثلا - ليكفل للإنسان حقوقه وحرياته كاملة غير منقوصة سواء أكانت هذه الحرية لنفسه أو لعقله أو لعلمه وما حصله عقله من خلال تفكيره وبحثه من علوم ومعارف.

- إن الإسلام قرر للناس هذه الحرية بأنواعها المختلفة التى أشرنا إليها آنفا: ومن هذه الحريات:

أ - حرية النفوس:

وذلك أن الإسلام أقر أن الناس جميعا أحرار يملكون أمور أنفسهم لا سيادة لأحد عليهم، ولا عبودية تفرض عليهم من سلطان أو كبير أو ظالم، فالناس جميعا فى هذه الحرية سواء.

وعندما وجد الإسلام أن كثيرا من الناس قد فرضت عليهم العبودية أى الرق، كان أكبر همه أن يقضى على هذه الظاهرة التى تهين إنسانية الإنسان، فاتجه إلى أكثر من طريق يلغى الرِّق من خلالها.

وهذه الطرق التى قضى الإسلام بها على الرق هى:

أولا:

العتق:

وهو تحرير العبد من العبودية دون مقابل، تقربا إلى الله تعالى، وإنما كان العتق قربة إلى الله تعالى، لقول الرسول ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة، أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار، حتى فَرْجَه بفَرْجِه».

ثانيا :

المكاتبة :

وهى أن يعقد مالك العبد بينه وبين عبده اتفاقا على مال يؤديه العبد لسيده مقسطا، فإذا دفعه صار حرًّا، ومن أخلاق الإسلام أن يكاتب السيد عبده وأن يعينه على أداء ما اتفق عليه، وأن يتنازل له عن قدر من مال الكتابة، فقد قال تعالى: ﴿ **فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا** (٣٣) ﴾ [النور: ٣٣].

ثالثا :

التدبير

وهو عتق السيد لعبده أو أمته عن دبر أى بعد موته، وهو نوع من العتق مشروط بأن يموت السيد، وهو جائز بل يثاب عليه السيد لأنه أعتق عبده والعتق يثاب عليه كما قدمنا.

رابعا :

الاستيلاد

وهو أن يجعل السيد مملوكته أم ولده، وبهذا يثبت لها حكم الحرية لها بعد موت سيدها، وهو عمل يؤدى إلى العتق وكل ما أدى إلى العتق فهو عمل يثاب عليه.

خامسا :

الكفارات.

حيث جعلت الشريعة الإسلامية كثيرا من الكفارات عتق رقبة مسلمة ككفارة القتل الخطأ والظهار وتعمد فطر يوم فى شهر رمضان ونحو ذلك.

● كل ذلك فعله الإسلام ليدعم حرية النفوس ويزيل عنها ربقة العبودية، وقد سبق بذلك كل دين وكل نظام.

فقد كفل الإسلام للناس حرية نفوسهم ولم يسمح بالعبودية إلا لله تعالى، ولم يجعل لأحد سلطانا على أحد إلا لله ورسوله ومنهجه وللحاكم الذى يختاره المسلمون، وهو سلطان محكوم بما فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن خرج عن هذا المنهج فلا سلطان له ولا طاعة لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

ب - وحرية العقل :

فقد قرر الإسلام للعقل حرية التفكير وحرية الإرادة والاختيار، بل أوجب على الناس أن يفكروا وأن ينظروا ويتدبروا، وجعل ذلك هو الطريق إلى الإيمان، ورفض الإيمان عن طريق تقليد السابقين أو الكبراء أو أصحاب السلطة الدينية أو السلطة الزمنية، بل أطلق للعقل حرية أن يؤمن أو يكفر، ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [**الكهف** : ٢٩].

وإن كان الأصل أن يؤدى التفكير السليم والعقل الصحيح عند التأمل والتدبر والنظر إلى الإيمان بالله تعالى، وإلى الحاجة إلى التلقى عنه وحده سبحانه وتعالى.

جـ - وحرية العلم :

فقد أعطى الإسلام للإنسان حرية العقل والتفكير - كما أسلفنا - فأتاح له حرية العلم والبحث فى كل مجال من المجالات التى تعود على الإنسان بالنفع فى دينه ودنياه.

- وحرية العلم مرتبطة بحرية الفكر التى أوجبها الإسلام، وقد أقر الإسلام فى ذلك المجال من حرية العلم عددا من الحقائق، منها :

- أن كل علم ينتهى إليه العقل الإنسانى، مقبول ما لم يجلب ضرراً للناس، لأن الإسلام قد فتح الباب واسعا للعقل فى كل مجال من مجالات العلم النافع، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** (١١٤) ﴾ [**طه** : ١١٤].

- وجعل الأمل عريضا فى استكشاف ما هو خاف من العلم، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** (٨٥) ﴾ [**الإسراء** : ٨٥].

- وفضل العلم والعلماء، وأحل العلم أعلى مكانة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ...** (١٨) ﴾ [**آل عمران** : ١٨]، وكما يفهم من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (١١) ﴾ [**المجادلة** : ١١].

- وأن الإسلام لم يضع قيدا على العلم والبحث والتفكير، إلا أن يجرى وفق القواعد الخلقية التى يراها الإسلام فى إجراء البحث العلمى من :

حياد وموضوعية، وتجرد عن الهوى والميول الشخصية، ومن اتباع للخطوات التى ارتضاها الإسلام للبحث العلمى[1].

ء – والحريات الخاصة. فقد كفل الإسلام هذه الحريات كلها وهى كثيرة ومنها :

– حرية الملك والتملك،

– وحرية العمل، والحركة ،

– وحرية الكسب، والاقتناء،

– وحرية التنقل، والإقامة ،

– وحرية النقد والاعتراض من غير إساءة لأحد إساءة شخصية،

– وحرية التدين،

– والحرية السياسية،

– وحرية التعبير،

– وسائر الحريات الشخصية .

● ومجمل هذه الحريات أن يعيش الإنسان حرا لا سيطرة لأحد عليه ولا افتئات على حق من حقوقه ولا حرية من حرياته، طالما هو فى مجتمع مسلم يأخذ فى نظام حياته بالمنهج الذى جاء من عند الله تبارك وتعالى .

● ولعلى قد أوضحت فى إجمال معنى حرية العلم وحرية العقل كما كفلهما الإنسان للإنسان.

أما تفصيل ذلك فهنا مكانه الآن – بعد أن أشرت إليه إشارات خاطفة فى الفصل الثانى من هذا الكتاب[2]، ولكنه التفصيل الذى يحتمله هذا الكتاب، والله المستعان.

ونحاول أن نفصل ذلك فيما يلى :

● حرية العقل : هى حرية الفكر والرأى والتعبير :

وبيان ذلك أن الفكر والرأى والتعبير هى ثمرة لعمل العقل، بل إعلان عما ينتهى إليه

(١) انظر فى ذلك للمؤلف : نحو منهج بحوث إسلامى – نشر دار الوفاء بمصر ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

(٢) وكان ذلك فى الهدف الرابع من أهداف تربية الإسلام للعقل.

العقل والفكر من غير تأثر بتقليد السابقين.

– وإذا كانت معرفة الله تبارك وتعالى واجبة بالعقل،

– والمعجزات التى جاء بها محمد ﷺ وأهمها القران الكريم لا تدرك إلا بالعقل

– وكذلك الفقه الإسلامى وهو استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، لا يتوصل إليه إلا بالعقل،

– وكذلك الاجتهاد فى فهم نصوص الكتاب والسنة لا يتم إلا بالعقل.

– وكذلك الإيمان وكل أمر من أمور الدين لابد فيه من العقل.

● إذا كان ذلك كذلك فهل توضع على العقل قيود تحد من حريته فى أعماله تلك؟

– إن وضع هذه القيود يغل العقل عن الإيمان وعن الإسلام وعن العدل والإحسان، وعن ممارسة الدعوة إلى الله، وعن ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله.

– وما كان لدين الإسلام أن يصنع هذا وهو الذى أوجب كل ذلك!!!

● إن القيد الوحيد الذى وضعه الإسلام على العقل هو أن يتجرد عن الهوى، ليصل إلى الحق.

● وكل ما جرى فى تاريخ المسلمين من وضع قيود على العقل فوق قيد التجرد عن الهوى، فهل عمل المسلمين الذين اجتهدوا فأخطأوا، ولا يجوز أن يحسب على دين الإسلام ومنهجه ومبادئه.

– وإذا كان بعض المسلمين فى بعض العصور قد استلبوا حق العقل فى حرية الفكر(1) وهو حق أصيل جاء به الإسلام على نحو لم يسبق إليه، كما سنوضح ذلك بعد قليل.

– وإذا كان بعض المسلمين فى بعض العصور قد بالغوا فى حرية العقل – حين اختلطت فلسفة اليونان بالفكر الإسلامى وأوجدت فيه ما لا يقبله دين الإسلام فى بعض المسائل،

–فإن وزر ذلك على أولئك الذين خلطوا ومزجوا بين ما يمكن خلطه أو مزجه، والإسلام فى ذلك برىء كل البراءة من أى فوضى، كما كان بريئا من كل ما يقيد العقل، إلا ما

---

(1) كما حدث من الخليفة المأمون إذا أراد أن يكره الناس على القول برأيه هو فى خلق القرآن الكريم، وآذى فى ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فهذا يحسب من أخطاء المأمون وحده.

ذكرنا من قيد التجرد عن الهوى والميل الشخصى.

● وحرية العقل فى الإسلام تعنى: حرية إرادة الإنسان. وذلك ما حرص دين الإسلام عليه كل الحرص؛ وسر ذلك فيما يبدو لكل من تفكر وتدبر فى هذا الدين: أن حرية الإرادة والاختيار، هى التى يتفاضل بها الإنسان عن غيره فى مجال التكليف الذى جاء فى منهج الإسلام ونظامه.

- ولولا حرية الإرادة والاختيار فى الأخذ بهذا المنهج ما تميز ملتزم بهذا المنهج عن عابث به أو مهمل لبعضه، ولا استبان صالح من طالح، ولا تقى من شقى.

● هذه الحرية التى قررها دين الإسلام للعقل والعلم، أقامها على دعائم ثلاثة لم يسبق إليها أى دين أو منهج أو نظام فى تاريخ الإنسان منذ عرفت عصور عاش فيها الإنسان.

وتلك الدعائم الثلاث هى:

أولا:

المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات،

وثانيا:

المسئولية الفردية أو تحمل الإنسان مسئوليته عن عمله لا عن عمل سواه،

وثالثا:

الشورى واحترام الرأى الآخر واستشارته فى كل مهم من الأمر ولكل واحدة من هذه الدعائم حديث، نرجو ألا يطول منا بما لا يطلب فى هذا المجال من الكتاب، وهذا الحديث الذى نقدمه عن كل دعامة من هذه الدعامات يحوى الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، حتى يحظى بإذن الله القبول.

أولا:

المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات

وهذه المساواة هى أولى دعائم حرية العقل وحرية العلم، إذ لا وزن لحرية فى ظل التفاوت بين الناس فى استعمالها أو التمتع بها.

غير أن هذه المساواة فى ممارسة الحرية أو الحريات التى أشرنا إليها آنفا – أى فى الحقوق –

تقتضى - من أجل تحقيق العدل - أن يقابلها مساواة فى أداء الواجبات، وهذا هو ما قرره دين الإسلام لجميع الناس، رجالا ونساء؛ مهما اختلفت ألوانهم وألسنتهم وأممهم، ومواطنهم.

● كل حق يتمتع به صاحبه فى المجتمع، لابد أن يقابله واجب يقوم به، لأن حياة الناس واجتماعهم وتعاملهم فى سلمهم وحربهم ورضاهم وسخطهم وكل أسباب معاشهم، هذه الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا إذا أخذ كل واحد من الناس حقوقه وأدى واجباته، وإلا اضطربت الحياة بالناس، واستقر بينهم ظلم لا يرتفع عنهم إلا بالحروب والويلات.

● وحقوق الإنسان التى أقرها أو جاء بها الإسلام كثيرة يمكن أن نجملها فى أنها: كل ما من شأنه أن يمكن الإنسان من حياة إنسانية كريمة.

ويمكن أن نشير إلى بعض مفرداتها فيما يلى :

- حق كل إنسان فى الحياة لا يتعرض له فيها أحد بخطر يهددها أو يهدد سببا من أسبابها، أو ينتقص شيئا منها على أى صورة من صور العدوان أو التهديد أو الانتقاص.

- وحقه فى المساواة بينه وبين غيره من الناس، المساواة بينهم فى العدل والتعامل، بمعنى ألا يتعرض لظلم يقع عليه من غيره سواء أكان هذا الغير حكومة أو جماعة أو فرداً من الناس.

- وحقه فى العمل وما يترتب عليه من كسب وامتلاك لنتيجة عمله، فليس لأحد أن يحول بينه وبين العمل ولا يحرمه شيئا من كسبه إلا برضاه، ولا يحرمه مما يستطيع أن يمتلكه من أعراض وأموال وأشياء، إلا برضاه أو وفق قانون يرضاه ويوافق عليه.

- وحقه فى التنقل أو الإقامة حيث يريد هو ومن شاء من أهله وذويه، دون أن يعترضه أحد بالمنع من الإقامة أو الحرمان من الانتقال.

- وحقه فى الأمن، بحيث لا يهدد حياته أو حياة ذويه، ولا يهدد عمله ولا ماله ولا حريته أحد من الناس أفراداً أو جماعات أو حكومات.

- وحقه فى التملك والاقتناء لكل ما يستطيع امتلاكه من عقار ومال وأى مقدرات أخرى، دون أن يحرمه من ذلك نظام أو حاكم مستبد أو ظالم من الناس.

- وحقه فى النقد والاعتراض على كل ما من شأنه أن يمس شيئا من حقوقه، سواء أكان هذا النقد أو الاعتراض موجها إلى نظام أو حاكم أو جماعة أو واحد من الناس.

- وحقه فى الدفاع عن نفسه ضد أى عدوان يقع عليه، يدافع بيده أو بسلاحه أو بأى وسيلة تمكنه من الدفاع عن نفسه من الأخطار التى تهدده.

- وحقه فى أن يعيش فى مجتمع تسوده الفضائل، ويشجع عليها الناس، مجتمع يحارب الرذائل وينهى عنها ويجرمها، حتى ينشأ الإنسان فى مجتمع حافل بالفضائل نقى من الشرور والرذائل.

- وحقه فى التعبير عن رأيه بالكلمة أو بغيرها من وسائل التعبير دون رقابة على هذا التعبير، ودون إكراه له على أن يعبر عما لا يعتقده أو يدين به[1].

● وهذه الحريات قليل من كثير مما نصت عليه معظم دساتير العالم، بل هى أهم ما ينص عليه فى أى دستور.

● لكن من المسلَّم به أن هذه المساواة فى الحقوق والواجبات، وليست فى القدرات والمواهب والاستعدادات، والذكورة والأنوثة مثلا - كما يهرف بذلك الذين لايعرفون -؛ لأن التفاوت بين الآحاد والطبقات من الناس حقيقة واقعة لا ينكرها إلا الغافلون.

● غير أن هذا التفاوت وإن كان حقيقة فإنه لا يكون سببا للظلم أو الإجحاف بتلك الحقوق، وإنما يكون سببا لأن يأخذ كل أحد حقه، ولو كان من المستضعفين فى مواهبه وقدراته ومنزلته الاجتماعية، ولهذا التفاوت فى تلك الاعتبارات فوائد عديدة كما يقرر ذلك العلماء.

ومن هذه الفوائد ما نذكر بعضه فيما يلى:

- الحياة الإنسانية نفسها تثرى وتتقدم بأن تتفاوت قدرات الناس ومزاياهم ليُسدّ صاحب الميزة ما لا يسده سواه ممن حرموا هذه الميزات.

---

(١) كفلت هذه الحريات جميع الدساتير، وعلى سبيل المثال:

أ - الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية: الباب الثالث: الحريات والحقوق والواجبات العامة، وقد نصت على ذلك المواد من: ٤٠ إلى ٦٣. وقد صدر هذا الدستور فى ٢١ من شهر رجب سنة ١٣٩١هـ الموافق: ١١ من سبتمبر ١٩٧١م بتوقيع رئيس الجمهورية محمد أنور السادات.

ب - دستور اتحاد الجمهوريات العربية: المادة: ١٢ وقد نص فيها على تسعة عشر حقا لمواطنى اتحاد الجمهوريات العربية، والمادة: ١٣ وقد نص فيها على حرية التنقل بين اتحاد الجمهوريات العربية وهى: مصر وليبيا وسوريا.

وانظر: الدساتير المصرية: مركز التنظيم والميكروفلم - ١٩٧٧م القاهرة.

– والتفاوت فى تلك القدرات والمواهب يعطى فرصة لمكافأة المجتهد العامل المجد؛ إذ ليس من العدل أن يتساوى مع البليد الكسلان.

– والتفاوت بين الناس يفتح آفاق الابتكار والتجديد فى كثير من مجالات الحياة، نتيجة لمكافأة المجتهد وتشجيعه على أن يستزيد من جده ودأبه، وإلا حدث للمجتمع ما حدث للمجتمعات فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى من قتل المواهب والمساواة بين النشط والكسلان(١).

● وقد جاء الإسلام ليقر هذا التفاوت الفطرى فى الناس، ويلزم بالمساواة بينهم فى الحقوق والواجبات، وهذا أعدل وأحكم.

ثانيا:

المسئولية الفردية، أو تحمل الإنسان لتبعة عمله وحده

نادى الإسلام خاتم الأديان وأتمها بأن الإنسان مسئول عن نفسه وعمَّن يلى أمرهم من أهله وذويه مسئولية تقتضيه أن يلتزم بمنهج الله فى حياته، وأن يرعى أهله وذويه فيمدهم بالأسباب حتى يكبروا ويستقلوا عنه، ومن البديهى أنه ليس مسئولا أمام الله عن أخطاء يرتكبها الراشدون منهم أى الذين بلغوا مبلغ الرجال أو النساء.

● وهذه المسئولية الشخصية فى الإسلام مقترنة بل ملازمة للتكليف الذى وجهه الله إليه؛ فإن الإسلام هو الدين الوحيد الذى بنى تكليفاته على خطاب العقل الذى يفكر وينظر ويتأمل ويتدبر فيما حوله.

● ومن أجل هذا العقل المخاطب بالتكليف كان الإنسان مسئولا عما يأتى من قول أو عمل خير أو شر، مسئولية شخصية لا يحملها عنه غيره – كما قالت بذلك بعض الأديان والنظم حيث يخطئ واحد ويحمل عنه وزر الخطيئة آخر – ولا يحمل هو مسئولية عمل غيره من الناس، لأن المبدأ الإسلامى هو: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ⑱﴾ [**فاطر**: ١٨].

● ومسئولية الإنسان عن نفسه تتوافق كذلك مع حرية إرادته واختياره، فما دام الإنسان حرا له إرادته واختياره، فإن العدل أن يكون مسئولا عن قوله وعمله فى مجالى الخير والشر والمعروف والمنكر، لأنه هو الذى اختار.

---

(١) انهار هذا الاتحاد السوفيتى فى سنة ١٩٩٠م لا من جراء ثورة أو انقلاب وإنما نتيجة لحرمان الناس من حقوقهم وحرياتهم والمساواة بينهم فى القدرات والمواهب والطاقات.

- والإنسان المكلف المختار يستطيع أن يرتفع بسلوكه الملتزم بمنهج الإسلام إلى أعلى المراتب عند الله تعالى وعند الناس، كما أن فى استطاعته أن يهبط بسلوكه المخالف لمنهج الله إلى أدنى مستوىً إنسانى، وأن يكون موضعا لعقاب الله تعالى ولزجر الناس له وضيقهم به، وهذا هو لب المسئولية الفردية أو الشخصية، وذلك مقرر معروف فى الإسلام يمكن أن يفهم من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ(15)** ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥]، ومن قوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (41)** ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].
- المسئولية الشخصية للإنسان عن كل ما يقوم به، لا تعنى أنه إذا أخطأ أدين بخطئه إلى الأبد، أو انتقلت إدانته إلى أبنائه - كما تقول بذلك بعد الأديان - ولكن الإسلام فتح له باب التوبة عن الخطأ والخطيئة إذا استوفى شروط التوبة الخالصة من ندم على الخطأ واستغفار الله تعالى منه، ومن عزم على عدم العودة إليه، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (28)** ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].
- والمسئولية الشخصية للإنسان لها علاقة بالقضاء والقدر، وهذه العلاقة اشتط فيها أقوام فخرجوا بها عن الصواب إذا قالوا: إن الإنسان مجبر مقهور جرى عليه القدر بما هو كائن، ثم رتبوا على ذلك قولهم بأن حساب الإنسان وعقابه - بعد أن ينفذ ما سطر فى قدره - ظلم يقع عليه، ما كان له أن يكون.

وأحب هنا أن أسوق بعض الحقائق التى تسهم فى إزالة الضلال عن هذه الإشكالية، سائلا الله تعالى التوفيق.

- أول هذه الحقائق:

أن الحضارات والأديان التى سبقت ظهور الإسلام قد اضطربت فى فهم قضية القدر اضطرابا أدخلها فى مجال الضلال، ولابد من ضرب بعض الأمثلة على ذلك فيما يلى:

أ - فى الحضارة الهندية :

جعلوا للقدر الحكم النهائى فى جميع الموجودات بما فيها الإنسان والآلهة والحيوان

والنبات والجماد، ولا اختيار للإنسان ولا إرادة له، لأن كل ذلك مقدور قبل أن يولد الإنسان أو توجد الأشياء ولا مناص له من الخضوع للمقدر من مولده إلى موته!!!

ب - وفى حضارة مصر الفرعونية :

آمن المصريون القدماء بالقدر وبحرية الإنسان واختياره لكنهم تصوروا فى العالم الآخر محكمة سماوية يقف من مات بين يديها ويحاسب على أعماله.

ولكنهم قالوا: إن صلوات الكهنة فى الدنيا تحسب له أو عليه!!!

جـ - وفى الحضارة المجوسية :

تصوروا أنهم يحلون مشكلة القدر بقولهم بالثنوية، أى انقسام الأجود بين إلهين: إله النور وإله الظلام، وعندما يتغلب إله النور يكون الخير، وعندما يتغلب إله الظلام يكون الشر، وإله النور نفسه لا يستطيع أن ينجو من إله الظلام، فالإنسان مقهور مغلوب على أمره بإله الظلام!!!

د - وفى الحضارة اليونانية :

أعطوا للقدر الكلمة النهائية والضربة القاصمة للناس وللآلهة الكثيرة عندهم - على السواء، والقدر عندهم يهزأ بالناس ويتحداهم أن يهربوا من ضرباته أو ضربات رسوله «نمسيس» إلهة الثأر التى تأخذ الجار بذنب جاره، وتلاحق القريب بجريمة قريبه.

وليس بعد ذلك من قهر للإنسان ونسف لإرادته واختياره!!!

هـ - والحضارة البابلية:

رأت فى القدر تلازما بين الإنسان وطوالعه والنجوم، نجوم السعود أو نجوم النحوس، وكل شيء فى الحياة يتحكم فيه القدر أى النجوم كالأيام والفصول وغيرها، وأعطوا للمنجمين سلطانا على الناس، وغاصت هذه الحضارة فى متاهات القرابين.

والإنسان فى ظل ذلك التصور مقهور مجبور لا إرادة له.!!!

و - وفى الديانة الإسرائيلية:

آمنوا بإله خاص بهم آثروه على غيره من الآلهة وآثرهم هو على غيرهم من الشعوب، وهذه الإله بارك يعقوب وسخط على عيسى وهما جنينان توأمان فى بطن أمهما.

وكثيرا ما كان إلههم «يهوا» يقدر الشيء ثم يندم عليه لأن من قدره لهم فاجأوه بما لم يكن يحتسب(١).

ولا إرادة لإنسان ولا حرية له ولا اختيار!!!

ز - وفى الديانة النصرانية :

ربطوا بين القدر وخطيئة آدم عليه السلام وهو فى الجنة وبين قضاء الموت عليه وعلى أبنائه، سواء أكان موتا حقيقيا أو موتا روحيا، حيث يقررون أن الأكل من الشجرة هو أصل الشر فى العالم الإنسانى كله، وكفارته موت الجسد، ولكن كفارة الروح لا تكون إلا بفداء المسيح عليه السلام!!!

والقدر هَيَّأ الناس للهلاك أو للمجد ولا إرادة للإنسان!!!(٢).

● وكل هذه الحضارات والأديان تخبطت فى عقيدة القدر وصلتها بمسئولية الإنسان وحريته الشخصية وإرادته واختياره.

- وثانى هذه الحقائق:

● أن الذى جاء به الإسلام فى موضوع القدر، يؤكد أن الإنسان حر مختار، وبالتالى فهو مسئول عما يأتى به من خير أو شر، يفهم ذلك من كثير من آيات القرآن الكريم مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)** ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠] وقوله عز وجل: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)** ﴾ [الإنسان: ٣]. وقوله جل وعلا: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)** ﴾ [الإنسان: ٢٩].

- وثالث هذه الحقائق :

أن الإنسان المكلف صاحب العقل، لابد أن يدرك بعقله أنه ليس كالحيوان والحجر والجمادات التى خلقها الله لا تملك إرادة واختيارا لأنه سبحانه لم يمنحها عقلا، وبالتالي لم يكلفها، فلم تكن مسئولة عن شيء مما تهديه إليها فطرتها.

---

(١) انظر فى ذلك كلمات النبى أرمياء، بل سفر الخروج معظمه فهو حافل بهذا الندم وغيره من إلههم.

(٢) انظر فى ذلك رسالة بولس الرسول - العهد الجديد - مرجع سابق.

إن العقل يستطيع أن يدرك ذلك لو كان صحيحا.

– ولقد وقف بعض العلماء أمام قول الله تعالي: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ [السجدة: ١٣] وقف العلماء أمامها طويلا ثم قال القدريون منهم: ولماذا لم يشأ الله تعالي أن تؤتى كل نفس هداها علي السواء؟

وقد غفلوا عن أن علم الله قد أحاط من قبل بأن بعض الناس سوف يؤثرون الضلالة علي الهدى، ويدخلون فى المعصية فكانت مشيئته على وفق علمه المسبق سبحانه وتعالى.

وكذلك فإن تكريم الله تعالى للإنسان وتفضيله على كثير ممن خلق إنما كان أو سيكون لأن الإنسان له إرادة واختيار فى أن يلزم الحق ويؤمن به ويعرف الله ويلتزم بمنهجه.

وبعد: فإن مسئولية الإنسان عن عمله وحده دون عمل سواه، ودون أن يسأل أحد عن عمل غيره، هى الدعامة التى تقوم عليها حرية العقل وحرية العلم على السواء.

ثالثًا: الشورى واحترام الرأى الآخر

واستشارته فى كل مهم من الأمر

تلك هى الدعامة الثالثة لحرية العقل وحرية العلم، والمقصود بهذه الشورى هو الحكومة العادلة، وهى عادلة ما دامت تحكم الناس بالشورى وتقر بينهم المساواة فى الحقوق والواجبات، أى أنها حكومة لمصلحة المحكومين لا لمصلحة الحكام.

- وقد جاء الإسلام بهذه الشورى على نحو لم يسبق إليه أى دين سابق أو نظام، جاء بها فمنع سيطرة الفرد على الرأى مهما يكن أمره أوجاهه أو مكانته؛ لذلك تنادى آيات القرآن الكريم على لسان النبى الخاتم المعصوم ﷺ بقوله تعالى: ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** (٤٥)﴾ [ق: ٤٥].

- وفى الشورى جاء قول الله تعالى؛ فى وصف المؤمنين:

﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**... (٣٨)﴾ [الشورى: ٣٨]، وهى صفة جاءت وسيطة بين صفات كثيرة للمؤمنين وهى جميعا من صفات الخير والفضائل، بل من صفات العبادة لله تعالى.

ومعنى ذلك أن مبدأ الشورى كان معمولا به، بل كان صفة للمسلمين منذ وقت مبكر من تاريخ نزول القرآن، إذ الثابت أن هذه السورة الكريمة «الشورى» نزلت فى مكة المكرمة، أى قبل أن يهاجر النبى ﷺ إلى المدينة المنورة، ويؤسس هناك حكومة تتعامل بالشورى.

وما ذاك إلا لعمق معنى الشورى فى الإسلام وكونها صفة إيمانية بالغة الأهمية.

- ثم جاءت آية كريمة بعد استقرار المسلمين فى المدينة وتكوينهم دولة أو حكومة وهى قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** .... (١٥٩)﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- ولقد ضرب الرسول ﷺ فى الالتزام بالشورى أروع الأمثال ليعلم كل حاكم مسلم بعده أن هذا واجبه، وليعلم الأمة المسلمة كلها أن هذا حقها، ومن تلك الأمثلة ما نذكر فيما يلى:

أ – موقفه مع من استشارهم فى معركة أحد؛ أيخرج للقاء العدو خارج المدينة أم يظل فى المدينة مدافعا عنها؟ فأشاروا عليه بالخروج – وكان هؤلاء المشيرون كثرة متحمسة ممن فاتتهم المشاركة فى القتال فى بدر، فنزل على رأيهم على الرغم من أنه كان أميل إلى البقاء، ودخل بيته فلبس لأمة الحرب، فلما خرج عليهم – وكانوا قد تلاوموا، وقال بعضهم لبعض كأنما أكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج – فقالوا له: يا رسول الله إن شئت أن تبقى فى المدينة فافعل، فقال: ما كان نبى لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، ومضى إلى أحد، وكان فى هذه المعركة ما كان من هزيمة واستشهاد سبعين من الصحابة رضى الله عنهم.

فتصور بعض الصحابة أن الرسول ﷺ قد وجد على هؤلاء الذين أشاروا عليه بالخروج؛ فنزل قول الله تعالى: ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم...** ﴾ الآية.

فطالبه الله تعالى بأن يلين لهؤلاء الذين استشارهم وعلّمه أن ذلك من رحمة الله تعالى به، وإلا انفضوا من حوله لو عاملهم بالفظاظة والغلظة.

وأمره بعدة أوامر هى:

﴿ **فاعف عنهم** ﴾ أى يتنازل عمّا له عليهم من تبعة خاصة به.

﴿ **واستغفر لهم** ﴾ أى مغفرة الله لهم فيما عليهم من تبعة الفرار وعصيان أوامر الرسول ﷺ.

﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ قال ابن عطية – وهو من أجلاء علماء الأندلس فى التفسير والفقه والأحكام –: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[١].

ب – موقفه ﷺ مع وفد هوازن:

فقد روى البخارى بسنده عن مروان والمِسْوَر بن مخرمة، أخبرا عروة بن الزبير رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ جاءه وفد هوازن مسلمين.

فسألوه؛ أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «معى من ترون،

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن الكريم: ٤ / ٢٤٩ مرجع سابق.

وأحبُّ الحديث إليّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السبى وإما المال، وقد كنت استأنيتُ بكم» –وكان رسول الله ﷺ قد أنظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف–

فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير رادٍ إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإنا نختار سبينا.

فقام رسول الله ﷺ فى المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين، وإنى رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يُطَيِّبَ[1] ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل».

فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم».

فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا».

– وفى هذا الحديث الشريف دروس فى حرية الرأى والشورى واحترام الرأى الآخر– على الرغم من أن جلال النبوة وعصمة النبى ﷺ كانت تسمح له باتخاذ القرار– ولكنه يعلّم من بعده ﷺ.

– وكل كلمات النبى ﷺ فى هذا الحديث مضيئة فى مجال الشورى واحترام الرأى الآخر، ولكن من أسطع هذه الكلمات النبوية قوله:

- «معى من ترون» أى لست وحدى الذى أجيبكم إلى ما تطلبون، ولكن معى من لابد لى من أن استمع إلى رأيهم فى طلبكم وأشاورهم.
- «إنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم» ولم يقل قررت، مع أن له حق القرار وحده لمقام النبوة، ولكنه احترام وتقدير لآراء من معه من الصحابة، أى أعطاهم الحق فى أن يروا ما يرون، كما رأى هو ﷺ.

---

(١) طيَّب الشىء: صيره طيبا طاهراً. وطيب خاطره: أرضاه.
وطيّب لغريمه أو غيره نصف المال أو الدين، أبرأه منه ووهبه له.
وهذا هو المقصود فى هذا الحديث لأن السَّبْى نصف والمال نصف.

● «فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل» وهذه هى القمة من حرية الرأى، أى أن من أحب منكم أن يوافق على ما رأيت من رد سبيهم عليهم ويتنازل عما فى يده من السبى فليفعل.

أين هذا من قول فرعون وأمثاله: ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾؟ أى افتئات من الحاكم على المحكومين أسوأ من هذا؟

● «إنا لا ندرى من أذن فى ذلك منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» مع أنهم قالوا له: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، ولكنه أراد أن يتأكد ويستوثق ويعطيهم فرصة للتروى والتفكير الهادى واستشارة من يستشيرون، لأن الموقف موقف خيار لا موقف قرار.

● «فأخبره العرفاء أنهم قد طيبوا ذلك وأذنوا» ومعنى ذلك أنه قد كان لهم الحق فى أن لا يتنازلوا، وفى أن لا يأذنوا لرسول الله ﷺ فى ردّ ذلك الذى بأيديهم من سبى هوازن.

أهناك حرية للرأى أعمق من ذلك أو أكثر؟.

أهناك ممارسة للشورى أرقى من ذلك؟.

أهناك احترام للرأى الآخر أحسن من ذلك؟

● والخلاصة التى يمكن أن نحصل عليها من هذه الآيات الكريمة التى ذكرنا فى مجال دعائم حرية العقل وحرية العلم وهى: المساواة فى الحقوق والواجبات، والمسئولية الفردية، والشوى هى: أن الإسلام منهج أصيل فى الحرية بأنواعها المختلفة التى تحدثنا عنها آنفا.

● وبهذه الخلاصة يمكن أن نرد على طائفتين من الذين يفترون على الإسلام ويرمونه بالتهم الباطلة:

– **الطائفة الأولى:**

وهى من زعموا أن الحرية التى جاء بها الإسلام كانت ميراثا من البيئة العربية الصحراوية التى لا تعرف القيود–قبل الإسلام– كما يزعمون!!!

وردّنا عليهم هو: أن البيئة العربية الصحراوية فى الجاهلية التى سبقت الإسلام كانت مليئة بالقيود التى تكبل حرية الإنسان وتصادر رأيه، وهى قيود فرضها النظام القبلى، وهى

قيود صارمة تعطى لشيخ القبيلة الحق فى فرض رأيه دون أن يخرج عليه أحد من أفراد القبيلة، ولو خرج لكان جزاؤه معروفا كالقتل أو الخلع من القبيلة ليعيش طريدا ما بقى!!!

أين هذا مما ذكرنا من حرية الرأى والشورى والاستماع إلى الرأى الآخر، والنزول على رأيه أحيانا؟.

– إن القائلين بهذا الزعم لا يعرفون ما كان سائدا فى الجاهلية من عسف وظلم وقهر ومصادرة لأى رأى، تحدثنا بذلك أمثال العرب وأشعارهم فى ذلك الوقت الذى سبق ظهور الإسلام.

ونسوق لذلك مثلا مشهورا عندهم هو:

«لا حُرَّ بوادى عوف»(١):

ومعناه أن وادى عوف هذا لا يأوى إليه أحد من الناس فيملك شيئا من الحرية فى جوار عوف، فكل الناس بهذا الوادى غير أحرار، فكل من حلَّ بواديه فهو كالعبد له.

– ومثلا آخر هو:

«أعز من كليب وائل».

وقد كان وائل هذا يطلق كليبا – أى كلبا صغيرا – له، فى المكان من أجل الصيد فلا يجرؤ أحد أن يدنو من هذا المكان الذى يتسع فيشمل كل شبر يسمع فيه نباح هذا الكلب، فأصبح هذا الكلب عزيزا يضرب بعزته المثل.

– ونسوق فى ذلك شعرا يدل دلالة واضحة على ما كان فى هذه البيئة من قمع للحرية، واستكانة لنوع من العبودية، وهو قول عبيد بن الأبرص يتوسل إلى حجر بن الحارث الذى سام بنى أسد الخسف والهوان، فتوسل إليه عبيد بالبيتين التاليين:

أنت المليك فوقهم	وهم العبيد إلى القيامة
ذلُّوا لسوطك مثلما	ذَلَّ الأشيقر ذو الخزامة

فكيف تكون الحرية والحال هى تلك الحال؟

---

(١) هو عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان.
وكان أبو عبيدة يقول: هو عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وهل يعقل أن تكون الحرية التى جاء بها الإسلام ميراثاً من هذه البيئة التى لا حُرَّ فيها بوادى عوف، وليس فيها أعز من كليب لوائل، وفيها من ذلوا لسوط حجر بن الحارث؟

وإن فيما ذكرنا أبلغ ردّ على هؤلاء الزاعمين.

● وفى هذه الحرية - التى جاء بها الإسلام مدعومة بالمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات وبالمسئولية الشخصية وبالشورى - ردٌّ على طائفة أخرى زعمت أن الحرية التى جاء بها الإسلام كانت تقليداً للحرية التى عرفتها الحضارة اليونانية، أو الرومية، أو الحضارة الأجنبية عموما.

وردّنا على تلك الطائفة هو :

أن هذه الحضارات التى ذكروا - قبل الإسلام - لم تستطع واحدة منها أن تطبق مبدأ المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، وإنما كان الناس فى ظل تلك الحضارات : أجناسا وأعراقا وسادة وخدماً، ونبلاء ورعاعاً، وكهنة وخاضعين لتلك الكهانة، وإقطاعيين واقنانا عبيد أرض، وأحرارا وعبيداً!!!

وكذلك كان شأن تلك الحضارات مع مبدأ المسئولية الفردية، فكم يؤخذ البرىء بذنب المذنب، ويحاسب الأبناء والأحفاد على أخطاء ارتكبها الآباء والأجداد!!!

ولم يكن شأن الشورى فى ظل هذه الحضارات بأحسن من شأن المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، ولا هو بأفضل من شأن المسئولية الفردية؛ وإنما كان الاستبداد بالرأى.

حتى الديموقراطية - التى يحرق فى هيكلها البخور اليوم - كانت فى تلك الأيام وفى ظل هذه الحضارات تميزاً قبلياً، أبعد ما يكون عن الشورى.

فكيف - والحال هذه - تكون الحرية التى جاء بها الإسلام تقليداً للحرية فى اليونان أو فى الروم أو فى غيرهما من الحضارات؟

● وإن الحق الذى لا مراء فيه - عند المنصفين ومن يبحثون عن الحقيقة - هو أن الحرية التى جاء بها الإسلام كانت من صميم مبادئ هذا الدين وقيمه ومنهجه مستقلة عن التأثر المقلد لأى حضارة أو دين قبل الإسلام.

● والحرية التى جاء بها الإسلام هى التى تحقق للإنسان الحياة الإنسانية الكريمة التى أرادها له خالقه سبحانه وتعالى، إذ لا تستقيم حياة الإنسان الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية

إلا بهذه الحرية التى كفلها الإسلام للإنسان.

- إنها حرية لعقل الإنسان تطلقه من أسر التقليد والوهم والخرافة، وتجعل التفكير والتأمل والنظر وغيرها من أعمال العقل - التى ذكرناها آنفا - فرضاً من فروض الإسلام، لا يتم الإيمان إلا بها، ولا ينفع بغيرها إسلام أحد من الناس.
- وإنها الحرية لعقل الإنسان لكى تزول عنه القيود، فيفكر ويفهم ويتصور ويتخيل ويدرك ويحلل ويعلل ويستنتج ويرشد ويبدع، فيثرى حياة الإنسان بهذه الإبداعات التى يحتاج إليها الإنسان كلما جد جديد ووفد متغير، لتكون حياة الإنسان أكثر راحةً وأمناً وطمأنينة؛ فإن العقل المقيد لا يبدع ولا يستطيع أن يواكب المتغيرات.
- وإنها حرية العلم والبحث العلمى فى كل مجال من مجالاته، تطلق للعقل العنان، فيستفيد مما سخر الله له، مما فى السموات، والأرض والمياه، لتصبح حياته بما يصل إليه العلم والبحث أكثر راحة وأكثر تجاوباً مع مطالب الإنسان الحر الكريم.
- إنها حرية العلم التى تفرض على الإنسان أن يعمر هذه الأرض؛ لأن الله تعالى قد استعمره فيها وطلب منه إعمارها، وأى إعمار للأرض يكون بغير حرية العلم والبحث العلمى؟!

أى إعمار للأرض يمكن أن يكون بعيداً عما يهيئه العلم من أسباب العيش الكريم اللائق لتكريم الله للإنسان؟!

- إن حرية العقل وحرية العلم وسائر الحريات التى تحدثنا عنها هى التى تهيئ للإنسان ما أراده الله تعالى له فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)** ﴾ [الإسراء: ٧٠].

٤ - نصوص إسلامية فى وجوب
التعلم والعلم والتعليم

سبق أن ذكرنا فى ثنايا هذا الكتاب بعض النصوص - من الكتاب والسنة - التى توجب التعلم، وتصل به إلى العلم، وتوجب عليه تعليم غيره، ولكنا أردنا فى هذه النقطة من هذا الفصل الأخير من هذا الكتاب أن نربط للقارئ المسلم بين العقل الذى رباه الإسلام أكمل تربية، والشرع أو النقل أو النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة، ونؤكد أنه لا تعارض بين العقل والشرع، فضلا عن تصور تناقض بينهما.

● وأود أن أذكّر فى هذه النقطة التى أحشد لها النصوص الإسلامية التى تنفى تقييد الإسلام للحرية أو تقييده للعقل، أودّ أن أذكر بأن آفة هذه الحقبة التى نعيش فيها - العقد الثانى من القرن الخامس عشر الهجرى - العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى - هى اتهام الإسلام بتهم عديدة من أبرزها تهمتان :

إحداهما :

اتهام الإسلام بأنه يرفض «الديموقراطية» برفضه للتعددية السياسية ورفضه للرأى الآخر - أى رفضه الحرية - !!!

والأخرى :

اتهام الإسلام السياسى بالتطرف والعنف والتعصب، أى أنه ضد حرية العقل وحرية التفكير!!!

● والإسلام برىء من هاتين التهمتين براءة الذئب من دم ابن يعقوب كما يقولون، وليس أدل على هذه البراءة من النصوص التى نذكرها فى هذه النقطة من الكتاب من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية المطهرة.

أما التهمة الأولى:

وهى اتهامهم الإسلام برفض «الديموقراطية» أى حرية الرأى، أو الحرية عموما - كما يزعمون - فلعلهم فعلوا ذلك وبالغوا فيه اليوم بعد انهيار عدو الغرب التقليدى - الاتحاد

السوفيتي – ورغبة الغرب في إيجاد عدو بديل، يكيدون ويدبرون له المؤامرات ويبيعون له الأسلحة، ويتخذونه سوقاً لسلعهم ، ويغرقونه بالديون الربوية؛ لأن الغرب في تاريخه الطويل لا يعيش إلا على ذلك .

لعل هذه الموجة العاتية من الاتهام للإسلام برفض الحرية جاءت بعد أن قرر الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة عقب انتصارهم على العراق فيما عرف بحرب عاصفة الصحراء، قرروا بأن العدو البديل والخطر القادم هو الإسلام، فأخذوا في حربه .

أولا : بكيل الاتهامات،

وثانيا : بتوسيع هوة الخلاف بين بلدان العالم الإسلامي،

وثالثا : بإشعال الفتن والحروب الأهلية بين أقطاره،

ورابعا : بالاستيلاء على نفطه ومقدراته الاقتصادية،

وخامسا : بإرغامه على تطبيع علاقاته مع عدوه الألد «إسرائيل» .

وسادسا وسابعا وما لا أحصي هنا من أسباب الحرب والكيد للإسلام والمسلمين.

● ولعل ما عايشه الغرب من محن في ظل النظام النازي أو الفاشي، أو الماركسي من قهر واستبداد، وغياب للحرية «والديمقراطية» في هذه الأنظمة، ومشاهدتهم لبعض الأنظمة القمعية في بعض البلدان الإسلامية هو الذي جعلهم يطلقون هذه التهمة .

– مع يقيني بأن الأنظمة القمعية في أي بلد من بلدان العالم الإسلامي وراءها تأييد غربي غير مرئي لهذا القمع .

– ومع يقيني بأن تصويرهم للديموقراطية بأنها عصا سحرية ما إن يخرجها الساحر من جرابه ويشير بها إلى أصنام القهر والاستبداد والنازية والفاشية والماركسية حتى تتهاوى هذه الأصنام .

– ومع يقيني ويقين كل عارف بنوايا الغرب الذي يتبنى صليبية جديدة ضد الإسلام والمسلمين متعاونا أو متجاوبا في ذلك مع الصهيونية العالمية، يقيني بأنهم ينظرون إلى الإسلام مثل نظرتهم إلى النازية أو الفاشية أو الماركسية، وما داموا قد نجحوا في القضاء على هذه النظم، فقد جاء الوقت لديهم للقضاء على الإسلام والمسلمين.

– ومع يقيني ويقين كل مراقب لما يدور في بلدان العالم الثالث – ومعظم بلدان العالم الإسلامي محسوبة منه – من نظم ديموقراطية تأخذ بالتعددية السياسية، يقيني بأن تلك الديموقراطية مكذوبة وهذه التعددية السياسية خادعة؛ لأن من أنعم النظر أدرك أنها شكل لا جوهر، وأن حزباً واحداً هو الذي يتولى السلطة وسائر الأحزاب لا يُسمح لها بالنمو ولا المعارضة الحقيقية، وكلما جرت انتخابات لم يحصل على معظم المقاعد إلا الحزب الحاكم، وربما تركت بعض المقاعد القليلة لتلك الأحزاب المهمشة !! والغرب له أكبر المصالح في أن يسود هذا الخداع وهذا التزييف للديموقراطية، ولا تخفى مصلحته على لبيب.

– ومع يقيني ويقين كل عارف بأن الديموقراطية والتعددية السياسية في بلاد الغرب نفسها لا تخلو من معايب تمارسها هذه النظم فتهدم بها معبد الديموقراطية على كهانه ومرتاديه؛ وذلك هو ما نراه من كيل بمكيالين، وإصرار على نصر الظالم على المظلوم، كما هو حادث من النظام العالمي الجديد مع إسرائيل، فأين هي الديموقراطية التي يزعمون؟!

– ولي ولغيري من الناس أن نتساءل قائلين:

أين الديموقراطية في بلاد تتبنى التعددية السياسية وتتخذ للحرية تمثالاً أو صنماً، أو تجعل من هذه الحرية شعاراً؟

أين هذه الديموقراطية في تلك البلاد وهي تعيش في حماة آسنة من الظلم والتفرقة بين الدول والأمم في هيئة الأمم؟

– من الذي سوّغ للدول الكبرى أن تتمتع بحق الاعتراض «الفيتو» على كل قرار يصدر من مؤسسات الأمم المتحدة دون إبداء الأسباب؟ أهي الديموقراطية التي سمحت لهم بذلك؟!!

– ومن الذي قسم الدول إلى دول صناعية أو غنية لها حق السيطرة الاقتصادية والعسكرية على الدول الفقيرة أو النامية، وإلى دول ليست صناعية وليست غنية؟

أهي الديموقراطية أيضا ؟!

– ومن الذي يحرم دولة من بيع نفطها، ويحرم أخرى من تحليق طائراتها في أجوائها، ويجبر مجموعة الدول العربية مثلا على تطبيع علاقاتها مع إسرائيل، حتى تبتلع إسرائيل اقتصاديات تلك البلاد، وتشترى مؤسساتها ومصانعها ومزارعها باسم الخصخصة؟ أهي

الديموقراطية كذلك؟

– ومن الذى يعطى لبعض الدول حق امتلاك واستخدام الأسلحة النووية، ويحرم منها سائر الدول؟

أهى الديموقراطية أيضا ؟!

– ومن الذى يحول بين بلدان العالم الثالث وبين الاكتفاء الذاتى بوضع العراقيل لها في طريق الزراعة والصناعة والتجارة؟

أهى الديموقراطية التى يزعمون ؟!

– ومن الذى يسلط البنك الدولى وصندوق النقد الدولى على دول العالم الثالث يغرقها بالديون ويبهظها بالفوائد الربوية المتفاقمة التي تزيد عن القرض نفسه أضعافاً مضاعفة، حتى أصبح من المألوف أن تعجز الدول المستدينة عن تسديد فوائد الدين، فضلا عن أحد أقساطه؟!

أهى الديموقراطية الغربية؟!

أهى الديموقراطية حلم الشعوب الضعيفة؟!

أهى الديموقراطية شرك الدول القوية؟!

● وأنا أستغفر الله أن أكون بهذا الذى قلت كافرا بالديمقراطية واحة البائسين والمقهورين من المسلمين، ولكنى أهاجم المعنى الممسوخ للديمقراطية كما يمارسها الغرب الصليبى والصهيونية العالمية، والنظام العالمى الجديد.

● إن الإسلام ليس ضد الديمقراطية، إذا كانت تعنى الحرية والشورى واحترام الرأى الآخر –كما أكدنا ذلك فى هذا الكتاب، وليس الإسلام ضد التعددية السياسية، وهو يجعل الشورى من الفرض لا من المندوب أو المباح.

● إن الإسلام ليس ضد الحرية؛ لأنه يقيم دعائم مشروعه الحضارى كله –كما أوضحنا– على دعائم قوية راسخة من المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، ومن المسئولية الفردية، ومن الشورى.

● ومن الإنصاف والاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الحق أن أقرر أن هذه الدعائم التى بنى عليها الإسلام مشروعه الحضارى ليست مطبقة فى أى بلد مسلم اليوم على وجهها الصحيح.

وليس السبب فى ذلك صعوبة هذه المبادئ أو استحالة تطبيقها وإنما السبب – عندى – أن أعداء الإسلام – من صليبية حديثة يتبناها النظام العالمى الجديد، ومن صهيونية عالمية – جبلوا على أن يضمروا للإسلام والمسلمين كل سوء وكل شر.

وأما التهمة الثانية:

فهى اتهامهم الإسلام السياسى بالتطرف والعنف والتعصب، أى أنه ضد حرية العقل وحرية التفكير.

● وفى البداية نحن نرفض تسمية «الإسلام السياسى» و «الإسلام الحديث» و«الإسلام السلفى أو القديم» فكل هذه التسميات وغيرها من اختراع أعداء الإسلام، أو من إطلاقات الجاهلين بالإسلام ممن يعرفون عنه شيئا ويجهلون أشياء.

نرفض ذلك لأن الإسلام هو الإسلام وكفى، أركانه معروفة وأخلاقه معروفة ومعاملاته معروفة، وحلاله وحرامه وما ندب إليه وما كرهه، وليس الإسلام فى حاجة إلى تسميات أخرى.

– واتهام «الإسلام السياسى» كما يقولون بالتطرف محض افتراء يدل على الجهل العريض بالإسلام؛ إذ التطرف هو: مجاوزة حدل الاعتدال، وترك المنزلة الوسط.

وهذا التطرف مرفوض فى الإسلام حتى لو كان فى الخير والطاعات، فكيف الحال إذا كان فى غير ذلك؟! والأدلة على ذلك كثيرة منها:

● قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ..... (١٤٣) ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فكيف تتطرف الأمة الوسط؟ وكيف يتطرف مسلم فيخرج عن حد الاعتدال والعدل؟ إن القائلين بهذا التطرف يجهلون عن الإسلام كتابه الكريم.

وقد فسر رسول الله ﷺ الأمة الوسط فقال: «الوسط: العدل»، فيما رواه أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

وقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة توضح أن هذا الدين دين التوسط والاعتدال، ولا تطرف فيه، ومن ذلك ما نذكره فيما يلى:

– روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الدين يُسر، ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ

من الدلجة».

وفى رواية أخرى للبخارى: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشىء من الدلجة: القصد القصد تبلغوا».

والقصد هو الاعتدال.

– وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه قال: دخل النبى ﷺ المسجد، فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: «ما هذا الحبل»؟ قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبى ﷺ: «حُلّوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد».

● فالدين الذى ينهى عن التشدد فى العبادة والطاعات، هل يقبل التطرف بمجاوزة الاعتدال والوسطية؟.

● هذا الدين الذى يعلن أن الوسط فيه البركة حتى فى آنية الطعام، كيف يسيغ التطرف؟.

– روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: «كلوا فى القصعة من جوانبها ولا تأكلوا من وسطها، فإن البركة تنزل فى وسطها».

● أفبعد هذه النصوص يتهم الإسلام بالتطرف؟

● وكل ما برر به أعداء الإسلام اتهامهم الإسلام بالتطرف إنما يعود إلى المغالطات من جانب وإلى الخوف من أن يقوم نظام إسلامى يستقطب العالم الإسلامى، فتكون الطامة على الغرب وعلى الصهيونية العالمية من جانب آخر.

– فقد وقفوا من إيران ومن السودان موقف العداء السافر، ورموا كلاً منهما بالتطرف والعنف والتعصب ورفض الحرية!!!

● ولا أدرى لم سكتوا عن إيران فى أيام الشاه يوم كانت تحكمها المخابرات المحلية فيها «السافاك» فتقمع فيها كل نأمة!!!

ألم تكن إيران حينذاك تعيش تطرفا؟ لماذا سكت الغرب والصهيونية العالمية عن ذاك؟!

● وكذلك لا أدرى لماذا سكتوا عن السودان قبل ذلك يوم كانت تنهكه الانقلابات العسكرية وما تنطوى عليه من بطش وجبروت؟

● وبعد: فإننا نعيش فى عصر كثر فيه التهجم على الإسلام وإلصاق التهم به من أعدائه، بل ومن غافلى المسلمين الذين يسعون فى ركاب هؤلاء الأعداء ويأكلون على موائدهم فتات

ما بقى منهم وعافته نفوس النظام العالمى الجديد والصهيونية العالمية.

وقصاراهم أن يعزل الإسلام عن حياة المسلمين، وليكن من وسائل هذا العزل أن توجه إليه التهم الباطلة فى رفضه للحرية السياسية أى التعددية ورفضه لحرية العقل، بما يتهمونه به من جمود.

● من أجل هذا آثرت أن أختم الكتاب بحشد نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تدعم تبنى الإسلام للحرية بكل أنواعها، حرية العقل وحرية العلم، والحرية السياسية، والحرية الاجتماعية، وكل حرية تحدثنا عنها آنفا.

● وهدفى من ذلك أن أربط المسلم فى كل قضية من هذه القضايا - التى يقوم عليها المشروع الحضارى الإسلامى - بكل ما يذخر به من حريات، ليكون الاقتناع بهذا الدين أكبر وأعمق وأدوم وأثبت لارتباطه بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وهما المرجعية الثابتة الدائمة للإسلام والمسلمين.

● وقد حشدت هذه النصوص فى ثلاثة مجالات هى:

التعلّم،

والعلم،

والتعليم، والدعوة إلى هذه الثلاثة دعوة إلى حرية العقل وحرية العلم وكل حرية، والله تعالى المستعان.

أولا : نصوص فى وجوب التعلم

-أى طلب العلم-

أ - نصوص من القرآن الكريم :

- قال الله تبارك وتعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ .... **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** (١١٤) ﴾ [طه: ١١٤]. وفى خطاب النبى ﷺ خطاب لكل مسلم.

وإنما يكون ذلك -أى الاستزادة من العلم- بالتعلم والبحث عن العلم في كل مظنة من مظانه.

ومظان العلم أكثر من أن تحصى، وأشرفها البحث عنه فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتاريخ أصحابه رضوان الله عليهم وتواريخ التابعين وتابعيهم وعلماء المسلمين ممن فتح الله عليهم وألهمهم رشدهم.

ومن مظان العلم ما ترك أسلافنا من كتب ودراسات فى مختلف مجالات العلم والمعرفة.

ومن مظانه المشى فى الأرض والنظر فى مخلوقات الله تبارك وتعالى.

ومن مظانة سير الأولين وتواريخ الأنبياء والمرسلين.

● وما أكثر مجالات العلم: علم الدين وعلم الدنيا.

- قال جل شأنه: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** (٨٥) ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ومعنى الآية الكريمة أن الإنسان لم يؤت من العلم إلا قدراً قليلاً، وأن عليه أن يوالى البحث عن العلم فيستزيد، وباب العلم مفتوح ومجالاته لا تحصى كذلك.

والأخذ بأسباب العلم مما أوجب الله على المسلمين على سبيل فرض الكفاية.

والحقيقة المؤكدة من هذه الآية الكريمة أن الإنسان ما أوتى من العلم إلا القليل، وأن عليه أن يستمر فى طلب العلم.

- وقال عز وجل: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (٧) ﴾ [الأنبياء: ٧]. وفى هذه الآية الكريمة وسيلة من وسائل طلب العلم والحصول عليه، وهى سؤال أهل العلم، كل فى

اختصاصه، حتى يرتفع الجهل أولا، ثم تكون الاستفادة حتى ينمو العلم وتتسع آفاقه وتتعدد شُعبه فتغطى كل حاجات الإنسان فى دينه ودنياه.

وأثبت ما يكون العلم بالحوار بين المسئول والسائل، والنقاش المثرى للعلم، وتلك حقيقة أجمع عليها علماء التربية جيلاً بعد جيل.

– وقال جل وعلا: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وهذه الآية الكريمة توجب طلب العلم، كما يرى المفسرون لكتاب الله، ومنهم القرطبى وقد ذكرتُ ذلك آنفاً.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية: يعنى السرايا تنفر عصبة وتقعد عصبة ليتفقهوا فى الدين، يقول: تعلموا ما أنزل الله على نبيهم ﷺ، ويعلمون السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون.

ب – ونصوص من السنة النبوية المطهرة:

– روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقا يلتمس فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة».

– وروى أحمد بسنده، والحاكم وصححه، وابن حبان بأسانيدهم عن صفوان بن عسّال رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«... وأن تغدو فتتعلم باباً من العلم –عُمل أو لم يُعمل– خير لم من أن تصلى ألف ركعة تطوعا».

– وروى الطبرانى بسنده فى الأوسط عن أبى ذرّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها».

– وروى أبو نعيم بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:
«العلم خزائن، مفاتيحها السؤال، ألا فاسألوا؛ فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل، والعالم والمستمع والمحب لهم».

- وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغى للجاهل أن يسكت على جهله، ولا للعالم أن يسكت على علمه».

- وروى ابن عبد البر بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جاءه أجله وهو يطلب علماً ليحيى به الإسلام، لم تفضله النبيون إلا بدرجة».

- وروى البيهقى - فى الشُعب - بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم».

- وروى البيهقى - فى الشعب - بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: إن النبى ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، والله يحب إغاثة اللهفان».

- وروى البيهقى - فى الشعب - بسنده عن أبى الأحوص عن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «تعلموا القرآن، وعلموه الناس، وتعلموا العلم، وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض، وعلموها الناس، فإنى امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض حتى يختلف الرجلان فى الفريضة لا يجدان من يخبرهما بها».

- وروى البيهقى -فى الشعب- بسنده عن سعيد بن العاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن».

- وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد، فقد نقص فى رأيه وعقله.

وبعــد:

فإن هذه النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة - التى توجب التعلم أى طلب العلم - يتبين أن الإسلام يترك للعقل حرية التعلم وطلب العلم والبحث والتنقيب عن كل علم ينفع المسلم فى دينه أو دنياه.

وهذا ما يؤكد أن ليس فى الإسلام ما يعارض العقل؛ فضلا عن أن يناقضه، أو يحجر عليه فى فكره ونظره وتأمله.

ثانيا : نصوص فى وجوب العلم

أ - نصوص من القرآن الكريم :

- قال الله تبارك وتعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨) ﴾ [آل عمران : ١٨].

قال الإمام الغزالى أبو حامد : فانظر كيف بدأ سبحانه بنفسه، وثنى بالملائكة، وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلالا ونبلا.

وشهادة أولى العلم تعنى شيئين :

إيمانهم،

وما يبنينونه للناس من الحق والعلم.

- وقال جل شأنه : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... (١١) ﴾ [المجادلة : ١١].

قال المفسرون : ومعنى الآية أنه سبحانه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمنوا درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات.

فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات.

وقد يكون المعنى : يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات.

- وقال جل وعز : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الزمر : ٩].

أى لا يستوى العلماء والجهلاء، عند الله أو عند الناس أو فى الحقيقة؛ أى لا يستوى الذين يعلمون حقوق الله تعالى فيوحدونه والذين لا يعلمون لإهمالهم النظر فى الأدلة.

- وقال جل وعلا : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... (٢٨) ﴾ [فاطر : ٢٨].

والمعنى : أن من الناس، والدواب إبلاً وبقراً وغنماً مختلفاً ألوانه كذلك فى الشكل

والحجم واللون، وما يتدبر هذا الصنع العجيب ويخشى صانعه إلا العلماء الذين يدركون أسرار صنعه سبحانه وتعالى.

– وقال عز من قائل: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

أى أن هذه الأمثال والعبر والعظات التى فى القرآن الكريم لا يعقلها ويستوعب أهدافها إلا العقلاء العالمون المتدبرون.

– وقال جل وعلا: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ... (٨٠) ﴾ [القصص: ٨٠].

أى أن الذين آتاهم الله العلم النافع فلم يفتنهم ذلك فتوجهوا بالنصح للمفتونين قائلين لهم: لا تتمنوا هذا الذى أوتى قارون ولا يصرفكم عن الدين فإن ما عند الله من ثواب ونعيم أزكى لمن آمن بالله وعمل صالحا.

– وقال عز من قائل: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ.... (٨٣) ﴾ [النساء: ٨٣].

والمعنى: ولو أن هؤلاء المنافقين المذيعين للأخبار المضللة ردوا أمر الأمن أو الخوف إلى الرسول ﷺ وإلى أولى الأمر من القواد وكبار الصحابة، وطلبوا معرفة الحقيقة من جهتهم، لعلم أولئك الذين يحاولون استخراج الوقائع وإذاعتها الحق من جانب الرسول ﷺ والقادة.

فقد ردّ حكمه فى الوقائع إلى استنباط العلماء، فألحق بذلك رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله تبارك وتعالى.

– وقال سبحانه وتعالى: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

والمعنى: ليس هذا الكتاب موضع ارتياب، بل هو آيات واضحات محفوظة فى الصدور، يحفظها الذين آتاهم الله العلم، إذ ما ينكر آياتنا –بعد العلم بها– إلا الظالمون للحق ولأنفسهم.

ب – نصوص من السنة النبوية المطهرة:

– روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين».

ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير بزيادة: «ويلهمه رشده».

– وروى البيهقى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن؛ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا».

– وروى البيهقى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء دعامة، ودعامة الإسلام الفقه فى الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد».

– وروى الطبرانى –فى الأوسط– بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عُبد اللهُ بشيء أفضل من فقه فى الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه».

– وروى ابن عبد البر بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتى، إذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس؛ الأمراء والفقهاء».

– وروى البيهقى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «قليل الفقه خير من كثير العبادة، وكفى المرء فقها أن عبد الله».

● وكلمة الفقه فى هذه الأحاديث الشريفة تعنى العلم، وكلمة الفقهاء فيها تعنى العلماء.

والتصريح بالعلم فى مقابل الفقه جاء فى الحديث الشريف التالى:

– روى البيهقى بسنده عن عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: «فضل العلم أحب – أو قال: خير – من فضل العبادة، ومن خير دينكم الورع».

والعلماء –فى السنة النبوية– هم ورثة الأنبياء.

– روى أحمد والأربعة[1] والدارمى بأسانيدهم عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من

(١) هم: الترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجة.

السموات ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

– وروى أبو داود والترمذى بسنديهما عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

– وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «... ومن سلك طريقا يلتمس فيه العلم سهل الله له إلى الجنة طريقا، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتعاطون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده».

– وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

– وروى ابن عبد البر –فى كتابة جامع بيان العلم– بسنده عن معاذ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والتزين عند الأخلاء، يرفع الله تعالى به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تقتفى آثارهم، ويقتدى بفعالهم، ترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلا فى الدنيا والآخرة، والتفكير فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام والعمل تابعه، ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء».

قال ابن عبد البر: هذا حديث حسن جدا، وفى إسناده ضعف.

وروى هذا الحديث من طرق شتى موقوفا على معاذ رضى الله عنه.

وقد يقال: «الموقوف فى مثل هذا كالمرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأى».

● ومن المعروف -والعلماء ورثة الأنبياء- أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لهذه الرتبة، إن ذلك هو ميراث العلماء، كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ.

- وروى الطبراني -في الأوسط- بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الموت قبيلة أيسر -وفي رواية خير- من موت عالم».

- وروى أبو نعيم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم، والجهاد؛ أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل».

- وروى أبو نعيم بسنده -في الحلية- عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحكمة تزيد الشريف شرفا، وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك»، والحكمة في هذا الحديث الشريف هي: العلم.

- وروى ابن ماجة بسنده عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء».

قال الإمام الغزالي في التعليق على هذا الحديث: فأعظم بمرتبة هي تلو النبوة، وفوق الشهادة، مع ما ورد في فضل الشهادة»(1).

- وروى البيهقي بسنده -في الشعب- عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث العالم والعابد»،

فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: اثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم».

● ومن العالم بميزان الإسلام؟ أو ما هو الحد الأدنى في العلم الذي يعد من حصله عالما؟.

أجاب على ذلك السؤال رسول الله ﷺ، وذلك فيما يلي:

- روى البيهقي -في شعب الإيمان- بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثا؛ فيما ينفعهم من أمر دينهم، بعثه الله يوم القيامة من العلماء، وفضل العالم على العابد سبعين درجة، الله أعلم بما بين كل درجتين».

---

(1) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين: ١ / ٧ ط العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م - على النسخة الأميرية المطبوعة سنة ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٥م.

– وروى البيهقى –فى الشعب– بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: ماحدّ العلم إذا حفظه الرجل كان فقيها؟

فقال رسول الله ﷺ: «من حفظ على أمتى أربعين حديثا من أمر دينها، بعثه الله فقيها، وكنت له يوم القيامة شافعا وشهيدا».

ولعل هذين الحديثين وأمثالهما هما اللذان جعلا بعض العلماء يؤلفون كتبا تحمل وصف: الأربعين حديثا، واختلفت مقاصدهم فى تأليفها وجمعها وترتيبها، حتى عدد منها الشيخ مصطفى بن عبد الله الشهير بالملا كاتب جلبى فى كتابه: «كشف الظنون عن أسامى الكتب والظنون» أكثر من سبعين كتابا تحمل اسم أو وصف «الأربعين» ومن أشهرها «الأربعين» للإمام النووى.

● وما هو الهدف من العلم بفروعه المختلفة؟

لقد أجاب عن ذلك رسول الله ﷺ، وذلك فيما يلى:

– روى البيهقى فى –الشعب– بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا من أسمائكم[1] ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا، وتعلموا من العربية[2] ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا، وتعلموا من النجوم[3] ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر، ثم انتهوا».

● وكلمة ثم انتهوا –فى الحديث– تعلمنا ما هو محظور الذهاب إليه من هذه العلوم.

وبعد:

فإن الإسلام يحض على العلم ويكرم العلماء ويقرب منزلتهم من منزلة النبوة.

وهذه النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة التى توجب تحصيل العلم، وتعد العلماء بأعلى المنازل عند الله تعالى، إنما تؤكد حرية العقل وحرية العلم، وأن ليس بين الإسلام والعقل تعارض – فضلا عن تناقض أو عداء –كما يهذى بذلك الذين لا يعلمون أو الذين يعلمون ولكنهم يحقدون على الإسلام.

---

(١) يقصد بالأسماء: الأنساب، ويشير إلى عدم التفاخر بها.

(٢) يقصد بالعربية: اللغة العربية وقواعدها من النحو والصرف والبلاغة.

(٣) يقصد بالنجوم علم الفلك، ويشير إلى خطر ما وراء ما صرح به من التنجيم ونحوه.

ثالثا : نصوص فى وجوب التعليم

أ – نصوص من القرآن الكريم :

– قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)** ﴾ [آل عمران : ١٨٧].

قال المفسرون فى معنى الآية :

واذكر أيها النبى إذ أخذ الله العهد المؤكد على أهل الكتاب أن يوضحوا معانيه، وألا يخفوا شيئا من آياته عن الناس، فألقوه وراء ظهورهم نابذين له، واستبدلوا به متاع الدنيا طالبين له، ومتاع الدنيا مهما يكن كالثمن البخس الحقير فى مقابل الهداية والإرشاد، فقبحًا لما فعلوا.

وأقول(١) : فى هذه الآية الكريمة ميثاق أخذه الله تعالى على كل من آتاهم الكتاب؛ كاليهود والنصارى والمسلمين، أخذ عليهم هذا الميثاق عن طريق رسلهم عليهم الصلاة والسلام الذين بينوا لهم، وقدموا لهم الحجج والبراهين، فلزمتهم بذلك البيان الحجة فى أن يبينوا لغيرهم من الناس.

ومضمون هذا الميثاق كما فهمته من الآية الكريمة هو :

- أن يبينوا للناس ما فى الكتاب الذى جاء من عند الله،
- وأن يهدوهم إلى الحق والخير،
- وألا يكتموا عنهم من هذا الميثاق شيئا، مهما يكن الثمن الذى يقدم إليهم من أعداء الله لأجل هذا الكتمان.

ومن المعلوم أن هذا التبيين وذلك الهدى إلى الحق والخير يكون مقدما منهم إلى كل أحد بغض النظر عن دينه ومعتقده.

فالمسلمون يرشد حائرهم، ويهدى ضالهم، ويُعلم جاهلهم، وتقوى به عزائمهم، ويعزز

---

(١) جاء ذلك فى كتابنا «التربية الإسلامية فى سورة آل عمران» من سلسلة : التربية فى القرآن الكريم، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة: ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

به انتماؤهم إلى الإسلام، وتؤكد به دعوتهم إلى التضحيات من أجل هذا الدين.

وغير المسلمين يدعون بهذا التبيين إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، عند الحاجة إلى هذا الجدال.

– وقال جل شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال المفسرون:

المراد بالإنذار التعليم والإرشاد(١).

وهذه الآية الكريمة كالآية السابقة توجب التعليم على كل قادر عليه، وإن كانت لم تأت بصيغة الأمر المباشر.

– وقال جل وعلا: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وهذه الآية الكريمة توضح أن الاجتماع الكامل على الحق فى ظل كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ هو أن يكون المؤمنون أمةً يدعون إلى كل ما فيه صلاح الناس فى دينهم أو دنياهم، ويأمرون بالطاعة وينهون عن المعصية، فيكونون بذلك من الفائزين فوزا كاملا، فهى آية توجب التعليم على الأمة كلها.

– وقال عز وجل: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهذه الآية الكريمة أم ورأس فى باب التعليم والدعوة إلى الله، فهى لم تكتف بالأمر بالتعليم والدعوة، وإنما زادت على ذلك أن وضحت وسائل التعليم وهى:

الحكمة: وهى القول الحكيم المناسب لخاصة الناس وأصحاب العقول والثقافة منهم.

والموعظة الحسنة: وهى القول اللين الذى يناسب عامة الناس ممن يلائمهم الوعظ وضرب الأمثال التى توجههم إلى الحق.

---

(١) قد ألقينا الضوء على مضمون هذه الآية الكريمة، ونحن نتحدث عن وجوب التعلم من هذه النقطة من الكتاب.

والجدال بالتى هى أحسن: وهو المحاورة والنقاش بالطريقة التى هى أحسن الطرق فلا عنف فيها ولا توبيخ، وهذا أنسب ما يكون لأصحاب الملل السابقة من أهل الكتاب.

– وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ [فصلت: ٣٣].

وهذه الآية الكريمة توجب التعليم على القادر عليه، ولكنها تقرن التعليم والدعوة –وذلك كلام– بالعمل الصالح؛ حتى يكون فى المعلم قدوة للمتعلم، وحتى لا يكون المعلم ممن يأمرون الناس بالخير ولا يأتونه.

وعلى المعلم أن يعلن – وهو يقول ويعمل – أنه من المسلمين الذين انقادوا لله ولأوامر الله تعالى.

– وقال عز من قائل: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾ [يوسف: ١٠٨].

والآية الكريمة توجب التعليم والدعوة، وتخبر بأنهما طريق النبى ﷺ وطريق كل من اتبعه، أن يعلموا الناس ويدعوهم إلى طريق الحق وهم على بصيرة ودراية وتثبت مما يعلمونه الناس ويدعونهم إليه، ويخبروا الناس بأنهم ينزهون الله تعالى عن كل ما لا تليق به ولا يشركون به أحداً سواه؛ لأن هذا هو لب التعليم وجوهر الدعوة إلى الله تعالى.

– وقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾

[آل عمران: ١٦٤].

وللمسلمين فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة فإذا كانت وظيفته: التلاوة –وهى تعليم– والتزكية– وهى تعليم– وتعليم الكتاب الكريم وسنته المطهرة، وذلك من صميم التعليم، فتلك إذن هى وظائف المسلمين المقتدين برسول الله ﷺ.

فهى توجب التعليم على كل قادر عليه، حتى تنصلح عقائد الناس ويقوى إيمانهم، ويستقيموا على منهج الكتاب والسنة فينفعهم ذلك فى الدنيا والآخرة.

– وقال عز وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ﴾ [الجمعة: ٢، ٣].

يَمْتَنُّ الله تعالى على عباده بأن بعث فيهم رسولا منهم، يقرأ عليهم آيات الله ويطهر عقائدهم وأخلاقهم من الضلال والانحراف، ويعلمهم القرآن والفقه فى الدين، بل بعثه فى آخرين منهم لم يجيئوا بعد ولكنهم سيجيئون بنفس الدعوة والتعليم الذى جاءهم به.

وكل مسلم يدرك من هذه الآية الكريمة أن التعليم للناس واجبه اليوم وغدا، وبعد أن يموت؛ إذ عليه أن يترك لمن يأتون بعده ما يهديهم من العلم -كما ترك رسول الله لمن لم يلحقوا بصحابته رضوان الله عليهم - ترك لهم الكتاب والسنة، وأخبرهم بأنهم إذا تعلموا الكتاب والسنة لن يضلوا أبدا.

وبعد: فإن هذه الآيات جميعا توجب التعليم على المسلمين.

● هؤلاء الذين يعلمون غيرهم ممن أوجب الله عليهم التعليم هم: العلماء ورثة الأنبياء عليهم السلام، وهم القائمون على نفس الوظائف التى كان يقوم بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم الساعون فى نفس الطريق، وهم العاملون فى هذا التعليم حسبة لوجه الله تعالى كما كان يفعل الأنبياء؛ إذ ورد على لسان كثير منهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (١٠٩) ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. والضمير فى قوله «عليه» على التعليم الذى يعلمهم إياه(١).

وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا».

ب - ونصوص من السنة النبوية المطهرة:

- روى الترمذى بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير».

- وروى الترمذى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) ورد هذا التعبير: «ما أسالكم عليه من أجر» فى المواضع التالية من القرآن الكريم: الفرقان: ٥٧، والشعراء: ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ على السنة محمد ونوح، وهود، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام، كما ورد فى آيات أخرى عديدة من القرآن الكريم بصيغ أخرى.

«إن الناس لكم تبع، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبًا مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، وأفتوهم».

وكلمة «أفتوهم» فى الحديث الشريف معناها: علموهم، كما شرحها علماء الحديث، ولأن الفتوى تعليم للمستفتى بحكم من أحكام الإسلام.

– وروى ابن ماجة بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر لأن تغدو، فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم، عمل به أو لم يعمل، خير من أن تصلى ألف ركعة».

– وروى البيهقى بسنده عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم وعلموه الناس».

– وروى البيهقى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا ولا تعنفوا؛ فإن المعلم خير من المعنف».

– وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين: إحداهما يقرءون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبى ﷺ: كل على خير، هؤلاء يقرءون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما، فجلس معهم».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من علّم علما فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجر العامل».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم».

- وروى الديلمي -في مسند الفردوس- بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس، أعطى ثواب سبعين صديقا».

- وروى الطبراني بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نعم العطية، ونعم الهدية؛ كلمة حكمة تسمعها، فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها، تعدل عبادة سنة».

- وروى البيهقي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة، يزيده الله بها هدى، أو يرده بها عن ردى».

- روى ابن ماجة بسنده عن جبير بن مطعم عن أبيه رضى الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بالخَيْف من مِنًى، فقال: «نضر الله امرأ سمع مقالتى فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

- وروى البيهقي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نضر الله رجلا سمع منا كلمة فبلغها كما سمع، فإنه رب مبلغ أوعى من سامع».

- وروى البيهقي -في الشعب- بسنده عن أبى بكرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال فى خطبته بمنى: «ألا ليبلغن الشاهد منكم الغائب، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه».

- وروى البيهقي -في الشعب- بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من أجود جوداً؟.

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: الله أجود جودا، ثم أنا أجود بنى ادم، وأجود من بعدى؛ رجل علم علماً فنشره، يأتى يوم القيامة أميراً وحده، قال: أمةً[1] وحده».

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته:

(١) الأمة من معانيها: الرجل الجامع لصفات الخير، كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

علماً علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفًا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته، يلحقه بعد موته».

● والمعروف أن الأصل هو الانتفاع بالتعليم بحصول الأجر من الله تعالى لا بطلب أعراض الدنيا ممن يعلمهم؛ لأن التعليم حسبة لوجه الله تعالى، وذلك أن إخلاص العمل كله لله تعالى واجب لا ينفك أبدا، فمن علم العلم أو علمه للحصول على ما فى أيدى الناس، أو لمباهاة العلماء من أقرانه، فكل ذلك مما حرم الله، كما ذكرناه فى أكثر من حديث نبوى»[1].

روى البيهقى بسنده عن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من ابتغى العلم ليباهى به العلماء، أو يمارى به السفهاء، أو ليقبل إفادة الناس إليه، فإلى النار».

● والمعُلم يجب أن يعلم الناس ما تستطيع عقولهم إدراكه أى يتجنب معهم عويص المسائل، ومشكل القضايا.

– روى البيهقى بسنده عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ قال: «إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم عما يغرب عليهم، ويشق عليهم».

– وروى الديلمى –فى مسند الفردوس– بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!».

ورواه البخارى موقوفا على علىٍّ رضى الله عنه[2].

● والعلم الذى تعلمه المسلم لا يجوز له كتمانه عن أحد سأله عنه لأنه أصلا مأمور بأن يعلمه لسواه، فكيف يكتمه إن سئل عنه؟.

هكذا جاءت الأحاديث النبوية الشريفة، ومنها:

– ما روى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما من رجل يحفظ علما فيكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجمًا بلجام من النار».

---

(١) كان ذلك ونحن نتحدث عن وجوب العلم.

(٢) وسبق أن قلنا إن الموقوف فى مثل هذه الظروف كالمرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأى.

– وروى البيهقى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه جيء به يوم القيامة وقد ألجم بلجام من نار».

– وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: والله لولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت عنه– يعنى النبى ﷺ –شيئا أبدا، لولا قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)** ﴾ [البقرة: ١٧٤، ١٧٥].

وبعد:

فتلك هى الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى توجب على العالم المسلم أن ينشر علمه وأن يعلم الناس، وتحرم عليه كتمان العلم أو الضَّن به على من يحتاج إليه.

ومعنى ذلك أن الإسلام لم يكتف بجعل طلب العلم واجبًا، ولا بجعل تحصيل العلم واجبا، بل جعل تعليم العلم ونشره واجبًا، وما ذلك فى تصورى إلا لأن الإسلام يريد أن يحرر العقل من الوهم والخرافة، ويحرر العلم من الكهنوت والكتمان.

وكل ذلك يعنى فى النهاية احترام الإسلام للعقل والعلم، فكيف يزعم الزاعمون أن العقل والشرع متعاديان؟.

لقد رددنا على هذه الفرية فى تلك الصفحات الأخيرة، وإن بعض أسلافنا رضوان الله عليهم قد أوسعها بحثا ودراسة وأفاض فيها بما كان يلائم عصره الذى عاش فيه(١).

والله تعالى نسأل أن يأجرنا على ما قدمنا من جهد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) هو أحمد بن تيمية رحمه الله فى كتابه الموسوعى: درء تعارض العقل والنقل.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين،

والصلاة والسلام على خاتم رسله محمد ﷺ وعلى آله وصحبه، والسائرين على دربه إلى يوم الدين.

وبعد:

فبنعمة من الله وفضل تم إنجاز هذا الكتاب «التربية العقلية» من سلسلة مفردات التربية الإسلامية، التى أنجز منها قبل هذا الكتاب حلقتان:

التربية الروحية،

والتربية الخلقية.

والله تعالى نسأل أن يعين على إنجاز ما بقى من هذه السلسلة.. لعلها تسد فراغا أشعر به فى مكتبة التربية الإسلامية.

وأرجو الله تبارك وتعالى أن يغفر ما يحتمل أن أكون وقعت فيه من قصور أو تقصير، فهذا جهدى ومبلغ علمى، وما أوتيت من العلم إلا قليلا.

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك.

محتوى الكتاب

الفصل الثانى

تربية الإسلام للعقل

ويتناول :

الفصل الثالث

بين الدين والعقل

ويتناول :

الفصل الرابع

قائمة بأسماء كتب المؤلف المنشورة

أولا :

فى الفكر الإسلامى وقضاياه :

الكتاب	الناشر
١ – مع العقيدة والحركة والمنهج	دار الوفاء بمصر
٢ – الغزو الصليبى والعالم الإسلامى	دار التوزيع والنشر الإسلامية
٣ – المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى	دار المنار – بالقاهرة
٤ – الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى	دار المنار – بالقاهرة
٥ – التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى، وطرق التغلب عليه	دار الوفاء بمصر
٦ – التعريف بسنة الرسول ﷺ –أو– علم الحديث دراية	دار التوزيع والنشر الإسلامية
٧ – نحو منهج بحوث إسلامى	دار الوفاء بمصر
٨ – السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب	دار عكاظ بالسعودية

ثانيا :

فى التربية الإسلامية :

الكتاب	الناشر
٩ – تربية الناشئ المسلم	دار الوفاء بمصر
١٠ – فقه الأخوة فى الإسلام	دار التوزيع والنشر الإسلامية
١١ – منهج التربية عند الإخوان المسلمين	دار الوفاء بمصر
١٢ – وسائل التربية عند الإخوان المسلمين	دار الوفاء بمصر

ثالثا :

سلسلة التربية فى القرآن الكريم :

الكتاب	الناشر
١٣ – التربية الإسلامية فى سورة المائدة	دار التوزيع والنشر الإسلامية
١٤ – التربية الإسلامية فى سورة النور	دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٥ – التربية الإسلامية فى سورة آل عمران	دار التوزيع والنشر الإسلامية
١٦ – التربية الإسلامية فى سورة الأنفال	دار التوزيع والنشر الإسلامية
١٧ – التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب	دار التوزيع والنشر الإسلامية

رابعا :

سلسلة مفردات التربية الإسلامية :

١٨ – التربية الروحية	دار التوزيع والنشر الإسلامية
١٩ – التربية الخلقية	دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٠ – التربية العقلية	دار التوزيع والنشر الإسلامية

خامسا :

فى فقه الدعوة الإسلامية :

٢١ – فقه الدعوة إلى الله	دار الوفاء بمصر
٢٢ – فقه الدعوة الفردية	دار الوفاء بمصر
٢٣ – المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله	دار الوفاء بمصر
٢٤ – التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة	دار الوفاء بمصر
٢٥ – عالمية الدعوة الإسلامية	دار الوفاء بمصر
٢٦ – فقه المسئولية فى الإسلام	دار التوزيع والنشر الإسلامية

سادسا :

سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا :

٢٧ – فهم أصول الإسلام	دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٨ – الإخلاص فى مجال العمل الإسلامى	دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٩ – ركن العمل أو منهج الإصلاح الإسلامى	دار التوزيع والنشر الإسلامية
٣٠ – ركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلى به	دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣١ – ركن التضحية، أو بذل النفس والمال وكل شيء فى سبيل الله دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣٢ – ركن الطاعة دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣٣ – ركن الثبات دار التوزيع والنشر الإسلامية

سابعا :

فى الأدب الإسلامى :

٣٤ – مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه دار عكاظ بالسعودية

٣٥ – جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه دار عكاظ بالسعودية

ثامنا :

فى الدراسات الأدبية :

٣٦ – القصة العربية فى العصر الجاهلى دار المعارف بمصر

٣٧ – النصوص الأدبية تحليلها ونقدها دار عكاظ بالسعودية

تاسعا :

كتب في طور الإعداد للنشر :

١ – باقى سلسلة التربية فى القرآن الكريم

أ – التربية الإسلامية فى سورة النساء

ب – التربية الإسلامية في سورة التوبة

٢ – باقى سلسلة مفردات التربية الإسلامية

أ – التربية الاجتماعية

ب – التربية البدنية

جـ – التربية الدينية

د – التربية السياسية

هـ – التربية الاقتصادية

و – التربية الجهادية

ز – التربية الجمالية

٣ – باقي سلسلة : فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا

أ – ركن التجرد

ب – ركن الأخوة

جـ – ركن الثقة

٤ – التربية الإسلامية فى المدرسة

٥ – التربية الإسلامية فى المجتمع

